الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة الإخوة منتوري-قسنطينة -
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
قسم اللغة العربية وآدابها

رقم التسجيل: ....
رقم:.........

مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في الأدب القديم
تحت عنوان

المعتمد بن عباد -دراسة نفسية-

من اعداد :
الطالب محمد خيط

تحت إشراف:
أ. الدكتور عبد الله حمادي

أعضاء لجنة المناقشة:

-	أستاذ..........	رئيسا	جامعة...........................
-أ.د.عبد الله حمادي	مشرفا ومقررا		جامعة منتوري - قسنطينة -
-	أستاذ..........	عضوا	جامعة...........................
-	أستاذ..........	عضوا	جامعة...........................

السنة الجامعية2005/2004

المقدمة

في أثناء الجلسات الدراسية التي كان يعقدها الأستاذ الدكتور عبد الله حمادي مع دفعة طلبة الدراسات العليا - شعبة الأدب القديم- تناول شخصية المعتمد بن عباد بالذكر و أشار إلى أنها شخصية تفردت بالعديد من المواقف و السلوكات و بالكثير من الحفاوة و الاهتمام من قبل الباحثين الأوروبيين والعرب لأنها تكرس النزعات الفردية التي تمثل أجلى مظاهر الحرية الإنسانية.

و لازلت أتذكر كيف تحدث أستاذنا حمادي عن المعتمد حديثا ممزوجا بالإعجاب توقف خلاله عند العديد من المحطات والمواقف الغريبة التي كان يصنعها بنفسه أحيانا وتصنعها له الأقدار والظروف أحيانا أخرى، فكانت حياته ملأى بالإثارة البالغة إذ تجمع بين الواقع والخيال؛ فكأنما هي سيرة بطل ملحمي تخلع عليه الروايات والأخيلة صفات البطولة الخارقة والقوة الجبارة التي تخذلها الأقدار والحظوظ.

والحق أن سيرة المعتمد إنما هي صنيعة خيال تشكل في عصر تزاحمت فيه الأحداث وانقلبت فيه الموازين بشكل أذهل العقول وأطاش النفوس فتفجرت وسالت مطامعها ومطامحها رخيصة غريبة لاتحتكم إلى منطق أو خلق أو عرف أو دين، وبعد ضياع الأندلس وسقوطها في يد النصارى ازداد بريق شخصية المعتمد لأن ضياع الأندلس كشف للجميع أنه لو استفاق ضمير كل أحد كما استفاق ضمير المعتمد حين تجرد من ملكه وضحى به في سبيل مصلحة الأمة كي يعيد لها أنفاسها المخنوقة من جديد لما حدث ما حدث.

لقد كان حديث الدكتور حمادي عبد الله عن المعتمد بن عباد كافيا لإبراز العديد من جوانب ثراء شخصيته ومكوناتها من محيط أندلسي طائفي، وعنصر عربي أصيل ينحدر من سلالة اللخميين التي كان الأستاذ حمادي كثيرا ما يتلو علينا اعتزاز المعتمد بها.

وعبق شخصية المعتمد إنما هو جزء من عبق الأندلس الفردوس المفقود. التي يفجر اسمها بداخلي مجموعة مشاعر ساحرة، ولا أبالغ إن قلت إنني حينما أرى آثار الأندلس الماثلة عمرانا وآدابا وحضارة ترتسم في مخيلتي مشاهد

مجد أسطوري وحضارة خصبة مستها يد البلى والاندثار في غفلة من أبنائها تستحق أن تكون وقائعها دروس ومواد تاريخ يعيد تشكيل الوعي من ألمها الممض، كما يتملكني حنين طفولي تكدره مرارة الفقد حد البكاء.

إن الوهج الأندلسي الزاخر قد تدفق مع الحديث الباهر لأستاذنا حمادي، ليوجه رغبتي لدراسة شخصية المعتمد دراسة أكاديمية، رغم تشتت إرادتي وتوزعها بين العديد من المواضيع النقدية القديمة ولولا أن حياة المعتمد وشخصيته الغرائبية ظلتا أكثر المواضيع حضورا في الذهن والنفس لما استقر رأيي في نهاية المطاف على سبرها ودراسة جوانب ثرائها ومنابع تفردها.

و لم يكن اختيار المنهج يحتاج إلى بحث فقد كان"المنهج النفسي"هو الأصلح من بين كل المناهج لتحقيق المبتغى، فالجانب البارز في الموضوع هو الشخصية التي جعلت حياة المعتمد شعرا وحولت الشعر إلى شريعته في الحياة.

وقد استقر خياري في بداية الأمر على دراسة شعر المعتمد دراسة نفسية فتقدمت للمجلس العلمي الموقر بالمشروع للتسجيل وبعد دراسته أقره مع تعديل رأيته طفيفا يومها لأنه مس العنوان الذي أصبح " المعتمد بن عباد - دراسة نفسية - " بعدما كان " دراسة نفسية في شعر المعتمد بن عباد " إلا أنني أثناء البحث اكتشفت قيمة هذا التعديل لأن الملك الشاعر المعتمد بن عباد " خلدته سيرته السياسية التي اختزلها التاريخ في دوره البارز في معركة الزلاقة واستنجاده بيوسف بن تاشفين غير مبال بتحذيرات من نبهوه إلى إمكانية انقلاب ابن تاشفين عليه لأنه أدرك أن حماية الأندلس أولى من حماية عرش مملكته؛ فالسيرة الشخصية هي الجانب الأبرز في هذه الدراسة التي جاءت مقسمة إلى قسمين هما:

- المدخل النظري.
- القسم التطبيقي.

في القسم الأول تحدثت وفق منهج تاريخي وفي لمحة موجزة عن عصر الطوائف - الذي كان المعتمد أحد ملوكه - وتميز بنهضة أدبية كبيرة صنعتها ممالك الطوائف الباحثة عن المجد السياسي والخلود التاريخي، وتحدثت

عن مملكة بني عباد باعتبارها المملكة التي أدار الشاعر آخر صفحاتها، وباعتبارها إحدى هذه الممالك التي نال الشعر والشعراء فيها أكبر التقدير حيث راجت بضاعتهم، وعلا قدرهم، ذلك أن العباديين بذلوا كل ما في وسعهم لاحتضان لواء الخلافة الساقط، فأحيوا كل مناقب العرب وتحلوا بسيماهم في ترصيع البلاط بأكابر الشعراء، والإنفاق عليهم، وجعلهم وزراء وندماء ملوكهم تأكيدا منهم على أنهم الأحق والأولى من بين الجميع بإرث الخلافة المنتهب لأنهم عرب متأسبنون لم يستطع لا التاريخ ولا الجغرافيا أن ينسياهم تلك المناقب الرمزية والصفات العريقة عراقة الأصل والمحتد، ثم رصدت حياة المعتمد من المنشأ إلى النهاية وذكرت كل العوامل التي رأيت أنها أسهمت في تكوين هذه الشخصية ذلك أنه " لا يمكن فصل بسيكولوجيا شخص ما عن تاريخه الشخصي "[1].

ولكي يحافظ هذا القسم من البحث عن سياقه النظري فقد تحدثت عن علاقة الأدب بعلم النفس " ثم تحدثت عن " النقد النفساني "، وبعدها عرفت العقدة النفسية البارزة على شخصية المعتمد وهي عقدة الخصاء وبينت أن البحث يتحدث عن هوامها أكثر من الحديث عنها، ورأيت أنه لابد من بيان منشئها حيث تبين لي أن "هوام الخصاء " هو سمة عصر ساحق أحسبه تتويجا لعصر " المنصور بن أبي عامر " وحاولت قدر المستطاع أن أرصد من هذه الفترة بعض الأقوال والأشعار والممارسات المعبرة عن ذلك، ولا أخفي سرا إن قلت إن " سقوط الخلافة " كان بمثابة اندثار عنوان الرجولة الأندلسية التي عاش جميع ملوك الطوائف تحت وقعها إما هاربين من معرتها أو ساعين لإثبات صدق توجههم وعزمهم على استرجاعها، ولا أستبعد أن يكون وصف المؤرخين لمؤسسي العصر الطائفي " بالمنتزين " إلا تعبيرا عن عدم أحقية أي من هؤلاء بالمكانة التي تبوءوها إثر سقوط الخلافة وإذا صحت هذه الدعوى فإنه من الممكن أن نبحث عن " عقدة الإثمية " التي كبلت هذا الجيل وأورثته العجز والخور رغم ما يظهره من بطش وفتك، ثم تحدثت عن نظرية " الدور" لألبورت"

1- مادان ساروب. دليل تمهيدي إلى ما بعد البنيوية وما بعد الحداثة. ترجمة خميسي بوغرارة. منشورات مخبر الترجمة في الأدب واللسانيات جامعة منتوري. قسنطينة. 2003. ص14.

"G.W.ALLPORT " وهي إحدى نظريات الشخصية التي رأيت انها تفسر سر التجاذب الوجداني الذي ميز الملك الشاعر حيث أنه عاش مرحلة الإمارة وأدار الملك بنفسية وعقلية الشاعر الفنان فكانت سلوكاته كثيرا ما تنفلت عن مقتضى مقامه وكانت مقتضيات المقام الذي يديره كثيرا ما تتناقض وطبعه وسمات شخصيته.

أما القسم الثاني فكان تطبيقيا محضا حيث استقصيت مظاهر العقدة أو هوامها من خلال شعر الغزل والاعتذار والمدح فتبين لي أن "السلطة الأبوية" ممثلة في المعتضد قد لعبت دورا بارزا في تكوين هوام الخصاء لدى المعتمد بفعل التربية القاسية، إذ كان يعد أبناءه لتسيير المملكة، ولأن المعتضد كان مدركا للتحديات والظروف والأجواء التي لا تتيح لأحد أن ينساق وراء عواطفه أو مشاعره وفي كثير من الأحيان لا تسمح حتى بالحديث عن الأخلاق والمبادئ فقد تميزت تربيته بالقسوة والصرامة فكان في نظر المنهج النفسي أبا ساحقا، وقد تدرج البحث في جانبه التطبيقي وفق مراحل حياة الشاعر من الإمارة إلى الملك إلى الأسر وهي الفصول الثلاثة لهذا القسم، حيث تتبعت أهم الظواهر النفسية الكفيلة بالإحاطة بجوانب شخصية المعتمد خلال مسار حياته الحافل، وقد انطوى كل فصل على مجموعة من العناصر تعد رصدا للظواهر النفسية المميزة لكل مرحلة.

وقد واجهتني مصاعب جمة أهمها عدم التفرغ للبحث والتشتت بين أعباء وظيفة التعليم المرهق و الظروف الاجتماعية القاهرة إضافة إلى صعوبة المنهج النقدي الذي يتطلب تكوينا وتدريبا متخصصا حتى إن " الشرط الأساسي الذي تفرضه معاهد الإتحاد الدولي للتحليل النفسي للحصول على عضويته هو إجراء تحليل نفسي على كل طالب على يد أستاذ في هذا الفن قبل أن يلقن أساليب العلاج ويتدرب عليه"[1] فالممارسة العملية لهذا المنهج ضرورية لأنه منهج لا تكفي المطالعة المتخصصة ولا القراءة المعمقة لمصادره و مراجعه للتمكن منه والإحاطة بتقنياته وإجراءاته فالإقدام عليه بهذا الشكل يخرج لنا تحليلا (وحشيا)[2] حسب علماء هذا المجال.

1- د. مصطفى زيور. عبقرية فرويد. مجلة الفكر العربي المعاصر. العدد01. نيسان1981

2- " ...كل ...الذين لديهم (فكرة عن اكتشاف التحليل النفسي) دون أن يكونوا تلقوا الإعداد النظري والتقني الضروري يمارسون التحليل الوحشي"

- انظر:د. حسين عبد القادر.ود. محمد أحمد النابلسي. التحليل النفسي. ماضيه ومستقبله. دار الفكر المعاصر.بيروت.ط الأولى.2002. ص395، 396.

ولولا اقتناعي بأن النقد النفساني يختلف كثيرا عن التحليل النفسي السريري حين يستنطق نصوص أدبية للمبدعين - إذ شتان بين الناقد والمعالج- لما أقدمت على هذه المجازفة.

والحق أنه لولا تفهم الأستاذ المشرف وتشجيعه لي من خلال إمدادي بالمصادر والمراجع وتزويدي بالتوجيهات القيمة لما كتب لهذا البحث أن يرى النور. فله مني أسمى آيات التقدير والتمنيات بالدوام في خدمة البحث.

عصر الطوائف

انتهت دولة بني أمية في الأندلس بالإفلاس السياسي التام، حتى « نودي في الأسواق والأرباض لا يبقى بقرطبة أحد من بني أمية ولا يكنفهم أحد »[1]. وكان الخليفة هشام بن محمد الملقب بالمعتد بالله آخر خلفائهم وهو من الذين حكموا الأندلس، و لم يحسنوا السيرة في الرعية، إذ أساء أيما إساءة إلى دولته الحاملة للواء الخلافة المهان الممرغ، فتفاقمت نقمة الناس، واشتعل سخطهم فما كان إلا أن « اجتمع الملأ على خلعه وهتفوا بإبطال الخلافة جملة لعدم الشاكلة»[2] وتم الأمر بتنفيذ ما خرج به الملأ و« خلع منها يوم الثلاثاء الثاني عشر لذي الحجة من سنة اثنين وعشرين »[3]، وهو تاريخ سقوط دولة بني أمية في الأندلس، وانتهاء عصر الخلافة، لتدخل رسميا عصرا جديدا خطيرا هو، عصر ملوك الطوائف، الذي آل فيه أمر الأندلس إلى « طوائف من الموالي والوزراء وأعياص الخلافة وكبار العرب والبربر»[4]« واقتسموا خطتها وتغلب بعض على بعض»[5]، مستغلين أجواء الفتنة والضعف والذبول، فاقتطع كل من واتته هذه الأجواء نصيبه من الكعكة الأندلسية، فلما نال «كل متغلب منهم ما تغلب عليه»[6] وظفر بما استطاع أن يجمع ويقتطع ، بدأت الأطماع تتوسع وتكبر ، فامتدت الأيدي المتغلبة لا للتصالح والتحالف، ولكن للتعارك والتناحر طلبا للإستقواء، فـــ «استقل أخيرا...ملوك استفحل أمرهم وعظم شأنهم»[7]بعدما بلغ التناحر مبلغه، وعرفت الأندلس-في لظى هذه الأجواء-عشرين دويلة ما بين إمارة ومملكة تداول عليها ثمانون متغلبا«تقسموا ألقاب الخلافة»[8] كما قال ابن رشيق[9]:

أَلقابُ سلطَنَةٍ فِـــي غَيْرِ مَمْلَكَةٍ   كَالْهِرِ يَحْكِي اِنْتِفاخًا صَوْلَةَ الأسَدِ

1- ابن عذاري. البيان المغرب. تحقيق ومراجعة ج س كولان وإ. ليفي بروفنسال. دار الثقافة بيروت. ط2. 1980.ج3.ص 152.
2- م ن. ص 150.
3- م ن.ص 145.
4- ابن خلدون. كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر. دار الكتاب اللبناني. 1968. القسم الأول. مج4.ص 336.
5- المقري. نفح الطيب. تحقيق يوسف الشيخ محمد البقاعي. دار الفكر. بيروت ط1. 1998 الجزء الأول. ص105.
6- المراكشي. المعجب. تحقيق محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي. دار الكتاب. الدار البيضاء. ط7. 1978. ص105.
7- المقري. نفح الطيب. ج1. ص339.
8- المراكشي. المعجب. ص105.
9- ابن رشيق. العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده. تحقيق د.عبد الحميد هنداوي. المكتبة العصرية.بيروت. ط1. 2001.ج1.ص05.

فصار « كل واحد منهم يخطب له بالخلافة بموضعه وتلك فضيحة لم يرى مثلها »[1].

وفي مقابل هذا التحول الطائفي في الأندلس « استيقظت إسبانيا النصرانية ومدت يدها إلى أوربا... ثم إن أهل المغرب فيما يلي « الزقاق » نظموا أمورهم في صحرائهم وأقاموا لأنفسهم دولة»[2] وهكذا وجد ملوك الطوائف أنفسهم يعيشون « بين ناري النصارى في الشمال والبربر في الجنوب »[3] وإذا كانت التحديات والأخطار تقرب الفرقاء، وتوحد البعداء - ولو إلى حين - فإن ملوك الطوائف على نقيض ذلك راحوا يتناحرون ويتصارعون حتى وصل التناحر والتطاحن وطلب الإستقواء على بعضهم إلى حد التحالف مع نصارى الشمال المتربصين بهم الذين استثمروا هذا التحول، واستغلوا حال هؤلاء الملوك أيما استثمار واستغلال حيث شجعوهم ووزعوا مساعداتهم عليهم بميزن مخططاتهم الإستردادية التي جدوا في تجسيدها ميدانيا مطمئنين إلى أن ساعة « الاستيلاء على ثغور المسلمين... بالتضريب بين ملوكها، وإغراء بعضهكم ببعض »[4] قد أزفت وحان أوانها؛ فراحوا يرهقونهم ويضعفونهم اقتصاديا بالضرائب التي جعلت المسلمين يدفعون الجزية للنصارى غير شاعرين بأنهم أحق وأولى بها، ولا متفطنين إلى أنهم يخدمون بها أعداءهم ويسعون إلى حتوفهم بأظلافهم، فتمادوا في غيهم وغفلتهم حتى أنجز النصارى مشاريعهم وحققوا أهداف خططهم الرامية إلى الإضعاف الاقتصادي للمسلمين. والمؤلم - حقا أن نجد إذعان وانقياد ملوك الطوائف للنصارى، والتزامهم بدفع الضرائب والجزى السنوية يحسب نصرة للدين، ويدرج ضمن حسنات وغرر أعمال هؤلاء المنتزين حتى استحقوا المدح على ذلك من قبل بعض الشعراء، فقد وجدنا « حسان بن المصيصي يمدح المعتمد ويهون عليه تلك الإتاوات، من جملة أبيات»[5]:

وَلَمْ تَطْوِ دونَ الْمُسْلِمينَ ذَخيرَةً　　　　تُهينُ كِرَامَ الْمُنْفِسَاتِ لِتَكْرُمَا

1- د. مختار العبادي. في تاريخ المغرب والأندلس. دار النهضة العربية. 1978. ص 258 نقلا عن أعمال الأعلام والقول لابن حزم في شأن ملوك الطوائف.
2-3 - إميليو غرسيه غومس. الشعر الأندلسي. ترجمة حسين مؤنس. مكتبة النهضة المصرية. القاهرة. ط2. 1956. ص44.
4- أحمد بن خالد الناصري. الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى. د. ط، الجزء الأول. ص111.
5- ابن بسام. الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة. تحقيق. د. إحسان عباس. الدار العربية للكتاب. ليبيا تونس. 1981. القسم الثاني/ المجلد الأول. ص 248.

تحيل فِــي فك الأسارى وإِنَّمَـــا تعاقد كفارا لتطلق مسلمـــــا

وَمَا كُنْتَ مِمَنْ شَحَّ بِالْمَالِ والقنا فتكتز دينارا وتركز لهذمـــــــا

فترسله للصفر أصفر عسجـــدا وإن خالفوا أرسلت أبيض مخذما

كما وجدنا أبا بكر الداني يقول في هذا السياق[1] :

في نصرة الدين لاأعدمت نصرته تلقى النصارى بما تلقى فتنخدع

تنيلهم نعما في طيها نقـــــــم سيستضر بها من كان ينتفــــع

ولئن كانت إستفاقة المعتمد في نهاية عهده وعهد الطوائف قد جعلته يرسل بيضه المخاذم للنصارى كما قال ابن المصيصي، لتأتي الزلاقة بعدها لتضر النصارى كما تنبأ أبو بكر الداني بذلك، مجاملا ومداهنا إلا أن هذا الشعر سيظل صورة صادقة لانتكاس عصر الطوائف وانقلاب زمانه حيث صار العار فضيلة محمودة والذل حيلة مقبولة، إنه ومهما أخرت استفاقة المعتمد سقوط الأندلس، ومهما غسلت شرفه وشرف آل عباد، فإن تلك الضرائب ستظل من أكبر الأخطاء السياسية التي وقع فيها ملوك الطوائف بلا استثناء وفي المقابل سيظل أمثال هذين الشاعرين ومثل هذا الشعر« مدح غرور،وشاهد زور، وملق معتف سائل، وخديعة طالب نائل »[2] لأن الواقع التاريخي والسياسي يؤكدان أن ملوك الطوائف في هذه الفترة كان «... رأيهم الإذعان، ودأب النصارى التسلط والعناد »[3] فلقد كانت سياسة الكف عن العدوان أو الإعانة مقابل الجزية تعني بالنسبة للنصارى شيئا واحدا هو أنهم «... إنما يقتلون أعداءهم على المدى البعيد ويقبضون ثمن ذلك ذهبا وفضة ونقدا، وسلاحا وملابس ومواشي وأغذية وخيلا وبغالا تساق إليهم عينا...»[4] فالجزى كانت وسيلة استتراف

1- إبن بسام. الدخيرة في محاسن أهل الجزيرة. القسم الثاني/ المجلد الأول.ص249.

2- م ن. ص ن.

3- م. ن. ص 248.

4- د. الطاهر أحمد مكي. خمسة قرون على الخروج من الأندلس. كتاب العربي رقم 58 (الأندلس). 15 أكتوبر2004 . ص11.

اقتصادي رهيب مارسه النصارى الاستردادیون على المسلمين " حتى استصفوا الطريف والتلاد وأتى على. الظاهر والباطن النفاذ"[1] ثم أجهزوا عليهم الواحد تلو الآخر. واللافت للانتباه عند النظر في ملوك الطوائف وما كانوا عليه من استكانة للعدو أنهم كانوا يعيشون مخدرين هاربين من ذلهم واستكانتهم بالإفراط في اللهو والقصف ومجالس الأنس وما يتبعها من قيان وغناء وخمور ونفقات مبذرة بلاحساب، ظنا منهم أن هذه المجالس من مقتضيات الأبهة الملوكية التي تكسبهم المهابة والإجلال فمما تذكره المصادر التاريخية أن المظفر بن الأفطس (ملك بطليوس) انهزم أمام غريمه المعتضد بن عباد الإشبيلي شر هزيمة حيث عاث في أرضه فسادا « وفتح عدة حصون ضمها إلى عمله... ودمر عمارات واسعة أفسد غلاتها وأوقع رعيته في المجاعة الطويلة »[2]. فلم يجد المظفر المهزوم ما يرد به شماتة، الأعداء سوى إرسال رسوله ليجلب له« وصائف ملهيات يأنس بهن نافيا بذلك الشماتة عن نفسه»[3] والأدهى أن رسوله لما اشترى الجاريتين عجز عن العودة بهما إلى سيده لأن مملكته كانت لا تزال تعيش حصارا فرضه المعتضد حتى سدت خيله « جميع الطرق»[4] والطريف في فلسفة الأبهة الطائفية أن رسول المظفر ظل بقرطبة يراقب الوضع فلما فك الحصار «... شيع بخيل كثيفة ومضى بهما وأولوا النهى يعجبون ويعجبون مما شهر به نفسه من البطالة أيام الحروب المحرمة لأطهار النساء على فحول الرجال العاقدة للأزرة »[5]. وبهذه الفلسفة التفاخرية المتكالبة على المظاهر كثر بناء القصور والمنى وظهرت المنتزهات، وكثر وصفها [6] حتى يخيل إلى من يطلع عليها أن الناس يعيشون أشهى وأحلى أيامهم، بينما العكس هو الصحيح، فقد كان هذا الترف والبذخ والانفاق يقتطع من عرق الرعية اقتطاعا يغرس الأضغان والأحقاد في نفوسها، إذ لاشك أن الحروب الداخلية والخارجية تحتاج إلى نفقات«... فيكفي أن نذكر أن المظفر بن

1- إبن بسام الدخيرة. القسم الثاني/المجلد الأول.ص248.

2، 3،4- ابن بسام الدخيرة. القسم الثاني/المجلد الأول.ص35.

5 - م. ن. ص 35 ، 36.

6 - انظر مثلا: المقري. نفخ الطيب.ج2. وانظر: الفتح إبن خاقان. قلائد العقيان.

باديس أنفق لأخذ وادي آش ستة بيوت من المال والجزى دراهم ثلثية في البيت الواحد منها مليون دينار ثلثية»[1] فإذا أضيفت إلى نفقات الحرب والجزى نفقات اللهو والترفه علمنا مدى ما تكون عليه الرعية، من بؤس، ومدى ما يقع عليها من حيف وجور.

ويبدو أن يوسف بن تاشفين قد استدل بكثرة النفقات التي تستهلكها قصور الأمراء؛ على وقوع الظلم على الناس فحينما استضافه المعتمد بن عباد في مملكته ــ عقب انتصار المسلمين بقيادتهما في الزلاقة ــ ورأى من صنوف النعم والخيرات التي خصه بها مستضيفه إضافة إلى مارأى من أحواله ولذاته سأل: « هل تختلف فتنقص عما عليه في بعض الأوقات؟ فقيل له:بل كل زمانه على هذا، فقال: أفكل أصحابه وأنصاره على عدوه ومنجديه على الملك ينال حظا من ذلك؟ فقالوا: لا. قال فكيف ترون رضاهم عنه؟ فقالوا: لا رضى لهم عنه فأطرق وسكت... »[2].

إن ملوك الطوائف فيما يبدو من سيرهم أنهم كانوا يدركون أن عصرهم هو عصر سوء وهوان وأنهم كانوا يشعرون بالخزي يسكن أعماقهم، و لم يستطع أي منهم أن يتخلص من عار التمزق والتفرق وإلغاء الخلافة، لهذا راحوا يتسترون وراء المجد الذي حسبوه مظاهر جوفاء، وقصور شماء ولسان حالهم يقول: «... إن المباني دالة على عظيم قدر بانيها »[3] متناسين أن ملكهم من الضعف والهشاشة التي لا نجد أبلغ من قول بن عذاري فيه إن زواله « أسرع من لحسة الكلب أنفه »[4]، ولهذا نجد أنهم كانوا يعيشون بمنطق النعامة إذ دسوا رؤوسهم في اللهو والأنس والبطالة توهيما للغير باستقرار حالهم، وخلوا حياتهم من المنغصات والمكدرات حتى إذا ما انجلى الغبار أدركوا أن فرسهم حمار.

إننا مهما حاولنا تفهم منطق ملوك عصر الطوائف فإننا لن نحكم عليهم إلا بالمكابرة الجوفاء التي يتمادى

1- د. إحسان عباس. تاريخ الأدب الأندلسي. عصر الطوائف و المرابطين. دار الثقافة بيروت. لبنان ط6. 1981. ص41 نقلا عن مذكرات الأمير عبد الله.
2- المقري. نفح الطيب. ج5. ص 279.
3- م ن. ج2. ص 30
4- إبن عذاري. البيان المغرب.ج3 .ص.

صاحبها حتى يلقى مصرعه، ولن نحكم عليهم إلا بسوء التدبير والتفكير في حال أمتهم التي مرغوها، لأن المجد لا يظهر من خلال هذه الشكليات والانتفاشات الفارغة، وإنما يظهر من حسن التحكم في شؤون رعيتهم، ودفع المخاوف عنها، وحماية حدودهم ورفع المظالم عن كاهل الناس الذين أثقلتهم الضرائب والجزى.

غير أن تهافت ملوك الطوائف على مظاهر المجد، وعلائم العظمة والسؤدد قد انعكس بالإيجاب على الأدب والأدباء، كتابا وشعراء ذلك أن الملوك هم أكثر الناس إحساسا بأهمية الشعر ودوره في تخليد المآثر والانجازات، ولا شك أن ملوك الطوائف كانوا في أمس الحاجة إلى من يضخم ممالكهم الصغيرة، ويخلد مآثرهم الهزيلة لأنهم يدركون أن كل من ربح في صفه شاعرا فقد ربح ذكرا وخلودا ومن خلت مملكته من الشعر والشعراء« شذت مساعيه وإن كانت مشهورة، ودرست على مرور الأيام وإن كانت جساما »[1]، لقد أدى هذا الإحساس وهذا الوعي والإدراك إلى طلوع نهضة أدبية من تحت ذاك الركام السياسي القاتم، فظهرت درر أدبية استطاعت أن تضئ سماء الأندلس الحالك، وكانت فرصة الشعر والشعراء لتحلية زمان الملوك المر وتنشيط نفوسهم المغلولة بالجرائر والجرائم، وتغطية نقائصهم، وستر عوراتهم المنكشفة للجميع وقد مر بنا نموذجان لهذا الدور الذي لعبه الشعر عندما هون من أمر دفع الجزية بل مدح دافعيها على فعلتهم القاتلة.

إن تنافس ملوك الطوائف على الشعر يحسب في ميزان حسناتهم التاريخية فلقد عد عصرهم«عصرا عظيما للشعر والشعراء»[2] إلى حد أن «أصبح أهل الأندلس كلهم شعراء حتى قال القزويني إن أي فلاح يحرث بأثوار في شلب يرتجل ما شئت من الأشعار فيما شئت من الموضوعات»[3]وقد وصف الشقندي عناية ملوك الطوائف وتنافسهم في ضم الشعراء واستمالتهم إليهم فقال:«فما كان أعظم مباهاتهم إلا قول:..الشاعر الفلاني مختص بالملك الفلاني وليس منهم إلا من بذل وسعه في المكارم ونبهت الأمداح من مآثره ما ليس بطول الدهربنائم»[4]

1- إبن قتيبة. عيون الأخبار. دار الكتاب العربي(د.ط) المجلد الأول.ج5. ص185.
2- إمليو غرسيه غومس. الشعر الأندلسي.ص45.
3- أنخل جنثالث بالنثيا. تاريخ الفكر الأندلسي. ترجمة د. حسين مؤنس. مكتبة الثقافة الدينية. القاهرة.ص78.
4- المقري، نفح الطيب. ج4.ص30.29.

وقد استغل الشعراء هذه العناية أيما استغلال، ورأوا أن ريحهم هبت فاغتنموها، مشجعين الملوك على التنافس على بضائعهم التي عملوا ما استطاعوا من أجل تجويدها واتقانها، فكانت نهضة الأدب عامة، والشعر خاصة في عصر الطوائف، ثمرة التنافس والتشجيع بين العارضين والطالبين، وإذا أردنا أن نضيف نموذجا يبين روح الاهتمام الطائفي بالشعراء فلن نجد أفضل من قصة أحد الشعراء الذين استغلوا رواج الشعر وتنافس الملوك على قصائده وأمداحه فلم يتورع عن تحديد ثمن القصيدة بمائة دينار رافعا بذلك سقف الابداع إلى المنتهى، واللافت للانتباه « أن المعتضد بن عباد على ما اشتهر من سطواته وإفراط هيبته كلفه أن يمدحه بقصيدة فأبى حتى يعطيه ما شرطه في قسمه»[1]، ونجد الشاعر ابن وهبون« وقد توقف مرتبه عند العامل »[2] يخاطب الملك بمنطق الممتن المهدد قائلا[3]:

يا صاحب المجد إن المجد سائمه تضل إن لم يكـــن بالشعر تقييــــــد

ولا يجد ابن وهبون غضاضة في أن يبين مكانته ويحددها بنفسه حتى لا يترك مجالا لمن يستهين بالشعراء وشعرهم فيقول لصاحبه[4]:

وما المدائح إلا بالملوك وهـــل يبدي سنا العقد إلا النحر والجيد

وهكذا تبارى الملوك على ترصيع نحورهم ونظم مآثرهم في عقود الشعراء.

ولئن بلغ التنافس بين جميع الطوائف أشده، فسمعنا عما«...كان بين الفتيان العامرية...و...عن الملوك العربية: بنو عباد وبنوا صمادح وبنوا لأفطس وبنوا ذي النون وبنوا هود»[5].ومهما « كان كل ملوك الأندلس المعروفين بملوك الطوائف قد تنازعوا في ملاءة الحضر»[6]. فإن ملوك دولة بنو عباد ظلوا أكثر هؤلاء حضورا وخلودا لما تميزوا به من رعاية للأدب ومشاركة في فنون العلوم، ومواقف تدل على كرم الأصل، وصفاء الأرومة.

1- المقري، نفح الطيب. ج4.ص.30.29.

2- إبن بسام، الدخيرة في محاسن أهل الجزيرة. القسم الثاني/ المجلد الأول.ص502.

3، 4 - إبن بسام، الدخيرة في محاسن أهل الجزيرة. القسم الثاني/ المجلد الأول.ص.503

5، 6 - المقري، نفح الطيب.ج4.ص30.

رعاية بني عباد للأدب

تأسست دولة بني عباد العربية في إشبيلية عند بداية الفتنة في قرطبة حيث كشفت أحداثها عن ضعف عاصمة الخلافة ومقرها وهو ما أوحى للنواحي والأطراف القوية بإمكانية الاستقلال والانفصال، فاستغل آل عباد ممثلين في القاضي إسماعيل هذه المرحلة ليؤسس دولته أي مملكة بني عباد التي دام حكمها مدة سبعين سنة من [414هـ/1023م] إلى[484هـ/1091م]. و« كان لاستقلال إشبيلية... نتائج مهمة جدا على سير النشاطين الاقتصادي والأدبي»[1]؛ فقد استطاع آل عباد أن يتميزوا عن سائر الملوك والممالك بالتأسيس لانفصال سياسي يهدف إلى إعادة بناء الخلافة المتصدعة بفعل استفحال داء العصبيات المختلفة، من بربرية، وصليبية، وعربية، فكان بنوا عباد يرون أنفسهم أولى بلواء الخلافة لأنهم «... من أهل البلاد الذين استقروا فيها من قديم والذين تأسبنوا أو انصهروا في البوتقة الإسبانية بمرور الزمن وصاروا أندلسيين »[2]، وبالتالي كانوا يرون أنهم جمعوا بين الأصل العربي العريق عراقة اللخميين، وبين النشأة في الأندلس منذ تأسيسها، إضافة إلى إدارتهم لمدينة إشبيليةالعريقة التي كانت العاصمة الأولى للمسلمين عند الفتح[3] ناهيك بتاريخها السياسي قبله إذ كانت « ... قاعدة ملك الروم وبها كان كرسيهم الأعظم »[4]. ولهذا حاولوا أن يجمعوا كل المظاهر المادية والمعنوية المسوغة لطموحهم فكانت عنايتهم بالأدب متميزة، فأول مؤسس للمملكة وهو القاضي أبو القاسم محمد بن عباد كان « ... ممن له في العلم والأدب باع، ولذوي المعارف عنده سوق وارتفاع، وكان يشارك الشعراء والبلغاء في صنعة الشعر وحوك البلاغة بسطاً لهم»[5]، أما ابنه الملقب بعباد المعتضد الذي حكم المملكة بعده فقد قرض الشعر وخلف ديوانا جمعه ابن أخيه[6]، ومن أكبر مظاهر عنايته بالأدب عامة وبالشعر خاصة أنه جعل للشعراء يوما خاصا بهم« ... لا يدخل فيه على الملك غيرهم »[7] وقد لفتت عناية بني عباد بالشعر

1- د. صلاح خالص.إشبيلية في القرن الخامس الهجري. دار الثقافة. بيروت1965. ص111.
2- د.مختار العبادي. في تاريخ المغرب والأندلس. ص
3- المقري. نفح الطيب.ج1.ص237.
4- ياقوت الحموي. معجم البلدان. تحقيق فريد عبد العزيز الجندي. دار الكتب العلمية. بيروت.ط1. 1990.ج1.حرف الألف.ص232.
5- إبن بسام، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة. القسم الثاني/المجلد الأول.ص13.
6- م ن. ص 29.
7- المقري. نفح الطيب.ج5.ص167.

والشعراء نظر الجميع فشهدوا لهم بالتميز والتفوق فالشقندي يقول إن " لهم من الحنو على الأدب ما لم يقم به بنو حمدان في حلب، وكانوا هم و وزراؤهم صدورا في بلاغتي النظم والنثر»[1] ففي هذه المملكة « ... قلما رأيت فيها ناثرا غير ماهر، ولا شاعرا غير قاهر، دعوا حر الكلام فلبى، وأرادوه فما تأبى »[2] كما يقول ابن بسام، ويؤكد إميليو غرسيه غومس أنه مهما كان ملوك الطوائف قد اهتموا بالشعر فإن ذلك « ... كان أمرا مشتركا بينهم جميعا يلقى منهم كل رعاية»[3]إلا أنه يخص بني عباد بالذكر فيقول « لكن عناية بني عباد أصحاب إشبيلية به كانت أعظم وأشمل»[4].

وتتفق الآراء التي بين يدي البحث على تفسير هذه العناية بأنها تنافس سياسي كما سبق الذكر - إلا أن الدكتور صلاح خالص يضيف عاملا آخر فيدرجها ضمن الحرص الأرستقراطي على استكمال كل «... صفات الرجل النموذجي لدى الأرستقراطيين»[5] ومن هذه الصفات أن يكون الفرد منهم قادرا « ... على كتابة رسالة وغير ذلك مما تتطلبه الحياة ...»[6]، والمؤكد أن بني عباد الذين ظلوا يفتخرون بنسبهم العربي اللخمي الصريح، كانوا يستثمرون كل الرموز المحركة للمخيال الجمعي الأندلسي، برعاية الشعر والشعراء.تلك الرعاية المعززة لهذا النسب، والمقوية لحضوره، فأرادوا أن يكون بريق الشعربمثابة الدرة العربية فوق تاج مملكتهم بالأندلس، ونجحوا في مسعاهم هذا أيما نجاح إذ استطاعوا أن يجعلوا بلاطهم مركز استقطاب شعري « حتى اجتمع في الجانب الغربي ... ما باهى الأقاليم العراقية، وأنسى بلغاء الدولة الديلمية»[7] ويكفي هذه المملكة شهادة أن المعتمد قد جمع « شعراء الأندلس أجمعين بل شعراء الغرب الإسلامي كله فإلى بلاطه لجأ شعراء إفريقية وصقلية، عندما غزا النورمان بلادهم واستولوا على بعضها، وهددوا الباقي»[8]، فانتظم في بلاط

1- المقري. نفح الطيب.ج4.ص 30.
2- ابن بسام. الذخيرة. ق2 / مج1. ص12.
3، 4 - إميليو غرسيه غومس. الشعر الأندلسي. ترجمة د. حسين مؤنس. ص45.
5- صلاح خالص. إشبيلية في القرن الخامس الهجري، ص136.
6- م ن. ص ن.
7- إبن بسام. الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة. ق2/مج1. ص12.
8- إميليو غرسيه غومس. الشعر الأندلسي. ص47.

بني عباد أبرز شعراء العصر وأدبائه مثل ابن زيدون، وابن عمار وابن اللبانة (أبو بكر الداني)، وعبد الجليل بن وهبون، وأحمد بن الأبار، وابن حمديس، وحسان بن المصيصي، وعلي بن حصن الاشبيلي، وابن القصيرة، والأعلم الشنتمري ، وآخرين غيرهم.

ومثلما نجح بنو عباد في استقطاب هذه القامات الأدبية، نجحوا في رهانهم على أن الشعر بوابة الخلود والمجد، ذلك أن حضورهم ظل قاهرا لعاديات الزمن التي استطاعت أن تسلط يد البلى على مملكتهم لكنها عجزت عن محو هذا الاسم ومنعه من تخطي حجب الزمان والمكان، فإذا كان التاريخ يدين كل ممالك العصر الطائفي إلا أن التاريخ الأدبي ينتشل آخر ملوكها من وهدة السقوط من الذاكرة، لأنه استطاع بسيرته أن يجمع بين حياة ملوك هذا العصر، وبين براءة الأديب الفنان، فكان المعتمد – وهو آخر أو ثالث ملوك دولة بني عباد- بمثابة الشاعر الحامي للمملكة من النسيان لأن خلوده هو خلود لها.

لقد سعت الممالك إلى الخلود بالشعر، فتمكنت من أن تدخل هذه البوابة بفضل الشعراء الذين تكرموا عليها بتفاحته الأسطورية مقابل المال وهو ما جعل العلاقة تلتبس بالتكسب والاستجداء وفي بعض الأحيان بالابتزاز مما عكر صفاء الود، وطعن في مصداقية المجد، غير أن مملكة بني عباد التي ضمت واستقطبت من ذكرنا لم تترك للالتباس أن يشوه صورتها، و لم تترك الراية لشعراء بلاطها وحدهم - على كثرتهم وشهرتهم – فقد أخذت على عاتقها عبء التخليد، إذ رأينا مؤسس الدولة شاعرا، ثم رأينا ابنه بعده كذلك لولا أن السياسة سرقته من عالم الإبداع، ليأتي آخر أعمدتها متوجا لمسارها، مخلدا لاسمها فاستطاع أن « يتخطى بأسلوب حياته حاجز التاريخ وفتح بمتعة مشاعره بوابة الخيال واخترق بكل ما أوتي من تفرد سواحل الأسطورة المعبقة بالبهيج الممتع والمبين المعجب»[1] حيث كان الشعر أسلوب حياته بل « إن حياته نفسها كانت شعرا حيا »[2]، فرغم غياب الأدب الملحمي في أدبنا العربي فإن ذلك «لم يحل دون تحول المعتمد إلى بطل أسطوري ... تخضع شخصيته وسيرة

1- د. عبد الله حمادي. المعتمد بن عباد. الشاعر والرمز. مجلة المعرفة. العدد397. أكتوبر1996. ص193.

2- آنخل جنثالث بالنثيا. تاريخ الفكر الأندلسي. ص89.

حياته للإضافات أو للتعديل أو إلى غير ذلك مما يدخل في هذا النمط الأدبي المعروف في الآداب العالمية وهو أدب الملاحم »[1].

ومن البداية أحب أن أوضح إن دراسة شخصية المعتمد نابعة من تفرده وغرائبيته التي مكنته من اختراق سواحل الأسطورة، والتحول إلى بطل أسطوري؛ « فهو لم يكن ... قط حاكما عظيما بحال، فقد تولى مقاليد شعب أفسد طبعه الترف، فلم يصرف شيئا من العناية إلى أمور رعيته، وترامى على ملذات نفسه »[2] لقد كان المعتمد رهينة قلب ظمآن لا يشبع على طول الشرب والعب من الشهوات والمباهج، ولهذا لم يكن يرى بأسا في إضاعة أموره ومهماته، وتعطيلها تلبية وإرواء لهذا القلب المتعطش، فمما يروى عنه أنه « أقام برهة بقرطبة يرفع بعض الأمور السلطانية، فسئم طلقه، وتذكر ـــ على عادته ـــ خلقه، ودعته دواعي نفسه، إلى قينته وكأسه، فاستشار يومئذ ابن عمار فوجده أهتك سترا، وأقل عن اللذات صبرا وأشار عليه بتعطيل الثغر وإضاعة الأمر... »[3]، والذي يبدو من حياة المعتمد أن هذا الحادث لا يعد شذوذا انتقيناه انتقاء بل هو نمط يتكرر ويلازم المعتمد أميرا وملكا، فقد وجدناه في آخر مراحل ملكه وعند ساعة خلعه حين « جهز ابن تاشفين القطائع الإشبيلية، جد في حصارها، والمعتمد مع ذلك منغمس في لذاته ... فلم يشعر... إلا والعسكر معه في البلد »[4]، إن المنطق المعتمدي لا يرى ضيرا في أن يحاصر ويطوق « وهو ساه بروض نسيم، لاه براح ومحيا وسيم، زاه بفتاة تنادمه، ناه عن هدم أنس، هو هادمه»[5]، ولم تكتمل الصورة الغرائبية التي طبعت شخصية المعتمد بالتفرد، إلا إذا نبهنا من يتعجل بالحكم على هذه الشخصية بالرداءة، أو الإهمال إلى أنها لم تكن تحسب هذا السهو، وهذا اللهو من خوارم الفروسية أو الشجاعة أو حتى السياسة الرشيدة، فالرجل صورة

1- د. حامد أبو أحمد. المعتمد بن عباد والبياتي في طبعات اسبانية. كتاب العربي. رقم 53 .[كلمات من طمي العزاة].15جويلية 2003. ص102.
2- آنخل جنثالث بالنثيا. تاريخ الفكرالأندلسي. ص107.
3- ابن الآبار. الحلة السيراء، تحقيق د. حسين مؤنس. الشركة العربية للطباعة والنشر. القاهرة.ط1. 1963. ج2. ص133.
4- المقري، نفح الطيب. الجزء5. ص170،171.
5- ابن خاقان. قلائد العقيان. تقديم محمد العنابي. المكتبة العتيقة. تونس. 1996. ص22.

للشخصية الأندلسية في هذا الجانب فهو بعد ما رأيناه عاكفا على ملذاته، وشهوات نفسه، والخطر يحيط به، إنما كان يؤدي حق القلب مستجيبا لخاصية الطبع، ثم « بعدها ركب فرسه، وحسامه في يده، وليس عليه إلا ثوب واحد فوافق العسكر قد دخل من باب الفرج، ووافى هنالك طبالا فضربه بسيفه فقسمه نصفين، ففر الناس أمامه، وترامو من السور ووقف حتى بان الباب »[1] وهكذا أدى حق البطولة والمجد و لم ير بعدها غضاضة أن يقول[2]:

إن يسلب القوم العــــدى ... مــلكي وتسلمني الجمــــوع

فالقلب بين ضلوعــــــه ... لم تسلم القلب الضلــــــوع

إن راحة ضمير المعتمد نابعة من كونه لم يشعر أنه تخلى عن المناقب الأصيلة فهو يقول عن نفسه إنني[3]:

لم أستلب شرف الطبـــا ... ع، أيسلب الشرف الرفيــــع

شيم الألى أنا منهـــــم ... والأصل تتبعه الفـــــــروع

فالمعتمد آخر ملوك بني عباد شخصية تنفلت من ضوابط العقل والمنطق، وإذا اقتضى الأمر أن نردها إلى منطق ما، فلن نجد أفضل من منطق العواطف، لأنه منطق « ... لا يتحرج من قبول التناقض، بل إنه يذهب إلى القول بأن التناقض هو قانون الحياة العاطفية »[4]، وسر ثراء وخلود المعتمد هو « أسلوب حياته »[5] – كما ذهب إلى ذلك د. عبد الله حمادي في تحليله لشخصيته، ذلك أن هذا الأسلوب جعله شخصية أسطورية تحدثنا عنها المصادر بأنها تزوجت من غسالة استطاعت أن تجيز بيتا من الشعر عجز عنه صديقه ورفيقه ابن عمار، لتصبح الغسالة سيدة القصر الأولى التي « ولدت له أولاده الملوك النجباء »[6] والتي صنعت جزءا من أساطيره وأسطوريته حين « ... اشتهت المشي في الطين »[7] فلم ير المعتمد أمرا أفضل من أن تفتت لها « أشياء من

1- المقري. نفح الطيب ج5. ص171.

2، 3 -المعتمد بن عباد.الديوان. جمع وتحقيق.د. رضا الحبيب السوسي. الدار التونسية للنشر.1975.ص150.

4- د. مصطفى سويف. الأسس النفسية للإبداع الفني، دار المعارف. القاهرة. الطبعة الرابعة. الصفحة "ك".

5- د.ع/الله حمادي. المعتمد بن عباد الشاعر والرمز. مجلة المعرفة. العدد397. ص193.

6- المقري. نفح الطيب ج5. ص138.

7- م ن. ج ن. ص.193.

الطيب، وذرت في ساحة القصر حتى عمته، ثم نصبت الغرابيل، وصب فيها ماء الورد على أخلاط الطيب، وعجنت بالأيدي حتى عادت كالطين، وخاضتها مع جواريها »[1]. إن من يتأمل قصة هذا الزواج السريع من أمير مع غسالة سيبادر إلى الحكم- بلغة المنطق- عليه بأنه نزوة عابرة، لكنه سيتراجع عن حكمه بمجرد ما يرى الغسالة تمشي في الطيب بدل الطين.

وقد يقرأ البعض قصة « يوم الطين»-كما سماها هو نفسه[2]- فيرى فيها سفه ملوك عصر الطوائف وإسرافهم، كيف لا وهي من أقوى الدلائل على الترف والتبذير والفساد غير أننا نقول إن من يشاء المزيد من نماذج هذه القصة فإنه لن يتعب في الحصول على العديد من أمثالها، بل إنه سينظم إلى صف يوسف بن تاشفين الذي قال في هذا الشأن:« ...إن هذه الأموال الكثيرة التي تصرف في هذه الأحوال لابد أن يكون لها أرباب لايمكن أخذ هذا القدر منهم على وجه العدل أبدا، فأخذه بالظلم وإخراجه في هذه الترهات من أفحش الإستهتار، ومن كانت همته في هذا الحد من التصرف فيما لايعدو الأجوفين متى يستجد همة في ضبط بلاده وحفظها؟...»[3] إلا أننا ندعو من يقف هذا الموقف إلى الإنصاف حينما يجد نقيض هذه النماذج حيث يلقى المعتمد متجردا من نعمائه، مضحيا بترفه وبذخه وهو يردد أمام من حذروه من انقلاب يوسف بن تاشفين عليه -حينما استدعاه واستنجد به لمواجهة النصارى- قائلا:« رعي الجمال خير من رعي الخنازير»[4] فآثر الأسر والسجن على الترف والذل للنصارى، وسيقف الباحث عن نماذج التبذير-في أثناء بحثه- على المعتمد وهو أحرص ما يكون على استئصال شأفة النصارى الإسترداديين في معركة الزلاقة حتى « عقرت تحته ثلاثة أفراس كلما هلك واحد قدم له آخر، وهو يقاسي حياض الموت، ويضرب يمينا وشمالا»[5] داعيا إبن تاشفين إلى استنزافهم قبل أن يسترجعوا أنفاسهم، ولولا خوف ابن تاشفين من« أن يهلك العدوالذي من أجله استدعاه

1، 2 – م ن. ص 194.193.

3- المقري. نفح الطيب. ج5. ص279.

4- محمد بن عبد الله الحميري. صفة جزيرة الأندلس. منتخبة من كتاب الروض المعطار.تصحيح.ليفي بروفنسال.د.ط.ص85.وانظر. المقري. نفح الطيب ج5. ص266.

5- المقري. نفح الطيب.ج5. ص272.

فيقع الإستغناء عنه»[1] لكان أثر الزلاقة أكبر، ومصير الأندلس أحسن، وهكذا يجد الباحث المتبصر أن شخصية المعتمد أكبر من الإختزال سلبا أو إيجابا لأنها جمعت المتباعدات، وتعايشت في مساحة حياتها المتناقضات، وضمت في جوانبها من عناصر الثراء والخصب ما يغري بالدراسة والتنقيب عن سرها وسر خلودها أو وهجها الدائم الذي ترك بعضا من نقاط الضوء في ليل عصر هو أشبه ما يكون بعصرنا.

فالمعتمد حينما ندرس شخصيته إنما ندرسه بكل هذا الثراء والتناقض وبكل ما لهذا العصر من أثر وتأثير متبادلين بينهما، فهو أحد صانعي نهايته، وقبل ذلك فقد ولد فيه مع تداعيات بدايته، وترعرع في ظل دولة تحسب من أقوى دوله. وعليه فمن هو المعتمد؟، وكيف كانت نشأته تلك وترعرعه ذاك؟ وماهي العوامل والظروف المؤثرة التي أخرجت هذه الشخصية المنفلتة من أسر واقع العصر، ومن أسرالماضي إلى عتبات الأسطورة والملحمية؟

1- الحميري: صفة جزيرة الأندلس. ص92.

المعتمد بن عباد حياته ومساره التاريخي

المعتمد بن عباد هو« محمد بن عباد بن محمد بن اسماعيل بن قريش بن عباد بن عمرو بن أسلم بن عمرو بن عطاف بن نعيم »[1] ، له عدة ألقاب أولها« ...الظافر، ثم تلقب بالمعتمد كلفا بجاريته اعتماد لما ملكها، لتتفق حروف لقبه بحروف اسمها لشدة ولوعه بها »[2].

ولد في « سنة إحدى وثلاثين وأربعمائة »[3] « في ربيع الأول... بمدينة باجة من بلاد الأندلس»[4] وقيل أنه ولد « في العشر الآخر من شهر ربيع الأول سنة اثنين وثلاثين »[5] وهذان التاريخان يوافقان على التوالي أوائل ديسمبر من عام ألف وتسع وثلاثين ميلادية(1039م) أو أواخر نوفمبر من عام ألف وأربعين ميلادية(1040م)[6]، فهو من برج القوس،والقوس من الأبراج النارية[7] المتميزة بطبائع « ... التفاؤل، الدفء، الطباع الحادة ، الحماسة، والروح المرتفعة المثالية لهذه الأبراج »[8] .

1- ابن دحية. المطرب من أشعار أهل المغرب. تحقيق ابراهيم الأبياري ود. حامد ع/المجيد ود. أحمد أحمد بدوي. دار العلم للجميع. بيروت.1955. ص14.

2- ابن الخطيب. الإحاطة في أخبار غرناطة. تحقيق محمد ع/الله عنان. المجلد الثاني. مكتبة الخانجي. القاهرة.1974. ص109.

3- ابن دحية. المطرب من أشعار أهل المغرب. ص14.

4- ابن العماد الحنبلي. شذرات الذهب في أخبار من ذهب. الجزء الثالث. دار إحياء التراث العربي. بيروت. ص390.

5- ابن الأبار. الحلة السيراء. تحقيق.د. حسين مؤنس. الجزء الثاني. الشركة العربية للطباعة والنشر.ط1. 1963.ص52.

6- أنطوان بشارة قيقانو. جدول السنين الهجرية ومايوافقها من السنين الميلادية. دار المشرق. بيروت. الطبعة الثالثة. 1997. ص14.

7، 8- هزار الزيات. يوميات الأبراج. دار الراتب الجامعية.بيروت. 1999. ص157.

وتعد أسرة بني عباد من أهل الجماعة بالأندلس[1] ، تنحدر من نسب عربي أصيل، فقد دخلت الأندلس قادمة من الشام ضمن « طالعة بلج بن بشر القشيري »[2] وكان الجد عطاف « هو الداخل منهم »[3] مع « أهل حمص من عرب الشام »[4] وهو « لخمي النسب صريحا »[5] إذ يصل هذا النسب ويطرد « إلى قنص بن معد من ابنه عجم »[6] وقد « كان نزول... عطاف بقرية يومين »[7] وهي قرية « من إقليم طشانة على ضفة النهر الأعظم من أرض إشبيلية »[8] واستقر بها حيث « تناسل ولده بها، مدة ن الزمان، ثم انتقل بعضهم منها إلى مدينة حمص وهي إشبيلية... وتصدوا لخدمة الملوك من بني أمية فصرفوهم في الأمور العلية، فكثرت فيهم الوجاهة »[9].

فقد تقلد « اسماعيل بن قريش- وهو القاضي المشهور بالفضل و الدهاء..... الشرطة الوسطى لهشام إبن الحكم وخطة الإمامة إلى صلاة الجمعة »[10] ويذكر إبن عذاري أن إسماعيل قد ولاه إبن أبي عامر« .... خطةالقضاء بإشبيلية فدام له ذلك إلى..... نزول الفتنة..... فأقام على خطة القضاء و الأمانة»[11]، و قد عرف إسماعيل بثرائه وسعة يده فكان« أيسر مكور بالأندلس وقته، ينفق من ماله و غلاته..... و كان واسع اليد و المشاركة »[12] إضافة إلى ثرائه فقد تميز بحس سياسي راق و قدرات فائقة إذ عرف « ...... بوفور العقل و سبوغ العلم و الركانة، مع الدهاء و بعد النظر و إصابة القرطسة»[13] ، و ظل نجم أسرة بني عباد في صعود، يورث السابق منهم اللاحق المجد والمآثر حتى كتب « ذو الوزارتين أبو القاسم » [14] العائلة العبادية في سجل الملوك بانفراده بملك إشبيلية، حيث كان قاضيا بها يدين بالولاء للقاسم بن حمود الذي تولى الخلافة

1- د. أحمد مختار العبادي. في تارخ المغرب والأندلس. ص255.

2 ، 3 - ابن بسام. الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة. القسم الثاني/المجلد الأول. ص14.

4، 5 - ابن عذاري المراكشي. البيان المغرب.الجزء الثالث، تحقيق.إ. ليفي بروفنسال. دار الثقافة.بيروت. ص.195

6- ابن دحية. المطرب. ص14.

7- ابن عذاري المراكشي. البيان المغرب. ج3. ص.195

8- ابن الخطيب. الإحاطة في أخبار غرناطة. مج 2. ص.108

9- ابن عذاري. البيان المغرب. ج3. ص.195

10- ابن الخطيب. الإحاطة. مج2. ص108.

11- ابن عذاري. البيان المغرب. ج3. ص.194

12 ، 13 ، 14- ابن بسام. الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة. ق2/مج1. ص15.

بقرطبة، فانقلب أبو القاسم عليه بمجرد ما سنحت له الفرصة ورأى عرشه يتهاوى في قرطبة التي طرد منها بعدما « قتل من قتل من أصحابه فيها»[1] فلما لجأإلى إشبيلية منعه ابن عباد من دخولها بعد « الاتفاق مع شيوخ البلد والقاضي ابن عباد على إغلاق أبواب البلد »[2] دونه، ليخلو له وجه إشبيلية وملكها إذ « تدرج في تدبير ذلك أولا أولا، ومارسه شأنا شأنا، إلى أن استولى على أمده ومهد قواعد سلطانه وشد أواخيه »[3] « ثم أفضى الأمر إلى عباد ابنه سنة ثلاث وثلاثين »[4] وعباد هذا هو المعتضد، والد شاعرنا الملك المعتمد، وعليه نخلص إلى القول بأن المعتمد نشأ في ظل أبيه الملك، وفي ظل مملكة بني عباد الاشبيلية الفتية، وهذا ما هيأ له كل عوامل التنشئة والتكوين والإعداد والتأهيل ليكون أحد أركانها الذين تقوم عليهم أحسن قيام، والمصادر التاريخية لا تسعفنا بتفاصيل تمكننا من رسم صورة واضحة لمرحلة الصبى والطفولة، وهي من الأهمية بمكان لأننا من خلالها نتعرف على يد من تربى المعتمد وتكوّن، ومع من نشأ ودرج، إلا أن عدم وجود معلومات لا يعني تعذر تشكيل مقاربة حول هذه المرحلة ، ذلك أن النظر إلى شخصية المعتضد والده، وماذا كان يريد لأبنائه أن يكونوا؟، وماذا كان بإمكانه أن يوفر لهم؟، ومن هم الذين كانوا في بلاطه يشرفون على هذا الشأن ؟ - كل هذا – كفيل بإعانتنا على تركيب صورة تقرب لنا هذه المرحلة الهامة – والضرورية لمعرفة شخصية المعتمد.

كان المعتضد ابن عباد ذا طموح واسع، سخر كل همه لدولته فكان « أكثر شغله فيها شب الحروب وكياد الملوك، وإهراج البلاد، وإحراز التلاد»[5] « ... ولم يزل ذلك دأبه منذ ابتدائه إلى إنتهائه »[6] كانت هذه وتيرة مساره السياسي بلا انقطاع حتى مات وهو« أطمع ما كان في الاحتواء على الجزيرة محتفزا لها تشميره الذيل بفتنة لا كفاء لها »[7] منطلقا من قناعة، وهدف محدد ينشده. كشفه بنفسه

---

1 ، 2 - ابن عذاري البيان المغرب. ج3. ص .196

3- ابن بسام. الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة. ق2/مج1. ص16. ولمزيد من التفصيل. أنظر.د. صلاح خالص.اشبيلية في القرن الخامس الهجري. ص111. ومابعدها.

4- ابن بسام. الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة. ق2/مج1. ص 23.

5- ابن بسام. الذخيرة. ق2/مج1. ص26.

6- م ن. ص27.

7- م ن. ص25.

فقال[1]:

ولابد يوما أن أسود على الورى ولو رد عمرو للزمان وعامر

فما المجد إلا في ضلوعي كـــامن ولا الجود إلا من يميني ثائـــر

فجيش العلا ما بين جنبي جائل وبحرى الندى بين كفي زاخر

إن رجلا بمثل هذا الطموح والتصميم لا نشك أنه كان أحرص ما يكون على تهيئة عدة هذا الطموح وأدواته وأركانه، في مقدمة هذه العدة والأركان نجد الأبناء الذين يحرص الملوك على الاستكثار منهم والعناية بتربيتهم وتأهيلهم لتحمل أعباء الملك.

والمعتضد كان يدرك أن عصره، المضطرب القلق، عصر تفجرت فيه نفوس الجميع طموحا للاستيلاء والسيطرة على الإمارات والولايات بكل الوسائل النظيفة والدنيئة، فكثرت الخيانات، وانتشر الوصوليون، وأبيدت الأخلاق وزالت المعايير العامة المتعارف عليها من ولاء وإخلاص ونصح فلابديل له عن الأبناء مما حتم عليه أن تكون عنايته بأبنائه دقيقة وكبيرة تلائم وتواكب طموحه السابق.

وقد بين المعتضد إدراكه لهذا الأمر، وعنايته بأبنائه، فكان يتمنى لو أن كل واحد منهم « قفز من المهدإلى سرير الجد، ودرج من الأدرع إلى المحل الأرفع »[2] كما اعترف هو بنفسه كاشفا بذلك طريقة إعداده لولي العهد الأول - اسماعيل- الذي قتله بيده. وهذه الطريقة التي نرى أن المعتمد قد خضع لها. ويمكننا بالاستقراء أن نستبين معالم هذه الطريقة ونلخصها في معلمين متزاوجين هما التكوين العلمي والثقافي حيث تلقى علوم العصر وأهمها الأدب والفقه والتفسير والتاريخ والحديث، والنحو والفلسفة والفلك وربما الموسيقى، ... والمعلم الثاني يخص التكوين العسكري السياسي وفنونه.

والمصادر لاتسعفنا بتفاصيل شافية عن هذه المرحلة التكوينية، وقد يعود ذلك - في نظري - لمعرفة معاصريه

1- ابن الأبار: الحلة السيراء.ج2. ص38.

2- ابن عذاري: البيان المغرب. ج3. ص246.

وإحاطتهم بطبيعة تكوين وتعليم أبناء الطبقة الأرستوقراطية حيث يتميز التكوين العلمي بمستواه الرفيع داخل البلاط الذي رأينا أنه كان مركز استقطاب أدبي بفضل المنافسة بين ملوك الطوائف واجتهادهم في استثمار الزعامة الأدبية وما تمثله من ثراء رمزي في الذهنية الأندلسية فالتمكن في الأدب واللغة عنوان الشخصية، ولا شك أن المعتمد لم يشذ عن قاعدة أبناء هذه الطبقة الذين « يرتعون منذ الطفولة في وسط ملائم يستطيعون فيه تعلم هذه اللغة في شكلها الأكثر نقاء، وتتهيأ لهم الفرص لاستيعاب تاريخ الأدب العربي والاطلاع على مراحل تطوره المختلفة »[1] وعليه لا نتردد في الجزم بأن المعتمد قد تلقى تعليمه و تكوينه على يدي أكبر علماء وأدباء وشيوخ العصر الذين انجذبوا للبلاط العبادي، وربما يكون الأستاذ " علي الجارم بك" قد عول على هذه الرؤية في كتابه عن المعتمد الموسوم بـــ « شاعر ملك - قصة المعتمد بن عباد الأندلسي- » حيث انتقى أعلام كل كل علم وفن وراح يرصفها لتكون بمثابة نياشين علمية فوق صدر المعتمد، فذكر أن المعتضد « أحضر له ... في القصر خير الأساتذة بالأندلس لتثقيفه وتلقينه، فكان يعيش بن دينار يدرس معه فقه الإمام مالك وبقي بن مخلد تفسير القرآن، ومحمد بن أيمن الحديث، واسماعيل بن القاسم الأدب والتاريخ والنحو وأبو القاسم الصفار التنجيم، ووكل إلى رئيس قواده تعليمه الفروسية وعلوم الحرب ... وقد استمرت دراسته ستة سنين خرج بعدها كامل التثقيف وافر العدة والرياسة »[2]، و لئن كنا لانشك في أن المعتمد تلقى تعليمه على يدي مثل هذه الأوزان العلمية والأدبية ... الثقيلة فإننا نشك في أن تكون هذه الأسماء قد عاصرت المعتمد أصلا.

فقد تبين لي أن معظمها عاش قبل عصر الطوائف بقرن أو أكثر فمحمد بن أيمن ذكره المقري ضمن العلماء الذين رحلوا من الأندلس إلى المشرق « سنة 274 ... وتوفي في ذي القعدة سنة 330 بقرطبة »[3] ، أما الأستاذ اسماعيل بن القاسم أستاذ الأدب و التاريخ فهو أبو علي القالي - صاحب الأمالي - و المعروف أنه

1- د.صلاح خالص. اشبيلية في القرن الخامس الهجري. دار الثقافة. بيروت. 1965. ص136.

2- علي الجارم. شاعر ملك. مطبعة المعارف ومكتبتها. مصر. ص.38. 39.

3- المقري. نفح الطيب. ج2. ص366. 367.

دخل الأندلس في عهد الخليفة الناصر وتوفي بقرطبة « في شهر ربيع الآخر- وقيل جمادى الأولى سنة 356 ه ليلة السبت لست خلون من الشهر المذكور ... ومولده ... سنة 288 وقيل سنة 280 »[1] ،أما الأستاذ بقي بن مخلد وعلى الرغم من أنه « قد عرف ببقي بن مخلد غير واحد من العلماء »[2] فإنني أرجح أن يكون الجارم قد قصد المفسرالمشهور بهذا الاسم في الأندلس والذي قال ابن حزم عن تفسيره بأنه « الكتاب الذي أقطع قطعا لا أستثني فيه أنه لم يؤلف في الإسلام تفسير مثله ولا تفسير محمد بن جرير الطبري ولا غيره »[3] وهو ممن رحلوا الى المشرق « وكانت له خاصة مع الامام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى »[4] والامام أحمد عاش مابين (164-241 ه/780- 855)[5] أما أستاذ التنجيم أبي القاسم الصفار فقد وجدنا كنيته الصحيحة بأبي القاسم بن الصفار[6] وهو « أحمد بن الصفار أبوالقاسم أحمد بن عبدالله بن عمر (1034/980) »[7] وأكبر الظن انه هو المعني بكلام الأستاذ علي الجارم، لأنه جعله معلم التنجيم.

أما الحوفي فهو « علي بن ابراهيم بن سعيد أبو الحسن الحوفي ثم المصري النحوي الأوحد ... مات سنة ثلاثين وأربعمائة »[8] ، و لم يبق سوى يعيش بن دينار ونرجح أن يكون الجارم قد قصد عيسى بن دينار القرطبي الذي عاش في عهد عبد الرحمان بن معاوية [9] المعروف بعبد الرحمان الداخل والمعروف أنه دخل الأندلس سنة 138ه ومما يدفعني إلى هذا الترجيح هو أن عيسى بن دينار من فقهاء المذهب المالكي ورأينا علي الجارم يجعله أستاذ المعتمد في الفقه المالكي .

والحقيقة أنه مهما يكن من تشابه الأسماء فإن اتفاق وتطابق هذه المعطيات يسمح لي أن أحكم بأن الأستاذ

1- المقري. نفح الطيب.ج 3. ص 342.
2- م ن. ج2. ص215.
3- م ن. ج4. ص15. 16.
4- م ن. ج2. ص
5- المنجد في اللغة والأعلام. قسم الأعلام. مادة. (أ). دار المشرق. ط31. 1991. ص6.
6- المقري. نفح الطيب. ج4 . ص178.
7- آنخل جنثالث بالنثيا. تاريخ الفكر الأندلسي. ص450.
8- السيوطي. طبقات المفسرين. دار الكتب العلمية. بيروت. ص70. 71.
9- أبو بكر بن القوطية. تاريخ افتتاح الأندلس. تحقيق وتعليق. اسماعيل العربي. المؤسسة الوطنية للكتاب. الجزائر. 1989. ص41.

علي الجارم لم يوفق في اختيار هذه الأسماء ، وقد يعود ذلك لطبيعة وهدف تأليف قصته لعامة القراء ضمن « سلسلة اقرأ » حيث تضعف نسبة التحري والتوثيق ويقوى جانب المعلومات التاريخية الحاشدة ، والمصورة للأجواء التاريخية التي تكون موضوع الكتاب.

ومهما جانب التوفيق الأستاذ علي الجارم في اختيار هذه الأسماء ، إلا أنه يمكن أن نستأنس - كما يقول الفقهاء - برؤيته حيث لا نشك أن المعتمد قد تلقى تعليمه وتكوينه على يدي أبرز علماء وشيوخ، وأدباء البلاط العبادي الدين نحسب أنهم ما بخلوا على نجل ولي نعمتهم المعتضد ، بل نحسبهم رأوا الشرف في التنافس على رعاية و تربية وتعليم فلذة كبد الملك .

وعند النظر إلى من كانوا في بلاط المعتضد الذي كان « مدرسة تخرج فيها أهل الآداب »[1] نستطيع أن نشكل نظرة تساعدنا على الاقتراب أو تقريب هذه المرحلة إلينا ، حيث نجد مجموعة من الأعلام والأدباء نذكر منهم من نزعم أنهم من ضمن أساتذة المعتمد ولو بالعشرة والاحتكاك .

أ- الأعلم الشنتمري (1019-1084)[2] : وهو صاحب الحماسة الاعلمية وقد عاش في إشبيلية وتقول المصادر إن علاقتة بالمعتضد كانت قوية تقوم على الاحترام والتقدير والطاعة، فقد استجاب لأمر المعتضد بتأليف كتابه « تحصيل عين الذهب من معدن جوهر الأدب في علم مجازات العرب » ، الذي شرح فيه شواهد كتاب سيبويه فقال : « هذا كتاب أمر بتأليفه وتلخيصه ، وتهذيبه و تخليصه المعتضد بالله ... عناية منه بالأدب وميلا، وتهمما بعلم لسان العرب وحرصا عليه »[3] ولاتقتصر هذه العلاقة على المعتضد وحده، فقد أهدى شرح ديوان امرئ القيس إلى اسماعيل بن المعتضد في مقدمة تأليفه[4] ولعل مكانة الأعلم في بلاط العباديين تبدو جلية من قول ابن ابسام إنه كان في إشبيلية « زعيم البلد وأستاذ ولد المعتمد »[5] ، و لم لا يكون

1- آنخل جنثالث بالنثيا: تاريخ الفكر الأندلسي. ص15.
2- المنجد في اللغة والأعلام. قسم الأعلام. مادة (أ). دار المشرق. ط31. 1991. ص53.
3- د. مصطفى عليان عبد الرحيم. تيارات النقد الأدبي في الأندلس. مؤسسة الرسالة ط2. 1986. ص111.
4- الأعلم الشنتمري. ديوان أمرىء القيس بن حجر الكندي. تصحيح. ابن أبي شنب. الشركة الوطنية للنشر والتوزيع. الجزائر. 1974. ص58.
5- ابن بسام. الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة. ق2/مج1. ص474.

المعتمد قد تعلم على يديه وقد وجدناه يلجأ إليه كلما أشكل عليه أمر مثلما أشكل عليه في قضية « المسهب » حيث التبست عليه حركة عينها هل هي الفتحة فنقول المسهَب ؟ أم الكسرة فنقول المسهِب ؟ فبعث إليه برسالة يسترشده إلى مظانها ورأيه فيها[1] ولا شك أن تدقيقات المعتمـــد النقدية و تعليقاته التي نجـــدها بين الفينة والأخـــرى، إنما هي إرث وأثر هـــذا العَلم الذي كان أحد أركان سياسة آل عباد الرامية إلى تنمية الاهتمام بالآداب وبالأصول العربية واستثمار رمزيتها العالية في زمن انقلبت فيه التراتبيات والوجاهات التي داسها « المنتزون» على إرث الخلافة .

ب- أبو حفص عمر بن الحسن الهوزني[2] : وقد كان حينما تقلد المعتضد أمور مملكة اشبيلية « ناجذها الذي عنه تبسم، وواحدها الذي بيده ينقض ويبرم»[3]، وكانت العلاقة بينهما أوثق ما تكون حيث «كان بينه وبين عباد قبل إفضاء الأمر إليه ومدار الرياسة عليه ائتلاف الفرقدين وتضافر اليدين واتصال الأذن بالعين»[4] وأبو حفص هو العالم الذي « كان صاحب صلاة الجماعة بقرطبة على عهد عبد الرحمان بن معاوية وهشام الرضي ابنه»[5] وبلغت شهرته الشرق حتى « تهادى عجائب الشام والعراق»[6] وكان له حس سياسي عالٍ، ووعي ديني صادق. ومهما كانت نهايته على يد المعتضد فإننا لا نستبعد أن يكون قد أشرف على تربية وتعليم المعتمد في سنواته الأولى التي تعد السنوات الصانعة والمؤثرة في ما يأتي من مراحل عمر الإنسان.

جـــ - أبو الوليد أحمد بن عبد العزيز المعلم: وهو من وزراء المعتضد الذين وصفه ابن بسام بـــ« بديع الزمان»[7] وبـــ « الكتاب الأعيان»[8] وقد كان حيًّا حتى وفاة المعتضد، ومدح المعتمد بعدها وله قصيدة في مدحه إثر فتح قرطبة وقتل ابن عكاشة على يديه.[9]

1- المقري. نفح الطيب. ج5. ص24.
2- ابن بسام. الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة. ق2/مج1. ص 81.
3- 4 - م ن. ص82.
5- 6- م ن. ص ن.
7- 8- ابن بسام. الذخيرة.ق2/مج1. ص.112
9- م ن. ص123.

د – أبو بكر محمد بن سليمان المعروف بابن القصيرة (508 هـ): وقد كان « بحر علم لا يترح ...ويسِّرللعلم فتعلمه وعلمه ...»[1] ولئن كان متهيبا من المعتضد فإنه كان مع المعتمد « من بعض من يداخله ويصافيه»[2] فهما وان كانا متقاربين في السن - على مايبدو ومن تاريخ وفاة ابن القصيرة - فلا يمنع أن يكون احتكاكهما وتصافيهما ضربًا من التعلم والتعليم ، وحينما تقلد المعتمد فيما بعد أمر المملكة صار من سفرائه وكتابه[3].

هـ - أبو الوليد بن زيدون: وهو من وجوه قرطبة، التحق ببلاط المعتضد سنة « إحدى و أربعين وأربعمائة»[4] ورغم التحاقه المتأخر بالمعتضد فقد « صار من خواصه وصحابته يجالسه في خلواته »[5]، ويحدثنا الفتح: أن المعتمد كان يجله ويحترمه، وقد شعر بالحرج الكبير حينما رأى مجلس ابن زيدون « منحطا عن مجلسه في القعود لإنفاذ أوامر أبيه المعتضد»[6] فما وجد وسيلة لرد الاعتبار المعنوي له سوى بيتين من الشعر[7]:

أيها المنحط عنـــي مجلسا   وله في النفس أعلى مجلـــس

بفؤادي لك حبٌ يقتضي   أن ترى تحمل فوق الأرؤس

ورغم جود المعتمد وكرمه فإنه يرى أن حق ابن زيدون أكبر من أن يوفى.

مثلما قال له معتذرا[8]:

وقـــد منحتـــك نـــزرا   لا حقك الـــمفروضـــــا

وسوف أرفع جهـــــدي   من قدرك المخفوضــــــا

1- ابن بسام. الذخيرة.ق2/مج1. ص123.

2- م ن. ص239.

3- 4- م ن. ص 240.

6.5 - م ن. ق1/مج1. ص339.

7- المعتمد. الديوان. ص120.

8- م ن. ص121

إنه مهما إجتهدنا في هذه المقاربة، فإننا لن نضيف شيئا سوى التأكيد على أن المعتمد قد تخرج من البلاط الذي كان قبلة الأدباء والعلماء الذين لا نشك في قدرتهم على جعله مدرسة وجد فيها شاعرنا « كثيرا من عناصر الغذاء الأدبي الذي يحتاجه ويوجهه في اتجاه خاص»[1]وقد كان اتجاه المعتمد وملمح تخرجه أدبيا خالصا صرفا لأنه « كان مقتصرا من العلوم على علم الأدب وما يتعلق به وينضم إليه»[2].

أما التكوين العسكري والسياسي، فهو الآخر لم يخرج عن إطار الرعايةالعالية، والإعداد الموجه للمهام الملوكية الجليلة، فالمصادر إذا كانت لاتشير إلى كيفيته لكنها تجمع كلها على فروسيته، وشجاعته، فقد« قالوا كلهم؛ كان المعتمد -رحمه الله- فارسا شجاعا بطلا مقداما»[3]؛ فهو« ملك قمع العدى وجمع البأس والندى »[4]، وهو شوكة ورأس حربة جيش المملكة فأبوه « ماانفك يدير عليه الرحى، ويفزع إليه كلما قرعت عصا عصا، حتى صار أسوة لنجوم ليلها، وحلسا لمتون خيلها:

لا يشرب الماء إلا من قليب دم   ولا يبيت له جار على وجل»[5]

والمعتمد « كان بطلا شجاعا »[6] « وأحد أفراد الدهر شجاعة»[7]، ويبدو أن شجاعته وفروسيته هي التي جذبت كل عشاق البطولة فاجتمع في حضرته« كل كمي،...وكل ذي أنف حمي... ومشاهير الحماة ... [و] كل بطل نجد »[8] ، وعليه فالتكوين العسكري والسياسي كان عاليا وساميا بدليل هذه الشهادات الجامعة والمجمعة على نوعيته.

1- د. صلاح خالص. اشبيلية في القرن الخامس الهجري. ص135.
2- المراكشي. المعجب. ص149.
3- ابن الخطيب. الإحاطة في أخبار غرناطة. الجزء الثاني. ص109.
4- الفتح بن خاقان. قلائد العقيان. ص04.
5- ابن بسام. الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة. ق2/مج1. ص41.
6- الحافظ الذهبي. العبر في خبر من غبر. تحقيق محمد السعيد بن بسيوني زغلول. دار الكتب العلمية. بيروت. ط1، 1985. ج2. ص358.
7- خير الدين الزركلي. الأعلام. دار العلم للملايين.ط11. مايو1995. ج6. 181.
8- الفتح بن خاقان. قلائد العقيان. ص04 و05.

ويبدو أن هذا التكوين العسكري الجيد هو الذي جعل المؤرخين لا يتحفظون أو يشككون في خبر قيادة المعتمد لجيش أبيه، وإشرافه على فتح شلب - وهي من أهم إمارات الغرب بعد إشبيلية- سنة 444 ه، وهو إبن الثالثة عشر عاما، مما يجعل التساؤل في محله إن قلنا:هل كانت فروسية ونوعية تكوين المعتمد مسوغا لقبول هذا الخبر بلا تحفظ؟ وعموما إن تولي المعتمد لهذه المهمة في هذه السن يؤكد على أنه تلقى تكوينه العلمي الأدبي والعسكري في العشر سنوات الأولى من عمره، ذلك أنه قبل أن يتقلد قيادة الجيش في فتح شلب، كان قد تولى زمام إدارة إمارة صغيرة تدعى ولبه سنة 443 ه[1]، بعدما تسلمها أبوه بلا قتال و« لا كبير مؤنة »[2] من بني البكري، ومهما يكن فالمعتمد قد تولى مهاما سياسية تنفيذية وهو صغير وعليه فالإنطلاقة السياسية الفعلية جاءت إثر فتحه- كما مر بنا- شلب حيث تولى زمام أمرها وتسييرها بعدما أسندت إليه « من قبل أبيه »[3]. ويمكننا الجزم بأن المعتمد يومها كان صغيرا؛ فعبارات الفتح بن خاقان تحدثنا عن حنين المعتمد لشلب بعدما تولى الملك وأرسل صديقه ابن عمار لتفقد[4] أعمالها، وهي تدل دلالة واضحة على ما ذهبنا إليه حيث يقول:« ... لما خرج ابن عمارإلى شلب ثار للمعتمد هيامه القديم وكلفه، وتجدد له معلقه بها ومألفه، فإنه عمّرها في ظل صباه وفرع بها هضاب السرور ورباه، وبرد عمره قشيب وشبابه غض لم يرعه شيب ... »[5].

وفي أثناء تسيير المعتمد لهذه الولاية وفي هذه السن المبكرة ظهرت عليه ملامح الأمير الشاعر المحب للهو المنغمس في القصف، وفيها تمتنت علاقته بابن عمار حتى صار« لايستغني عنه ساعة من ليل ولانهار»[6] « وسلم إليه جميع أموره»[7]إذ « غلب عليه غلبة شديدة »[8] و لم تكن عين المعتضد غافلة عما يقترفه ابنه الشاب وصديقه ابن عمار فلما«ساءت السمعة عنهما...فاقتضى نظر المعتضد التفريق بينهما ونفى ابن عمار »[9] .وتعد هذه

1- آنخل جنثالث بالنثيا. تاريخ الفكر الأندلسي. ص89.

2- ابن عذاري. البيان المغرب.ج3. ص.240

3- المراكشي. المعجب. ص174.

4- يوحي سياق الكلام في القلائد بأن الزيارة تفقُدية " خرج ... مفتقدا لأعمالهامسددا لأغراض عمالها" بينما صاحب المعجب يذهب إلى تولية المعتمد لابن عمار تلبية منه لرغبة صديقه. سأله ابن عمار ولاية شلب ... فأجابه المعتمد إلى ذلك وولاه إياها" المعجب ص176. ورجعت رواية الفتح لأنها جاءت على لسان كاتب المعتمد أبو بكر ابن القصيرة. أنظر القلائد ص05.

5- الفتح بن خاقان. قلائد العقيان. تصحيح سليمان الحرايري.(د.ط). ص05.

6، 7، 8، 9- المراكشي. المعجب. ص174.

المرحلة من أكبر المنعطفات في حياة شاعرنا ففيها وقع « المعتمد حتى ناصية شعره في شراك الشعر- السحر- ليتحول إلى فريسة تكون سنتها في الحياة هي انتهاج رأي القلب وليس رأي العقل »[1] وقد ظلت ذكرياتها الغامرة تلهب شاعريته،وظل قصر الشراجيب بشلب -يجدد حنينها إليها وهو يدير أمر المملكة بعد وفاة أبيه وتبين رسالته الشعرية التي ودع بها ابن عمار حينما وجهه إلى شلب- مدى الأثر ومبلغ الكلف بهذه المرحلة[2]:

ألاحي أوطاني بشلب أبـــــابكـــر	وسلهن: هل عهد الوصال كما أدري
وسلم على قصر الشراجيب عن فتى	له أبدا شوق إلى ذلك القصـــــــــــر
وكم ليلة قد بت أنعـــم جنحـــــها	بمخضبة الأرداف مجدبة الخصـــــــــر
وبيض وسمر فاعلات بـــمهجـــــتي	فعال الصفاح البيض والأسل السمـــر

إن أهم ما يلفت النظر في مرحلة الإمارة هو حضور المعتمد كشخصية ثانية من حيث البروز؛ فالمملكة العبادية كانت في مرحلة توسع يهدف إلى تأمين محيطها السياسي وغرس الاستقرار الإقليمي ولهذا اختار المعتضد ابنه إسماعيل ليكون وليا للعهد ومشرفا على هذه السياسة، إلا أن حضور المعتمد في المصادر كان أقوى من حضور أخيه إسماعيل المقدم من قبل أبيه.

ظل المعتمد بشلب أميرا تكنفه مجالس الأنس، وهو يعب المسرات والأفراح عبا، ويفجر طاقات شبابه الغض في مباهجها ومسراتها حد التخمة المنهكة الموهنة، إلى أن استدعاه والده سنة 450هـ وهو التاريخ الذي قتل فيه المعتضد اسماعيل ابنه وأخا المعتمد إثر محاولتين انقلابيتين فاشلتين[3]، ليصبح وليا للعهد وهي مسؤولية ذات أعباء ضخمة - بالنظر لطبيعة المرحلة التي رأينا المملكة تخوضها- إلا أنه ورغم ضخامة هذه المسؤولية فإن شخصية المعتمد ينطمس بريقها ويخبو، أمام وهج شخصية الوالد الحاجبة لكل شيء، المستبدة بكل أمر- خصوصا

1- د. عبد الله حمادي. المعتمد بن عباد الشاعر والرمز. مجلة المعرفة. العدد397. أكتوبر 1996. ص198.
2- المعتمد. الديوان. ص47. 48
3- ابن عذاري. البيان المغرب. ج3. من ص244. وانظر الذخيرة ق3/مج1.من ص136 إلى ص148.

بعدما كاد المعتضد أن يؤتى من مأمنه، ولهذا لانجد إجابة عن أسئلتنا إن كان للمعتمد إسهام في التوسعات التي عرفتها المملكة في هذه المرحلة فلا ندري إن كان له دور في فتح الجزيرة الخضراء سنة 451هـ ورندة سنة 457 هـ ومورور سنة458 هــ وقرمونة سنة 459 هــ ؟[1] وعموما فالمصادر تعزو هذه الإنجازات للمعتضد باعتبارها جاءت في عهدته. لكن هذه المصادر تعزو النكسات -وكأنها تتحاشى المعتضد- لمن يقود الحملات ويفشل؛ ولهذا يظهر اسم المعتمد سنة 458 هــ مع تلبية أبيه لدعوات أهل مالقة المساندة لحكمه تعصبا وحمية فجهز جيشه و« أنفذ لهم شوكته الوحي سمها، وأطلع عليهم كتيبته البعيد همها القاسط حكمها معصبة بابنيه جابر ومحمد »[2] هنا يظهر اسم المعتمد قرينا للفشل في الفتح بعدما كاد أن يوفق لولا انقلاب الأحداث عليه وهو في غفلة من أمره فلم يفطن إلا على « صهيل الجياد، وتداعي الأجناد بشعار الجلاد...ولولا أنه استجار -زعموا- يومئذ برجل من العباد -كان هنالك- لتبت يداه ولحق اسماعيل أخاه»[3] وقد تسببت هذه الهزيمة في انفجار غضب أبيه عليه، فلم يجد المعتمد مايسكت به غضب والده ويصرف حممه عنه سوى قصيدة شعرية بعثها رسالة استعطفه بها معتذرا معترفا مجددا الولاء والطاعة.

وتكشف هذه الحادثة أن تراجع المعتمد إلى الظل منذ توليه لمكانة أخيه إسماعيل كان مرده إلى الفراغ الذي تركه هذا الأخير في نفسية أبيه وقاتله؛ فقد مر بفترة فراغ رهيبة و « لحقته لهذا الحادث وفظاعته وطروقه من مأمنه، وفساد لأكرم أعضائه عليه، وعمدة ثقاته لديه خشعة فلت عزمه وحيرت قلبه »[4] فالمعتضد حتى وإن عين المعتمد وليا للعهد فإنه لم يكن مطمئنا لسيرته ولا راضيا عنها اطمئنانه ورضاه على إسماعيل الذي قال عنه إنني اخترته وليا للعهد « على من هو أسن منه...لجزالة كنت أتوسمها فيه كانت عيني بها قريرة، وشهامة كنت أتوهمها منه كانت نفسي بها مسرورة »[5] لكنه وجد نفسه أمام ولي عهد مختلف. ولهذا نجد أن المعتمد

1- صلاح خالص. اشبيلية في القرن الخامس. ص126. وما بعدها.
2- ابن بسام. الذخيرة.ق2/مج1. ص50.
3- م ن. م ص.
4- ابن بسام. الذخيرة.ق2/مج1. ص146.
5- م ن. ص138.

في هذه المرحلة كان شاعرا بموقف أبيه منه لهذا كان يبرئ ساحته مما يرميه به ويلاحظه عليه من دل وخفر، وانغماس في اللذات، وافتتان وكلف بالنساء، وقد برز هذا في قصيدته ذات الأربعين بيتا التي استعطف بها أباه عند فشله في فتح مالقة -كما مر-وفيها قال[1] :

لم أوت من زمني شيئا أسر به	فلست أعهد ما كأس ولا وتر
ولا تـــملكني دل ولا خفـــر	ولا سبى خلدي غنج ولا حور

ومما لاشك فيه أن هذه الملاحظات القاسية والنظرة المستريبة المهونة لها أثرها ووقعها السيئ على نفسية المعتمد إذ عاد اسمه إلى الخمول فلم يظهر بعدها إلا بوفاة المعتضد يوم السبت لليلتين خلتا من جمادى الأخيرة سنة إحدى وستين وأربعمائة »[2] حين تولى أمور المملكة التي آلت مقاليدها إليه.

الملك الهش.. الشاعر اللاهي.

تولى المعتمد أمور مملكة إشبيلية فور وفاة والده فـــ « استقرت دولته ليومها وألقت مراسيها »[3] « وهو في ريعان شبابه وكمال جماله ابن تسع وعشرين سنة وشهرين وأيام زائدة »[4].

واختلف أسلوب تسييره عن أسلوب أبيه؛ فقد كانت المملكة- فيما يبدو- تعيش استياء صامتا، وسخطا شعبيا مخنوقا، وكان المعتمد يدرك أن هذا الاستياء والسخط تركة ثقيلة وخطيرة على المملكة؛ فوالده وإن ترك له « مملكة واسعة نسبيا قوية الدعائم متينة البنيان مستقرة في الداخل مهيبة الجانب في الخارج »[5] لكنه في المقابل خلف له تركة أخرى من الأحقاد جراء أسلوب أدائه القائم على القسوة والدموية " وتجاوز الحدود والإبلاغ في المثلة، والأخذ بالظنة والإخفار للذمة»[6]، ولهذا راح المعتمد يعالج هذا الوضع فـــ«رد جماعة ممن نفى أبوه وسكن وما نفّر»[7]وهي سياسة فيها بصمة شخصيته المتسامحة، المؤثرة للعفو، المتصفة باللطف وعفة السيف.

1- المعتمد: الديوان. ص102.
2- ابن الأبار. الحلة السيراء.ج2. ص53.
3- ابن الأبار. الحلة السيراء.ج2. ص54.
4- م ن. ص ن.
5- د. صلاح خالص. اشبيلية في القرن الخامس. ص129.
6- ابن بسام. الذخيرة.ق2/مج1. ص25.
7- ابن الأبار. الحلة السيراء.ج2. ص54.

أما على الصعيد الخارجي فقد فتر إيقاع الفتوحات، وانكفأت موجة التوسع، فباستثناء أول إنجازحققه المعتمد وهو ضم قرطبة – عاصمة الخلافة سابقا – بعد عام من توليه المملكة[1]فإننا لم نر المعتمد يحقق في هذا الجانب – بعدها – شيئا ذا بال. وضم قرطبة لم يكن مشروع المعتمد وإنما هو مشروع أبيه الذي وضعه « حسدا لآل جهور »[2] على استقرار دولتهم وحسن استثمارهم لبعدها الرمزي في القلوب والنفوس، وقد أدرك المعتمد قيمة هذا البعد الرمزي جيدا، فجعل « قرطبة منتهى أمله وروم أمرها أشهى عمله »[3] فلما واتته الفرصة وفتحها بالحيلة والكياد في ظرف مميز بالنسبة إليه – إذ فتحها - كما مر – بعد عام من توليه المملكة – انفجرت بداخله مشاعر البطولة، وتعززت أناه التي لاتزال مهزوزة بفعل شخصية أبيه أثناء الفترة السابقة، وتجاوبت حناياه تردد الصدى اللذيذ، والوقع المميز لهذا النصر فقال[4]:

من للملوك بشأو الأصيد البطل   هيهات جاءتكم مهدية الدول

عرس الملوك لنا في قصرها عرس   كل الملوك به في مأتم الوجل

جاء فتح المعتمد لقرطبة نصرا مميزا لأنه جاء إثر فشل الملوك الآخرين في ذلك، وأولهم أبوه المعتضد وآخرهم ابن ذي النون[5]. وهو ما كان فأل خير بالنسبة إليه، فراح في غمرة الاندفاع والحماس يبشر بمشاريع توسعية تليق بمقام البطل الفاتح[6]:

فراقبوا عن قريب لا أبالكم   هجوم ليث بدرع البأس مشتمل.

إلا أن هذه المشاريع كانت مشاريع شاعر يقول مالايفعل إذ سرعان ما انطفأت جذوة حماسه، وذبلت نشوة الملك الجديد الذي دشن عهده بنصر كبير كان فيه لجبة المعتضد وبطشته دور لاينكر.

والملاحظ أن انتصارات المعتمد في فترة توليه الحكم انتصارات هشة سريعة الانتكاس والانكسار فقد ثار

1- ابن عذاري. البيان المغرب. ج3. ص257.
2- ابن بسام. الذخيرة.ق1/مج2. ص609.
3- الفتح بن خاقان. قلائد العقيان. ص12.
4- المعتمد. الديوان. ص105.
5- ابن عذاري. البيان المغرب. ج3. ص257.
6- المعتمد. الديوان. ص105.

ابن عكاشة بقرطبة من قبل ابن ذي النون وقتل الظافر- ابن المعتمد - سنة 467 [1]ثم لم يلبث المعتمد أن استرجعها وانتقم لابنه الذي تأثر لمقتله أيما تأثر حتى أنه شغل عن تأبينه ورثائه « بطلب ثأره ونصب الحبائل لوقوع ابن عكاشة وعثاره »[2] وكان ذلك « يوم الثلاثاء لسبع بقين من صفر سنة 471 »[3] بعدها اختفت أخبار الإنجازات السياسية الخارجية، وظلت سيرته في الرعية تصنع الحدث؛ بين ناظر إلى ما يعيشه من بذخ وإسراف في اللذات، وتبذير للخيرات على محيطه الملتف به، وناظر إلى أجواء الاستقرار وانقشاع روع وهول السطوة المعتضدية.

والمصادر لاتمدنا بتفاصيل ضافية عما كانت عليه إشبيلية العميقة في هذه الفترة لنميز حقيقة النظرتين لكن تأمل سياق الأحداث يمكننا من القول بأن النظرة الأولى يمثلها الموتورون الذين لم يستطيعوا نسيان بطشة المعتضد، ويمثلها الفقهاء الواعون الذين أزعجهم انهماك المعتمد في لذاته وانغماسه فيها مع أصدقائه وزوجته اعتماد التي « أبغضها الفقهاء ورموها بأنها ورطت المعتمد فيما ورطته من الخلاعة والاستهتار والمجاهرة »[4] أما النظرة الثانية فيمثلها عامة الناس الذين رأوا ملكا « أحسن السيرة وملك فأسجح »[5] والحق أن ولع المعتمد بالخمر وانغماسه في اللذات وعكوفه على البطالة -كما يقول ابن الأبار- [6] كان منفذا لخصومه - أولا - ونقطة ضعف - ثانيا -لا تليق بمقام من هو على رأس أقوى مملكة يومها.

بعد عشر سنوات من تولي المعتمد لأمور المملكة حقق إنجازا آخر هشا تمثل في ضم مرسية بعدما وجه إليها وزيره وصديقه ابن عمار، لكنه تمرد عليه واستقل بها لنفسه، ولئن استطاع المعتمد أن يظفر بابن عمار بعد ست سنوات « يوم الجمعة لست بقين لربيع الآخر سنة سبع سبعين »[7] ويقتله بعدها بيده، إلا أن هذه الولاية

1- المعتمد. الديوان. ص07.
2- ابن خاقان. القلائد. ص13.
3- المراكشي. المعجب.ص191.
4- آنخل جنثالث بالنثيا. تاريخ الفكر الأندلسي. ص95.
5- ابن الأبار. الحلة السيراء.ج2. ص54.
6- م ن. م ص.
7- ابن بسام. الذخيرة.ق2/مج1. ص417.

وقعت بعد ذلك في يدي « رجل من أهل مرسية يقال له ابن رشيق كان أبوه من عرفاء الجند بها ... فدعا ابن رشيق هذا لنفسه »[1] ويبدو أن المعتمد قد حفظ ماء الوجه بنصر صغير- تزامن مع إلقاء القبض على ابن عمار - إذ دخل حصن بياسة بتواطؤ من أهلها فكان هذا بمثابة فتح على فتح بالنسبة إليه[2].

استيقاظ لسلالة الملوك.

قبل إلقاء القبض على ابن عمار بعامين استيقظ بداخل الملك الشاعر، البطل السادر والنخوة العربية المطأطئة الرأس أمام النصارى، ففي « سنة خمس وسبعين وأربع مائة وصل اليهودي ابن شالب لقبض الجزية المعلومة مع قوم من رؤساء النصارى ... فوجه لهم المعتمد المال ... فقال اليهودي: والله لا أخذت هذا العيار، ولا آخذ منه إلا مشجرا وبعد هذا العام لا آخذ منه إلا أجفان البلاد، ردوه إليه فرد المال إلى المعتمد وأعلم بالقصة، فدعا الجند وقال: ائتوني باليهودي وأصحابه ... ففعلوا وجاؤوا بهم، فقال: اسجنوا النصارى واصلبوا اليهودي الملعون، فقال اليهودي: لاتفعل وأنا أفتدي بزنتي ذهبا. فقال والله لو أعطيتني العدوة والأندلس ما قبلتها منك فصلب »[3] وفي رواية أخرىأن المعتمد « أخذ محبرة كانت بين يديه وضرب بها رأس اليهودي فأنزل دماغه في حلقه وأمر به فصلب منكوسا بقرطبة »[4]. إن الجزية في حياة ملوك الطوائف هي أشد نقطهم السوداء سوادا، والمعتمد بن عباد وجدها ضمن المعاهدات التي التزم بها والده المعتضد مع فردناند الأول منذ سنة 455 هـ (1063م)[5]، وظلت المملكة ملتزمة بها حتى في فترات قوتها، غير أن النصارى كانوا يرون أن الجزية قد حققت ثمرتها المادية، واستنزفت طاقة المسلمين بالأندلس، واستجلبت نقمة العامة على الملوك فبدأوا مرحلة الكشف عن الأطماع الحقيقية و لم يكن هذا التفكير غائبا عن بال المعتمد، فلمّا جاءت الفرصة رأى أنه من

1- المراكشي: المعجب.ص181. وقد أصلح ابن تاشفين عند دخوله الأندلس بين ابن رشيق والمعتمد فسلم له مرسيه مقابل مال وتولية في اشبيلية. أنظر المعجب. ص195.

2- ابن بسام: الذخيرة.ق2/مج1. 416.

3- المقري. نفح الطيب.ج5.ص170. هناك رواية أخرى تقول بأن المعتمد تأخر عن موعد دفع الجزية فطالب النصارى بأجزاء أخرى من الأراضي كغرامة تأخير. أنظر النفح.ج5. ص265. 266.

4- المقري. نفح الطيب. ج5. ص266.

5- د. صلاح خالص. اشبيلية في القرن الخامس. ص131.

غير المعقول أن يبقى مكبلا بها وهي تجرعه الذل مرتين من هنا جاءت ثورته على سفراء النصارى بقيادة اليهودي إعلانا بعودة قطاع البطولة والملوكية إلى الأنا المعتمدية، فكانت هذه الحادثة بمثابة علاج لصراع التناقضات والتجاذبات التي كان يعيشها كشاعر منهمك في مباهج الحياة ولذاتها حد البطالة، ويعيشها كملك يدير أوسع مملكة أندلسية وأقواها وما تفرضه من التزامات وسهر على حسن سيرها.

إن هذه الحادثة وماترتب عليها بعد ذلك من تداعيات سياسية، وعسكرية حربية هي التي أخذت بيد المعتمد إلى، عالم الخلود. ذلك أنه أثبت للجميع بأن حياته اللاهية، لم تكن حائلا بينه وبين حقيقته الوجودية، وهويته الإسلامية الراسخة التي لا تقبل ذلة من هو أعلى للذي هو أدنى؛ كما أن هذه الحادثة كانت داعيا كافيا للجميع لأن يعيدوا النظر في حياة المعتمد الشاعر الملك، ولما بلغ خبر فعلة المعتمد مع مبعوثي النصارى تفجر الغضب الصليبي و«أقسم النصراني أن يأتي من الجنود بعدد شعر رأسه حتى يصل إلى بحر الزقاق»[1] ، واللافت للانتباه هو سرعة تحول المعتمد وتكيفه مع المعطيات الجديدة حيث أدرك أن حشد النصارى لقواهم لابد أن يقابله حشد يكافئ حشدهم. ولأنه كان يرى أن الأندلسيين مشتتون ولا أمل في علاجهم، معترفا بأنه قصّر في حقهم يوما ما؛ يوم كان ملتزما بعهوده مع النصارى على حساب المسلمين مما « أوجب القعود على نصرهم وتدبير أمورهم »[2] وقد أصابه الندم لذلك فقال: « ... ونسأل الله سبحانه المغفرة فيما آتيناه في أنفسنا وفيهم من ترك الحزم وإسلامهم لأعاديهم »[3] فإنه لم ينتظر منهم خيرا إذ قال فيهم: « إن إخواننا وجيراننا ملوك الأندلس ليس فيهم نفع، ولا يرجى منهم نصرة ولا حيلة إن نزل بنا مصاب »[4] فلم يكن أمامه حل سوى طلب الإمداد بجيوش المسلمين في العدوة، ولا يكون ذلك إلا بالتحالف مع يوسف بن تاشفين فلم يتردد في الإستنجاد به و« جاز المعتمد إليه ووعده بنصرته فرجع وحث ملوك الأندلس

1- المقري. نفح الطيب. ج5. ص170.

2- لسان الدين بن الخطيب. الحلل الموشية. تصحيح. البشير الفورتي. مطبعة التقدم الاسلامية. تونس. ط1. ص25.

3- م ن. م ص.

4- م ن. ص27.

على الجهاد »[1] إن إصرار المعتمد على المواجهة يكشف أن سلوكه السابق مع سفراء النصارى لم يكن انزلاقا، ولا فورة غضب عابرة، وإنما كانت قطرة أفاضت كأس الغضب المختزن منذ سنين وهو ما ينم عن نفس مؤرقة، تعتجن بداخلها متناقضات قاهرة تركتها في حالة تجاذب وجداني معذب. فقد كان يرى شرف سلالة الملوك يدنس، وعزة البطل الفارس تكسر فلا يجد سوى الجزية ملاذا يلوذ به وهو يردد: « من لا يمكن مقاواته ومخاشنته فليس إلا مداراته وملاينته »[2] وقد عد استنجاد المعتمد بيوسف ابن تاشفين من أكبر حسناته الشافعة له الجابرة لكل كسور المرحلة اللاهية. يقول ابن الأبار: « ومما يؤثر من فضائله ويعد في زهر مناقبه، استعانته على الروم بملك المغرب حينئذ ــ وهو يوسف بن تاشفين ــ وسعيه في استقدامه »[3] وقد جاءت معركة الزلاقة ثمرة لهذا السعي العبادي، في الثاني عشر من رجب سنة 479 هــ »[4] أو « الثاني عشر من شهر رمضان »[5] من نفس السنة، إذا لم يكن استنجاد المعتمد بابن تاشفين استنجاد ملك ضعيف متضعضع، بآخر قوي وإنما كان تدبير ملك بصير بمقتضيات المرحلة، ومتطلبات الصراع، وقد أثبت بحسن بلائه في المعركة أنه قائد خبير بالتنظيم العسكري خبرة متناهية مع التفاني والحرص على دماء المسلمين عامة ودماء المرابطين خاصة « حتى قيل إن الرجل من الصحراوين كان يخرج عن طرق محلاتهم لبعض شأنه أو لقضاء حاجته، فيجد ابن عباد بنفسه مطيفا بالمحلة بعد ترتيب الكراديس من خيل على أفواه طرق محلاتهم؛ فلا يكاد الخارج منهم عن المحلة يخطئ إذ ذاك من لقاء ابن عباد لكثرة تطوافه عليهم »[6] كما أثبت حسن بلائه في المعركة أنه من طينة

1- المقري. نفح الطيب. ج5. ص170. يبدو أن فكرة استنجاد المعتمد بيوسف بن تاشفين لم تكن وليدة هذه الفترة وإنما تعودإلى سنوات مضت حيث اعتذر فيها ابن تاشفين وأرجأ الأمر إلى غاية سيطرته على طنجة وسبتة، وكان لهذه الفكرة رواج بعد ذلك عند الأندلسيين حيث تعددت وفودهم إلى يوسف بن تاشفين. أنظر:

- د. أمين توفيق الطيبي دراسات وبحوث في تاريخ المغرب والأندلس. الدار العربية للكتاب. ليبيا. تونس. 1984. من صفحة 151. ص171.

2- ابن بسام. الذخيرة.ق2/مج1. ص252.

3- ابن الأبار. الحلة السيراء.ج2. ص54. 55.

4- محمد بن عبد الله الحميري. صفة جزيرة الأندلس منتخبة من كتاب الروض المعطار. تصحيح. ليفي بروفنسال (د.ط). ص83.

5- المراكشي. المعجب.ص197

6- محمد بن عبد الله الحميري. صفة جزيرة الأندلس منتخبة من كتاب الروض المعطار. تصحيح. ليفي بروفنسال. د. ط. ص90.

الشجعان، والفرسان الأبطال فقد اعترف له أعداؤه بأنه « مسعر هذه الحروب »[1] فتواصوا باستهدافه وأمروا جيوشهم أن « اقصدوه واهجموا عليه، فإن انكشف لكم هان عليكم الصحراويون من بعده »[2] ، ويبدو أن المعتمد هو الآخر قد انكشفت له نفسه وطلعت له من خمولها السابق؛ فاستيقظ بداخله ابن عباد سليل الملوك الذي طالما تغنى به، ووجد أنه مسؤول عن هذا الإرث الملوكي المؤثل، حينها قال للأدفنوش الحمد لله : « الذي جعل عقوبتنا توبيخك وتقريعك »[3] وكأنه أدرك أن لحظة إضافة حلقة أخرى إلى أمجاد الأجداد لازالت فرصتها قائمة و لم يفت أوانها فاندفع « وهو يتفاءل لنفسه مكملا البيت الشهور[كامل][4]:

لابد من فرج قريب   يأتيك بالعجب العجيب

غزو عليك مبـــارك   سيعود بالفتح القريـــب

لله سعدك إنـــــــــه   نكس على دين الصليب

لابد من يوم يكـــو   ن أخا له يوم القليـــب »

فلا عجب أن يخوض ابن عباد معركة الزلاقة بنفسية متحررة من كل الأثقال متحملة لكل التبعات والأعباء مهما ثقلت لأنه رأى تباشير المجد تلوح له من هذا القرار الذي وقعه بالعبارة الخالدة و كلمته السائرة مثلا: « ري الجمال خير من رعي الخنازير»[5] إن رجلا يهون عليه ملكه أمام مايراه من حلول لحظة الخلود لن نعجب منه حينما نراه وقد حمي الوطيس لايبالي بالأهوال حتى وإن « أبطأ عليه الصحراويون وساءت ظنون أصحابه وانكشف بعضهم، وفيهم ابنه عبد الله وأثخن ... جراحات وضرب على رأسه ضربة فلقت هامته، حتى وصلت إلى صدغيه وجرحت يمنى يديه وطعن في أحد جانبيه وعقرت تحته ثلاثة أفراس كلما هلك واحد قدم له آخر، وهو يقاسي حياض الموت ويضرب يمينا وشمالا »[6] نعم يبطل العجب أمام هذا المشهد البطولي،

1- محمد بن عبد الله الحميري. صفة جزيرة الأندلس منتخبة من كتاب الروض المعطار. تصحيح. ليفي بروفنسال. د. ط. ص91.
2- م ن. ص ن.
3- ابن الخطيب. الحلل الموشية. ص25.
4- الحميري. صفة جزيرة الأندلس منتخبة من كتاب الروض المعطار. ص89.
5- الحميري. صفة جزيرة الأندلس. ص85.
6- م ن. ص92. وقد نقلها المقري في النفح. انظر ج5 ص 272.

ويصح قول ابن القزاز[1]:

وقالوا كفه جرحت فقلـــنا	أعاديه تواقعها الجراح
وماأثر الـــجراحة مارأيتـــم	فترهبها المناصل والرماح
ولكن فاض سيل البأس منها	ففيها من مجاريه انسياح

بانجلاء المعركة، تطايرت أخبارالصبر المعتمدي الذي « لم يعهد لمثله أحد »[2]، وأخبار بطولته وشجاعته وكل ذلك كاف لتهوين جراحاته، وتعزيز ذاته ومكانته، واستبان الناس صدقه في استئصال عدوه حينما دعا ابن تاشفين إلى كرة أخرى تستترف ما تبقى من طاقة العدو، وتبدد كيانه فتكون القاصمة للعدو قبل أن يسترجع أنفاسه لكن ابن تاشفين « خاف أن يهلك العدو الذي من أجله استدعاه فيقع الاستغناء عنه »[3] وهنا لابد أن ينصف التاريخ المعتمد ويحكم له بصواب الرأي لأن بقايا الصليبيين التي نجحت مع الأذفونش والمقدر عددها بـــ « نحو الخمسمائة فارس كلهم مكلوم »[4] كان يكفي قليل من المطاردة فقط للقضاء عليها فقد كان « المفلت من سيوف الهند بسيوف الجوع والبعد مقتول»[5] لأنه « لم يخلص منهم ... إلا من سيلتهمه البعد ويأتي على حشاشته الجهد »[6]، والتاريخ لابد أن ينصف المعتمد لأن استشارته لابن تاشفين ونزوله عند رأيه دليل على حس سياسي متحضر، وانضباط تنظيمي مميز.

إن معركة الزلاقة- وهي من تداعيات انتفاضة المعتمد- كانت بمثابة وثبة بسيكولوجية بالنسبة إليه إذ فيها « طار ذكر ابن عباد...، وشهد مجده، ومالت إليه القلوب وسالمته ملوك الطوائف، وخاطبوه جميعا بالتهنئة، و لم يزل ملحوظا معظما... »[7].

1- ابن بسام. الذخيرة.ق2/مج1. ص245.
2- الحميري. صفة جزيرة الأندلس. ص92.
3- م ن. ص93.
4- م ن. ص ن. يذهب المراكشي إلى أن عددهم تسعة، انظر: المعجب. ص198.
5- ابن بسام. الذخيرة.ق2/مج1. ص241. 242.
6- م ن. ص244
7- الحميري: صفة جزيرة الأندلس. ص95.

فجيعة الخلع ومأساة الأسر:

رأينا أن المعتمد لما استنجد بابن تاشفين كان مؤمنا أن سلوكه هذا حتمية استراتيجية لامناص منها، ورغم تحذيرات وزرائه وأبنائه وسائر ملوك الطوائف من احتمال انقلاب صريحه عليه إلا أنه وظف البعد الديني الذي هون عليه احتمال خسارة الملك في مقابل ربح رضى الله فقال مجيبا عن التحذيرات السابقة « يا قوم أنا من أمري على حالتين، حالة يقين، وحالة شك، ولابد لي من إحداهما، أما حالة الشك فإني إن استندت إلى ابن تاشفين أو إلى ابن فرذلند ففي الممكن أن يفيا لي ويبقيا علي، ويمكن ألا يفعلا، فهذه حالة الشك، وأما حالة اليقين، فهي أني إن استندت إلى ابن تاشفين فأنا أرضي الله، وإن وإن استندت إلى ابن فرذلند أسخطت الله، فإذا كانت حالة الشك فيها عارضة فلأي شيء أدع مايرضي الله وآتي مايسخطه ؟ »[1] إضافة الى هذا الوضوح كان المعتمد ينظر إلى أن « النصرة » واجب إسلامي بين المسلمين، خصوصا إذا كان ضد عدو كافر، وثمرته تكون إحياء دعوة الخلافة والشريعة، كل هذه المعاني كانت ماثلة في ذهن المعتمد وبعث بها إلى ابن تاشفين قائلا : « بسم الله الرحمان الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما إلى حضرة الإمام أمير المؤمنين وناصر الدين محيي دعوة الخليفة ... نحن أهل هذه الأندلس ليس لأحد منا طاقة على نصرة جاره ولا أخيه ... وأنت أيدك الله سيد حمير ومليكها الأكبر وأميرها وزعيمها نزعت بهمتي إليك واستنصرت بالله ثم بك واستغثت بحرمكم لتجوز لجهاد هذا العدوالكافر وتحيون شريعة الإسلام ... »[2] ولا شك أنه كان يعتقد أن هذه المعاني ستكون محفزات لابن تاشفين، وقواسم مشتركة تسهل التقارب والتفاهم بينهما غير أن

ابن تاشفين ينظر إلى هذه المعاني نظرة رجل سياسي يحمل في جعبته عدة مبادئ يختار منها ما يلائم مصلحة مشروعه السياسي، ويدع ما يكبل أو يعوق نجاحه، وبين هاتين النظرتين يبرز سؤال مهم هل سحرت الأندلس ابن تاشفين بجمالها المتنوع، وخيراتها حتى نسي عهوده إزاء إخوانه؟ تقول بعض المصادر إن ابن تاشفين لما قدم

1- الحميري: صفة جزيرة الأندلس. ص86. وانظر النفح الجزء الخامس. ص 266. 267.

2- ابن الخطيب : الحلل الموشية. ص28. 29.

إلى الأندلس تلقى هدايا من المعتمد فرأى « ما لم يظنه ... عند ملك، فكان هذا أول ما أوقع في نفس يوسف التشوف إلى مملكة جزيرة الأندلس »[1] وأنه « قال لبعض ثقاته من وجوه أصحابه: كنت أظن أني قد ملكت شيئا فلما رأيت تلك البلاد صغرت في عيني مملكتي فكيف الحيلة في تحصيلها ؟ »[2] وبعد مشاورة اهتدى إلى التستر بهدف ديني وهو الرباط في سبيل الله حيث ترك رجالا « رغبوا في الرباط في الأندلس ومجاهدة العدو، والكون ببعض الحصون المصاقبة للروم إلى أن يموتوا ... »[3] فوافق المعتمد على ذلك، وفي سياق واضح تقول مصادر أخرى إن ابن تاشفين قد مكث بعد الزلاقة في ضيافة المعتمد فرأى إشبيلية وغلاتها، ورأى الكرم المعتمدي وخدمته، وكان مع ابن تاشفين أصحابه ينبهونه إلى كل هذا « ويغرونه باتخاذ مثلها »[4] فقال لهم: « الذي يلوح لي من أمر هذا الرجل - يعني المعتمد - أنه مضيع لما في يده من الملك »[5] معللا رأيه بأن هذا النعيم لابد أن يكون قد أخذ ظلما من أصحابه، « ثم إن يوسف بن تاشفين سأل عن أحوال المعتمد في لذاته: هل تختلف فتنقص عما عليه في بعض الأوقات؟ فقيل له: بل كل زمانه على هذا. فقال: أفكل أصحابه وأنصاره على عدوه ومنجديه على الملك ينال حظا من ذلك؟ فقالوا لا، قال: فكيف ترون رضاهم عنه؟ فقالوا لارضى لهم عنه. فأطرق وسكت، وأقام عند المعتمد على تلك الحال أياما »[6] إنه مهما يكن الغطاء أو القناع أو المبرر الذي سوغ لابن تاشفين الدخول إلى الأندلس متنصلا من كل علاقاته السابقة، فإن المتأمل يستطيع ملاحظة الفارق الحضاري بين الدولتين العبادية والمرابطية من خلال تصرف زعيميها؛ فالمعتمد صورة جلية لحضارة الأندلس وتقاليدها السياسية والدبلوماسية العالية حيث كان يرى أنه من الواجب أن تكون دولته موئلا لها في زمن التنافس الطائفي على تلقف كل ما يعلي الشأن ويزرع الهيبة والأبهة، فقد بلغ التحضر مداه وكان الاستقرار في الوطن والاكتفاء به سمة بارزة، أما ابن تاشفين فهو صورة معبرة للأمة التي تكون في طور

1- المراكشي. المعجب.ص194.
2- م ن. ص203. 204.
3- م ن. ص204.
4- المقري. نفح الطيب. ج5. ص279.
5- م ن. ص ن.
6- م ن. ص ن.

التوحش - المقتضي للتوسع كما يذهب إلى ذلك ابن خلدون ؛ فالأمم المتوحشة - لا تتكيف مع المستقرين المكتفين بأوطانهم فإذا حدث وأن تنزلوا عندهم فإنما «يتنزلون من الأهلين منزلة المفترس من الحيوانات العجم»[1].

ولهذا نجد أن الرجلين كليهما أنفق من إنائه الحضاري؛ وعليه فابن تاشفين تنزل من الأندلسيين عامة - ومن المعتمد خاصة - منزلة المفترس حيث أصدر أمره إلى قائده الذي تركه بالأندلس لمجاهدة الكفار !! يلزمه بإرغام ملوك الطوائف على« النقلة والرحيل إلى أرض العدوة فمن فعل فذاك، ومن أبى فحاصره وقاتله ولا تنفس عليه »[2] وهنا بدأ العد التنازلي لمملكة إشبيلية وملكها إذ « ثارت الفتنة على المعتمد وكان مبدؤها في شوال من سنة 483 بأخذ جزيرة طريف المقابلة لطنجة من العدوة دون مقدمة ظاهرة توجب ذلك »[3] ثم سقطت قرطبة « في مستهل صفر الكائن في سنة 484 »[4] وقتل ابنه المأمون « فزادت الإحنة والمحنة »[5] واتسعت الرقعة لتمتد إلى إشبيلية مركز وعاصمة الدولة التي سقطت « يوم الأحد لإحدى وعشرين ليلة خلت من رجب من السنة المذكورة ... وظهر من دفاع المعتمد رحمه الله وبلائه، وترامیه على الموت بنفسه، ما لامزيد عليه، ولا تناه لخلق إليه »[6] فتعرضت إشبيلية للنهب والسلب إذ لم يترك البربر لأحد من أهلها سبدا ولا لبدا، وانتهبت قصور المعتمد نهبا قبيحا وأخذ هو قبضا باليد »[7] فصح بذلك تنبؤه حينما رأى أطماع صريخه وندم على استدعائه فقال « لحليفه المتوكل بن الأفطس: والله لابد له أن يسقينا من الكأس الذي أسقى به عبد الله ابن بلقين »[8] ، ورغم أنه حاول أن يستدرك الأمر « إذ أخذ في بناء الأسوار وعمل القنطرة »[9] إلا

1- ابن خلدون. المقدمة. دار الجيل. بيروت. (د.ط). ص160.
2- المقري. نفح الطيب. ج5. ص276.
3- المراكشي. المعجب.ص205.
4- م ن. ص ن.
5- م ن. ص ن.
6- م ن. ص207
7- المراكشي. المعجب.ص208.
8- ابن عذاري. البيان المغرب. ج4. ص144.
9- م ن. ص ن.

أنه فيما يبدو كان مسلما بقرب النهاية، فكان جوابه لإبنه - عبد الرشيد- حينما لامه على عدم إصغائه لنصيحته بالاعراض عن الاستنجاد بابن تاشفين- كان جوابه- « يابني لاينجي حذر من قدر»[1]، ولعل هذا هو سر عودته للانهماك في لهوه ولذاته حتى دخلت عليه جيوش ابن تاشفين وهو « لم يشعر ... فأفاق من نومه وصحا من سكره »[2] لكن بعد فوات الأوان، وبعد مقاومة مشهودة أظهر فيها المعتمد فروسيته وبطولته إلا أن الأحداث كانت أكبر منه « فطلب الأمان له ولمن معه فأمن وجميع من له، وأعدت له مراكب واجتاز إلى طنجة»[3] « ثم انتقل إلى مدينة مكناسة فأقام بها أشهرا إلى أن نفذ الأمير بتسييرهم إلى مدينة أغمات»[4] « ولعل اختيارها يعود إلى كونها غير بعيدة عن مراكش العاصمة، وإلى أنه يتعذر على المعتمد النجاة منها أو إحداث القلائل للمرابطين في مملكته السابقة، وتقع أغمات على بعد نحو خمسة وعشرين ميلا إلى الجنوب من مدينة مراكش»[5] ودامت مدة أسره أربع سنوات حيث توفي « في شهر ربيع الأول سنة ثمان وثمانين»[6]وتعد فترة الأسر أغنى فترات المعتمد من الناحية الإبداعية لأنها فترة ألم واصب غير منقطع؛ إذ فيها فقد العديد من الأبناء، بعدما فقد ملكه، وسلب عزه وذاق الذل والقهر وتجرع مرارة النفي وسمع نشيد القيود المكبلة لرجليه، ورأى بناته عاملات لدى امرأة كان أبوها تحت إمرته عبدا مطيعا لايطمح إلى أكثر من إشارة بإصبعه ليتحرك، فصار سيدا عليه لايحفظ له عهدا ولا ودادا.

وقد صور شعره في هذه المرحلة كل أحاسيسه وذكرياته تصويرا تفيض منه المأساة مع كل كلمة، وكل مشهد يصفه. والملاحظ أن مكان أسره ظل مزار شعراء بلاطه كأبي بكر الداني (ابن اللبانة) وأبي بحر عبد الصمد، وأبي محمد الصقلي المعروف بابن حمديس،مما يدل على صدق محبتهم ووفائهم له. بل إن مكانه ظل مزار شعراء الاستجداء أمثال الحصري المكفوف و« جماعة من زعانف الشعراء ... تعرضوا له بكل قارعة طريق،وجاءوه

1- ابن عذاري. البيان المغرب. ج4. ص144.
2- المقري. نفح الطيب. ج5. ص171.
3- م ن. ص ن.
4- المراكشي. المعجب.ص214.
5- د. أمين توفيق الطيبي. دراسات وبحوث في تاريخ المغرب والأندلس. ص190.
6- ابن الأبار. الحلة السيراء.ج2. ص55

من كل فج عميق »[1] ، فلم ييأسوا من تدفق كرمه وفيض أريحيته، وكان لايردهم إلا بعدما يجود بما استطاع وهو يعتذر ويتأسف ويتألم لتقلب الحال.

صفات المعتمد النفسية والجسمية:

وصف ابن الأبار المعتمد حينما تولى الحكم عقب وفاة أبيه فقال إنه كان « في ريعان شبابه وكمال جماله »[2] ووصف بأنه « كان مثل أبيه في حسن القوام وروعة المظهر، وعنفوان الصبا »[3] وقيل « كان المعتمد من الملوك الفضلاء والشجعان العقلاء والأجواد الأسخياء المأمونين، عفيف السيف والذيل ... إلا أنه كان مولعا بالخمرة، منغمسا في اللذات عاكفا على البطالة مخلدا إلى الراحة »[4] وقد « خلع عن ثمانمائة امرأة، أمهات أولاد وجواري متعة، وإماء تصرف ورزق من الناس حبا فهم يبكونه إلى اليوم »[5]. « وكان له في الأدب باع واسع ينظم وينثر ... ولم يك في ملوك الأندلس قبله أشعر منه ولا أوسع مادة »[6] و « كان متمسكا من الأدب بسبب وضاربا في العلم بسهم وله شعر كما انشق الكمام عن الزهر ... لا يجد إلا راثيا، ولا يجيد إلا عابثا ... والعجب من المعتمد أنه مرى سحابه في كلتا حاليه فصاب، ودعا خاطره فجاب، ولا تراجع له من طبع ولا بعد الخلع، بل يومه في هذا الشأن دهر »[7] « وكان المعتمد هذا يشبه بهارون الواثق بالله من ملوك بني العباس، ذكاء نفس وغزارة أدب ... وكان مقتصرا من العلوم على علم الأدب وما يتعلق به وينضم إليه، وكان فيه من الفضائل الذاتية ما لا يحصى، كالشجاعة والسخاء والحياء والنزاهة إلى ما يناسب هذه الأخلاق الشريفة، وفي الجملة فلا أعلم خصلة تحمد في رجل إلا وقد وهبه الله منها أوفر قسم، وضرب له الله فيها بأوفى سهم، وإذا عدت حسنات الأندلس من لدن فتحها إلى هذا الوقت فالمعتمد هذا أحدها بل أكبرها »[8] وقالوا كلهم كان

1- ابن بسام. الذخيرة.ق2/مج1. ص67.
2- ابن الأبار. الحلة السيراء.ج2. ص54.
3- محمد ع الله عنان. دولة الاسلام في الأندلس. العصر الثاني. دول الطوائف. مكتبة الخانجي. القاهرة. ط3. 1983. ص59. 60.
4- ابن الأبار. الحلة السيراء.ج2. ص54.
5- م ن. ص55.
6- م ن. ص ن.
7- ابن بسام. الذخيرة.ق2/مج1. ص41. 42.
8- المراكشي. المعجب.ص149. 150.

المعتمد رحمه الله، فارسا، شجاعا، بطلا مقداما، شاعرا ماضيا مشكور السيرة في رعيته »[1] وهو « ملك قمع العدا وجمع البأس والندى، وطلع على الدنيا بدر هدى، لم يتعطل يوما كفه ولا بنانه آونة يراعه وآونة أسنانه، وكانت أيامه مواسم وثغوره بواسم »[2] وهو أيضا « ملك مجيد وأديب على الحقيقة مجيد، وهمام تحلى به للملك لبة، وللنظم جيد، أفنى الطغاة بسيفه وأباد، ونظم معاليه في أجيادها جواهر ودررا وشيد في كل معلوة فناءه، وعمر بكل نادرة مستغربة وباردة مستظرفة أوقاته وآناءه »[3] وكان له مائة وثلاث وسبعون ولدا وكان راتبه في اليوم ثمانمائة رطل من اللحم »[4] وجزم لنا ابن خميس أن أوصاف المعتمد مهما اجتهدنا في جمعها فلن ننصف فقال: « وقد ذكر الناس للمعتمد من أوصافه ما لا يبلغ مع كثرته إلى إنصافه »[5] وعليه لا يكفي هذا الحشد ولا يستكثر هذا الرصف لما قيل في حق هذه الشخصية.

يمكننا أن نستخلص عشر صفات ترسم لما ملامح المعتمد المعنوية والجسمية وهي:

1- الصفات الجسمية: حسن القوام وروعة المظهر وكمال الجمال.

2 - الصفات المعنوية: الشجاعة، الجود، الولع بالخمر واللذات وما يترتب عليها من حب الراحة والبطالة، شاعر ناثر غزير الأدب، الحياء، القبول الشعبي، الشخصية غرائبية « عمر بكل نادرة مستغربة وبادرة مستظرف أوقاته وآناءه » رخاء عهدة حكمه « أيامه مواسم »، الإسراف في الأكل والنكاح.

أهم العوامل المؤثرة في شخصية المعتمد بن عباد

إن شخصية الإنسان هي محصلة تضافر وتفاعل مجموعة من الاستعدادات الداخلية والمؤثرات الخارجية، ولا يمكن الاقتراب من أية شخصية إلا إذا أحاط الباحث بهذه الاستعدادات والمؤثرات علما ، وعليه سنحاول جمع أهم الاستعدادات والمؤثرات التي أخرجت شخصية المعتمد وأثرت فيها.

1- ابن الخطيب. الاحاطة في أخبار غرناطة. المجلد الثاني. ص109.
2- ابن خاقان. قلائد العقيان. ص04.
3- المقري. نفح الطيب. ج5. ص168. 169.
4- الحافظ الذهبي. العبر في خبر من غبر. تحقيق. محمد السعيد زغلول. دار الكتب العلمية. بيروت ط1. 1985. ج2. ص359.
5- م ن. ص169.

1. السلالة اللخمية: ينحدر المعتمد بن عباد من سلالة نبيلة لا ترضى بأقل من أصل ملوكي فنسبه يصل إلى قنص بن معد « وقد قيل إن ملوك الحيرة من المناذرة وآلهم من ولد قنص »[1]، فهي سلالة ليست واغلة في الملك، وهي سلالة شاعرة لا تقبل بغيرة إمارة الشعر إذ منهم « امرؤ القيس بن النعمان بن امرئ القيس بن عمرو بن عدي »[2] ولاشك أن هذه الشجرة العائلية كانت من مغذيات شخصية المعتمد خصوصا في عصر ملوك الظوائف حيث غاض ماء السلالات النبيلة وخمل، حتى طمع في الملك كل من واتته الظروف، فناله السفلة والكبار، وحاول خاملوا الذكر الدوس على هذا المؤهل، مما جعل عائلة بني عباد في مركز قوة، وقد كان المعتمد كثيرا ما يستند إلى هذا العنصر الماجد حتى في أشد فترات الألم، فحينما أيقن أن ملكه على وشك الزوال قال[3]:

من عزا المجد إلينا قد صـــــــدق	لم يلم من قال- مهما قال- حق
مـــجدنا الشمس سناء وسنـــا	من يرم ستر سناها لم يطـــــق
وقديـــما كلف الملوك بـــــنا	ورأى منا شـــموسا فعشـــــق
قد مضى منا ملوك شهـــــروا	شهرة الشمس تجلت في الأفق
نحن أبناء بني ماء الســــــــماء	نحونا تطمع ألحاظ الـــحـــدق

إن هذا الحضن الدافئ الذي يؤوب إليه المعتمد، يبين بوضوح أثره الكبير في هذه الشخصية، فهو بمثابة المرتكز النفسي الحامل لها.

2. الوالد الساحق

لئن واتت الأقدار المعتمد بسلالة نبيلة، فإنها عاكسته بوالد دموي ساحق متعطش للملك، إرتوى بدماء الاصدقاء والأهل لإشباع هذا التعطش فقد عرف بـــ « فظاعة السطوة و شدة القسوة و سوء الإتهام على

1- ابن حزم .جمهرة أنساب العرب. تحقيق محمد عبد السلام هارون. دار المعارف. مصر. 1962. ص10.
2- م ن. ص423.
3- المعتمد. الديوان. ص147.

الطاعة سجايا من جبلة لم يحاش فيها ذي رحم واشجة »[1] كما عرف بـــ « صلابة العصى و شناعة السطا ، فجاء.... بمهولات يذعر من سمع بها فضلا عن من عاينها»[2] يذكر لنا إبن بسام إحدى غرائب هذه الشخصية فيقول« و من نادر أخباره المتناهية في الغرابة أن نال بغيته و أهلك تلك الأمم العاتية، و إنه لغائب عن مشاهدتها مترفه عن مكابدتها، مدبر فوق أريكته، منفذ لحيلها من جوف قصره، ما إن مشى إلى عدو أو مغلوب من أقتاله غير مرة أو اثنتين، ثم لزم عريسته يدبر داخلهاأموره»[3]، و يفصل لنا صاحب المعجب إحدى هذه الحيل و الغرائب حيث أن المعتضد« قتل رجلا أعمى بمكة كان يدعو عليه بها»[4] لأنه إغتصب ماله بإشبيلية « حتى افتقر، ورحل إلى مكة فلم يزل يدعو على المعتضد بها إلى أن بلغه عنه ذلك، فاستدعى بعض من يريد الحج و ناوله حقا فيه دنانير مطلية بالسم و قال: لا تفتح هذا حتى تدفعه إلى فلان الأعمى بمكة وسلم عليه عني»[5] فلما تسلم الرجل دنانيره« تمكن منه السم فما جاء الليل حتى مات، فاعجب لرجل بقاصية المغرب يعتني بقتل رجل بالحجاز»[6] و المؤكد أن المعتضد شخصية عدوانية عدوانا سيكو باثيا بلغ درجة فضيعة من الدموية، فقد زين حديقته برؤوس أعدائه الذين فتك بهم، فكانت« تطلع كل وقت ثمرا من رؤوسهم المهداة إليه مقرطة الآذان برقاع الأسماء المنوهة بخاملها»[7] و المقزز حقا و المرعب « أن ترتاح نفسه لمعاينتها، و الخلق يضرعون من التماحها»[8] ويكفي أن نقول إنه قتل ابنه - كما مر بنا - وحريمه دون شفقة ولا رحمة، والمعتمد نشأ في لظى هذا الوالد وتحت سطوته؛ إذ « ما انفك يدير عليه الرحى ويقرع إليه كلما قرعت عصا عصا »[9] فلا نشك في أثر السطوة المعتضدية على شخصية ابنه الذي كان يعيش رعبا كبيرا منها، لهذا نجد شعره مع أبيه يفيض بالتضرع والجهد في إظهار الولاء التام، والتودد بمظهر الشخصية الشجاعة الفاتكة مثله، في

1- ابن بسام. الذخيرة.ق2/مج1. ص25.
2- م ن. ص26.
3- م ن. ص ن.
4، 5، 6- المراكشي. المعجب. ص.144
7- ابن بسام. الذخيرة. ق2/مج1. ص.27
8- م ن. ص ن.
9- ابن بسام. الذخيرة. ق2/مج1. ص41.

عملية تماه بالوالد الساحق من ذلك[1]:

مولاي أشكو إليـــــــــك داء أصبح قلبي به قريـــــــــحا

إن لم توجه رضاك عـــــــــني فلست أدري له مريـــــــحا

سخطك قد زادنـــي سقـــــاما فابعث إليّ الرضى مسيـــــحا

ومن أشعاره إلى أبيه[2]:

ألا يا مليكا ظل في الخطب مفزعا ويا واحدا قد فاق ذا الخلق أجمعا

أقلني تـــجد عبدا شكورا وصارما يجز من الأعداء ليثا وأخدعـــــا

ولا تخفي أشعاره أنه وصل إلى حالة من التضعضع مع أبيه حد المرض[3]:

تسخطك الممض أعل نفســـــي ومالي غير عفوك من طبيـــــــب

فإن عاقبتني فجزاء مثلـــــــــي وإن تصفح فليس من الغريـــــب

ولا يخلو البيتان الآتيان من دلالة على صورة المعتضد في خيال الابن فهو يمدحه بقوله[4]:

له يـــد كل جبار يقبلـــــــــــها لولا نداها لقلنا إنـــها الـــحجر

يا ضيغما يقتل الأبطال مفتـــرسا لا تـــهونـــي فإني الناب والظفر

ومهما يكن تخريج ابن دحية[4] امعنى الحجر لطيفا فإن المعنى الحقيقي للحجر يسوغ الأخذ به لأن السياق هو سياق القسوة والحدة.

ولا يقتصر جانب أثر المعتضد في شخصية ابنه على القسوة، وإنما هناك جانب آخر لا يخلو من أهمية،وهو الميل المعلن لإسماعيل.فقد كان المعتضد يؤثره على سائر إخوته،حتى قدمه لولاية العهد على من هم أسن منه[1]

1- المعتمد. الديوان. ص96.
2- م ن. ص97.
3- م ن. ص98.
4- م ن. ص 100. 101.
5- ابن دحية. المطرب من أشعار أهل المغرب. ص16. حيث يفسر هذا البيت قائلا:" يريد الحجر الأسود الذي يجب تقبيله على جميع الطائفين بالمسجد الحرام ... ".
6- ابن بسام. الذخيرة. ق3/مج1. ص138.

و لم يتورع عن تعليل مميزات إسماعيل عن سائر إخوته ـــ ومنهم المعتمد ـــ مما يكشف عن نظرة تهوينية، تقزيمية لهم، فتفضيل الوالد لأحد أبنائه على حساب الآخرين يشكل صدمة وجرحا نفسيا قد يمس الأنا ويهزها خصوصا إذا ما كانت الشخصية ذات قابلية للتهلهل والانطواء. أو شخصية ذات شفافية وحساسية كما هي شخصية المعتمد الفنان.

إنه ومهما يمكن تعليل قسوة المعتضد، وصرامته، بظروف العصر وتقلباته العاصفة التي جعلت القيم والأخلاق، والمعايير السياسية، والتراتبيّات الاجتماعية، قاعا صفصفا لا ترى له أثرا ولا ذكرا، إلا أن الحديث عن أثر هذه القسوة والصرامة في شخصية الأبناء لا ينكر من جهة، ولا ينقص من قيمة المعتضد واختياره لمنهج التعاطي السياسي من جهة أخرى، ذلك أن هذا الأثر السيئ يمكن لمسه وتشخيصه من خلال سلوكات الأبناء وشخصياتهم فالحكم على المعتضد إنما وصل البحث إليه من خلال النتيجة لا من خلال النية.

3- الأم الشاعرة: رأينا أن السلالة التي ينحدر منها المعتمد سلالة ملوكية شاعرة، فالشعر في بني عباد من خصائص تركيبتهم، وشواهد عراقة أرومتهم فجده القاضي أبي القاسم كان ينفث بالأبيات من الشعر، أما المعتضد أبوه فيبدو أنه كان شاعرا اغتال حبه للملك موهبته الشعرية واختطفها، فقد« نظر ... في الأدب قبل ميل الهوى به إلى طلب السلطان، أدنى نظر بأذكى طبع حصل منه لثقوب ذهنه على قطعة وافرة علقها من غير تعهد لها، ولا إمعان في غمارها ولاإكثار من مطالعتها، ولامنافسة في اقتناء صحائفها، أعطته نتيجتها على ذلك ماشاء من تحبير الكلام، وقرض قطع من الشعر ذات طلاوة ... بلغ فيها الارادة، واكتتبها الأدباء للبراعة»[1] بل إن أشعاره تكفل بها ابن أخيه اسماعيل و« جمع شعر عمه في ديوان »[2]، ويبدو أن سطوة الشعر وسحره هي التي جعلت العبادية- التي نرجح أنها أم المعتمد- أحب الجواري من بين « سبعين جارية »[3] خلفها

1- ابن بسام: الذخيرة. ق2/مج1. ص28.29.
2- م ن. ص29.
3- م ن. ص ن.

المعتضد، وجعلها « حرته الحظية لديه الفذة من حلائله »[1] ، فقد « كانت أديبة ظريفة، كاتبة شاعرة ذاكرة لكثير من اللغة »[2] وإذا ما عرفنا أنها بنت مجاهد العامري أمير دانية ذي الأصول السلافية، وصاحب الأذن الموسيقية التي نغصت على الشعراء وأفسدت بضاعتهم لديه إذ كان « أشد الناس في الشعر ... لا يزال يتعقبه ... كلمة كلمة كاشفا لما زاغ فيه من لفظة أو سرقة فلا تسلم على نقده قافية »[3] كما كان صاحب مزاج متقلب، وسيرة مذبذبة حيث « أكثر التخليط في أمره فطورا كان ناسكا، وتارة يعود خليعا فاتكا لايساتر بلهو ولا لذة، ولايستفيق من شراب وبطالة ولا يأنس بشيء من الحقيقة »[4].

إذا عرفنا كل هذا استطعنا أن نتصور مدى الخصوبة العرقية والكثافةالشعرية التي ورثها المعتمد ثرية غنية متنوعة، دست من أعراق متنوعة تنوع ثراء يبين أن الأندلس كانت يومها ملتقى الأجناس.

4- الزوجة الفاتنة:

تزوج المعتمد إعتماد الرميكية، زواجا على سنة الأدب و شريعته، إذ« ركب المعتمد في النهر معه إبن عمار و وزيره،و قد زردت الريح النهر، فقال ابن عباد لابن عمار: أجز: [الرمل] .

صنع الريح من الماء زرد.

فأطال إبن عمار الفكرة فقالت امرأة من الغسالات:

أي درع لقتال لو جمد.

فتعجب ابن عباد من حسن ما أتت به مع عجز إبن عمار، و نظر إليها فإذا هي صورة حسنة فأعجبته........ فتزوجها، و ولدت له أولاد الملوك النجباء. »[5]

1- ابن بسام: الذخيرة. ق2/مج1. ص28.
2- المقري: نفح الطيب. ج5. ص202.
3- ابن عذاري: البيان المغرب. ج3. ص156.
4- م ن. ص ن.
5- المقري: نفح الطيب. ج5. ص138.

و المعتمد حينما يضرب بكل الإعتبارات الطبقية عرض الحائط ليتزوج بغسالة من الغسالات إنما يكشف عن إفتتانه بجمالها الصارخ الذي هون عليه أمر ما كانت عليه، فقد" أفرط في الميل إليها و غلبت عليه»[1] « و كان المعتمد كثيرا ما يأنس بها و يستظرف نوادرها ... و ... كانت مليحة الوجه، حسنة الحديث، حلوة النادرة، كثيرة الفكاهة، لها في كل ذلك نوادر محكية »[2] ، و من شدة كلفه « تلقب بالمعتمد، كلفا بجاريته إعتماد لما ملكها لتتفق حروف لقبه بحروف إسمها لشدة ولوعه بها»[3]

و لاشك في أنها كانت ملهمة له، ملهبة لعواطفه، مثيرة لخياله، مثرة في قراراته، فقد وصل حد سيطرتها عليه أنها كانت سببا في إقدام المعتمد على قتل صديقه الحميم إبن عمار في لحظة سكر إستغلتها بدهاء و« ذكرته الرميكية به و أنشدته هجاءه فيه، وقالت له: قد شاع أنك تعفو عنه، و كيف يكون ذلك بعدما نازعك ملكك، ونال من عرض حرمك؟ و هذا لاتحتملهما الملوك، فثار عند ذلك و قصد البيت الذي هو فيه.... فضربه بطبرزين شق به رأسه، و رجع إلى الرميكية و قال لقد تركته كالهدهد»[4] بل إنه من الواجب أن نقول إنها إحدى صانعات شخصيته الغرائبية، بدلالها و طلباتها الغريبة، فقد« إشتهت ..... أن تمشي في الطين فملأ صحن القصر مسكا و كافورا ورشه بالورد ومشت فيه اعتماد وجواريها ».[5]

5- المكان الساحر: إن أثر البيئة بصفة عامة والمكان بصفة خاصة من الوضوح بحيث لايحتاج إلى تأكيد « فلسنا نعرف من ينكره »[6] فالبيئة تعد إحدى روافد ومغذيات النفس وانفعالاتها و « جماليات البيئة عنصر عامل مهم في حياتنا، فحالتنا المزاجية تعتمد على المكان المحيط بنا »[7] وتؤكد دراسات علم النفس البيئي، أن « الكيفية التي تبدو عليها البيئة الخارجية أو الداخلية التي يحيا فيها الانسان تؤثر في خبراته على نحو مباشر»[8]

1- ابن خلكان. وفيات الأعيان.تحقيق د. إحسان عباس. دار صادر. بيروت. ج4. ص428.

2- المقري. نفح الطيب. ج5. ص193.

3- ابن الخطيب. الاحاطة في أخبار غرناطة. المجلد الثاني. ص108.

4- ابن سعيد الغرناطي. المغرب في حلى المغرب. تحقيق خليل المنصور. دار الكتب العلمية. بيروت. ط1. 1997. ج1. ص310.

5- المعتمد. الديوان. ص169.

6- د. ميشال عاصي. الشعر والبيئة في الأندلس. المكتب التجاري للطباعة والنشر. بيروت. الطبعة الأولى. 1970. ص08.

7- د. شاكر عبد الحميد. التفضيل الجمالي. عالم المعرفة. المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب- الكويت. رقم 267. 2001. ص380.

8- م ن. ص381

وتذهب هذه الدراسات إلى ضرورة الاهتمام بالجاليات البيئية « لفهم التأثيرات الخاصة بالبيئة في التفكير والوجدان (الانفعالات) والسلوك »[1] وعليه لابد لنا من الاقتراب من بيئة اشبيلية حتى نتصور مدى أثرها في تغذية خيال المعتمد ومزاجه ونفسيته.

إن أقل ما يقال عن إشبيلية هي أنها مدينة ساحرة. فهي « من أحسن مدن الدنيا، وبأهلها يضرب المثل في الخلاعة وانتهاز فرصة الزمان الساعة بعد الساعة »[2]، وقد عرفت ب « حسن المباني وتزيين الخارج والداخل وتمكن التمصر حتى أن العامة تقول: لو طلب لبن الطير في إشبيلية وجد »[3]

أما « نهرها الأعظم الذي يصعد المد فيه اثنين وسبعين ميلا ثم يحسر»[4] فقد كان آية في الجمال إذ فاق كل الأنهار « كون ضفتيه مطرزتين بالمنارة والبساتين والكروم والأنسام متصل ذلك اتصالا لايوجد على غيره »[5] فصار « لايخلو من مسرة، وأن جميع أدوات الطرب وشرب الخمر فيه، غير منكر لاناه عن ذلك ولا منتقد، ما لم يؤد السكر إلى شر وعربدة »[6] والسكر في إشبيلية قد يكون بلبن تتغذى أعنازه على نوع من الخروب يخرج لبنا سائغا للشاربين. وقد طبعت البيئة الإشبيلية إنسانها بطابعها المحفز على اللهو فخرج الإنسان الإشبيلي « أخف الناس أرواحا وأطبعهم نوادر، وأحملهم لمزاح بأقبح ما يكون من السب. قد مرنوا على ذلك ، فصار لهم ديدنا حتى صار عندهم من لا يـــبتذل فيه ولا يتلاعن ممقوتا ثقيلا»[7] .

ويكفي أن نقول إن عبد العزيز بن موسى بن نصير، انكسر حماسه الديني وانطفأت جذوة شوقه للجهاد حينما دخل إشبيلية إذ تزوج أم عاصم زوجة لذريق و« سكن بها في كنيسة إشبيلية »[8] حتى قتل متهما بالمروق والافتتان بالجمال على حساب الدين والواجب

1- د. شاكر عبد الحميد. التفضيل الجمالي. ص381.
2- المقري. نفح الطيب. ج1. ص139.
3- م ن. ج4. ص47.
4، 5- م ن. ص ن.
6- م ن. ص48.
7- المقري. نفح الطيب. ج4. ص48.
8- المقري: نفح الطيب. ج1. ص224.

6- الصديق المغامر: كان توطد العلاقة بين المعتمد وابن عمار في شلب حينما تولاها المعتمد من قبل أبيه سنة 445هـ منعطفا كبيرا في حياتهما معا؛ فابن عمار الطالع من قرية خاملة وأسرة مغمورة[1] وجد نفسه قريبا من دفء الإمارة، وعسلها، والمعتمد المتحرر من سطوة أبيه وجد نفسه وهو الفتى المراهق - في ظل صديق مغامر ساحر إن طلب عنده الشعر وجده "شاعرا لا يجارى، وساحرا لا يبارى، إذا مدح استنزل العصم وإن هجا أسمع الصم، وإن تغزل، ولا سيما في المعذرين من الغلمان أسمع سحرا لا يعرفه البيان"[2]، وإن أسند إليه إدارة شيء "أضطلع به وكان فيه كالسكة المحماة"[3] فقد "مكن في دهره من تدبير الإقليم وانبسطت بنانه في التأخير والتقديم"[4]، وإن طلب عنده أنسا وقصفا وجده "زير قيان وغلمان، وصريع راح وريحان، أمله –زعموا- كان بين شرب كاس، وشم آس، وجذله في نصب حبالة، لغزال أو غزالة"[5] فاعتلق به اعتلاق الصغير يجد كبيرا يأخذ بيده، والنديم يبحث عمن ينادمه، والمُعَنّى بمخاض الإبداع ينتظر من يفجر طلقه وشرارة إبداعه، وتطور الاعتلاق إلى التعلق فلم يعد المعتمد "يستغني عنه ساعة من ليل ولا نهار"[6]، "وصار ابن عمار ألزق بالمعتمد من شعرات قصه، وأدنى إليه من حبل وريده"[7] "حتى كان يشاركه فيما لا يشارك فيه الرجل أخاه ولا أباه"[8] ويبدو أن ابن عمار قد أدرك حاجة المعتمد إلى سند عاطفي يقاسمه اهتمامه ويستوعب خصائص شخصيته الواهنة -في هذه المرحلة- بفعل قسوة أبيه وميله إلى أخيه اسماعيل، فتلقف ابن عمار فرصته مستغلا فارق السن إذ يكبره بعشر سنوات فهو من مواليد(422-1031/477-1085)[9]، فكان بمثابة "الجماعة السيكولوجية"[10]

1- محمد عبد الله عنان: تراجم اسلامية. مكتبة الخانجي. القاهرة. ط2. 1970. ص282.
2- ابن بسام: الذخيرة ق2/مج1. ص369.
3- المراكشي: المعجب. ص176.
4- ابن بسام: الذخيرة: ق2/مج1. ص373.
5- م ن. ص ن.
6- المراكشي: المعجب. ص174.
7- م ن. ص ن.
8- م ن. ص ن.
9- محمد عبد الله عنان: تراجم اسلامية. ص282.
10-عبد الحليم محمود السعيد: الإبداع والشخصية. دار المعارف. مصر. 1971. ص74.

المثمنة لشخصيته وسلوكه وإبداعه. غير أن هذه العلاقة قد تجاوزت حدودها الأولى لتتحول إلى حديث مشبوه تلوكه ألسنة الناس إذ"ساءت السمعة عنهما"[1]، ولئن عمل المعتضد على التفريق بينهما، فإن تعلق المعتمد بابن عمار لم يمته الفراق، فعاود الإتصال به بمجرد تسلمه الحكم والحق أن هذه العلاقة لم تكن قائمة على أسس صحيحة ولا متكافئة، فابن عمار بخصائص شخصيته الساحرة والخصبة والمتعددة المواهب استطاع أن يجذب المعتمد إليه ويبهره، لكنه لم يكن يوما ما يشعر بصدقها؛ فوضاعة أصله ظلت تكبل ثقته بنفسه وبالناس، مما جعله عاجزا عن بناء علاقة صحيحة والحفاظ عليها، فانكب على أناه، يلبي كل رغباتها ونزواتها، انكباب غير المصدق بما هو فيه خوفا من سرعة انقلاب الزمان والناس عليه، مبادرا -تحت ضغط هذا الشعور- إلى الإنقلاب على كل من يحسن إليه، أما المعتمد فكان صادقا في حبه لابن عمار بل إن حبه صار مرضيا حينما وجد نفسه غير قادر على فراقه إلى حد أنه أقاله - في مرحلة الملك- من ولاية شلب بعدما " اشتد شوق المعتمد إليه وضعف عن احتمال الصبر عنه فاستدعاه... واستوزره"[2]، فاجتمع بين هذا التباين والتناقض من المؤهلات ما خلف علاقة غريبة وشخصية تعد هي الأخرى من العوامل المؤثرة في شخصية المعتمد تأثيرا بالغا، ستحاول الدراسة التطبيقية كشف أبعادها النفسية.

- أهمية هذه العوامل ودورها في بناء شخصية المعتمد

تضافرت على إخراج شخصية المعتمد مجموعة من العوامل الإيجابية والسلبية؛ من سلالة نبيلة، وأم شاعرة، وطبيعة ساحرة، وزمان قاهر، ووالد ساحق، وصديق متلون مغامر، وهي عوامل كفيلة بإخراج شخصية متناقضة، تعيش تجاذبا وجدانيا عنيفا جعلها تأتي بالعجائب والغرائب، فكانت عند غلبة العوامل الإيجابية عليها تأتي بالأمجاد، وتطبع العصر بطابع البطولات، لكنها عند غلبة العوامل السلبية عليها وسيطرة نوازع النفس الغريبة تسم نفسها وعصرها بميسم الفرادة الشاذة، والتميز المغالي في الإختلاف؛ وقد زادت فاجعة النهاية

1- المراكشي: المعجب. ص174.

2- م ن. ص176.

المأسوية في عبق هذه الشخصية حيث أبدعت فضاء شعريا ملونا بلون المأساة، والحس المعذب، فعلت أصوات الأنين والألم والحزن والحسرة لتصنع من كل هذا صورة بطل أحب الحياة بمباهجها فأعطته كل ما أراد، ثم انقلبت عليه فانتزعت منه كل ما أعطته وبعدها انتحت جانبا تسمع وتسمع نحيبه وترجيعه، ولئن كان هذا الشعر في هذه المرحلة مؤثرا في بعده الإنساني، فإنه في بعده الإبداعي قد رمى بإشارة التحدي لكل من يحاول لعق الصبر طلبا للخلود والمجد.

من خلال استعراضنا لحياة المعتمد وعصره ومملكته التي نشأ فيها نستطيع أن نلاحظ أن شخصيته لم تكن شخصية عادية، ولا سوية، فهي تتفرد بسلوكات ومواقف غريبة تستعصي على القياس بمعايير وضوابط الواقع والمنطق والعقل، ولا تتكيف مع روح المترلة التي احتلها، والمكانة التي تبوأها، وهي وإن ندت عن المعايير فإنها لم تغرق في الشذوذ المرضي أو الجنون العقلي بل إنها ظلت تحتفظ بهامش المقاربة لمن يريد أن يستكنه غور صاحبها أو يسبر أعماقه البعيدة.

بل لا أبالغ إن قلت إنها ظلت تحتفظ بعلامات البراءة الطفولية والغواية الأدبية التي تتخصب بنداها أغرب مواقف المبدعين، وتتقنن بفحواها أبعد السلوكات عن الاستقامة، فلا عجب إن قلنا إن كثيرا من المواقف والأفعال تستحق أن تقاس بمعايير العالم المنشود المبدع. لا بمعايير واقع الناس الثابت.

والواقع أن ثراء حياة أي مبدع متوقفة على فعالية حراكه لتحقيق ذلك العالم المنشود؛ إنه بقدر ابتعاده عن الراهن المألوف يقترب من الغرابة والعجائبية، وهو إذ يقترب يشذ وينأى، فمن نظر إلى عالمه هذا وتفهمه استوعب كل أفعاله ورأى أنها منجزات، ومن لم ينظر إلى ذلك العالم زلت به قدمه، وانسد أمامه أفق التأويل، فلن يجد أمامه إلا المحاكمة والإدانة بمعايير الواقع.

وأمام هذه الشخصية الأندلسية التي عاشت حياتها بخيال المبدع، وأرادت لعالمها المنشود أن يتدافع مع واقعها المألوف، لا يمكن الاقتراب منها إلا بمنهج التحليل النفسي – كما ذكرنا - لأننا نراه الأقدر على استيعاب جوانب ثرائها وغرائبيتها وتفردها وعليه نبدأ ببيان العلاقة بين الأدب وعلم النفس، ثم نتحدث عن النقد النفساني وأسسه وخصائصه، ثم نعرف أهم عقدة ميزت المرحلة الأولى من حياة المعتمد وهي عقدة " الخصاء وهوامه " مع محاولة تحديد بداية تشكل هذه العقدة ليس عند المعتمد وإنما عند عصر بأكمله، وبعدها نتعرف إلى " نظرية الدور " لألبورت" " G.WALLPORT " التي نرى أنها كفيلة بتفسير الكثير من التجاذبات في حياة المعتمد، وأنها قادرة على تقريب حقيقة اصطراع الواقع والخيال في مواقفه وسلوكاته.

العلاقة بين الأدب وعلم النفس

الأدب مرآة تنجلي عليها مشاعر الأديب، والنص صورة نفسية لمبدعه... في ساحة النص الأدبي تركد الرغبات المقموعة التي تأبى الاندثار، وتصر على تكبيل شخصية صاحبها في الخفاء، وفي تربة هذه الساحة يمكن أن نسمع حسيس المشاعر المخنوقة ونلتقط هويتها الجديدة بفعل القمع حيث غدت عقدا وحصارات وهجاسات ورهابات عالقة بألفاظ وصور ورموز النص الأدبي الذي يعطيها بعض التحرر ويرويها بعض الإرواء فتنتفض متفلتة والمبدع إذ يعطيها بعض التحرر ويرويها إنما يردعها بالكتابة تهذيبا وتثقيفا وتلطيفا كي ترضى عليها سلطات القيم الاجتماعية والثقافية المتربصة والمُتَتَرِّسة بالأنا الأعلى، فما يخرج النص للعلن إلا وهو نفثة مصدور.

إلا أنه حين خروجه إلى العراء يهرِّب ما استطاع من ذخائر الأعماق اللاشعورية للمبدع، وكأنه ينتقم منه بتعرية نفسه وتشريحها دون أن يرقب فيه إلا ولا ذمة ولا يكون أمام المبدع حينها إلا الإقرار والإذعان، وكيف التملص؟ والكلمات والصور تكشف أعز ما حرص على إخفائه، بل إنها لتحصي ما نساه فيجده أمامه محضرا؟ وقد أدرك القدماء هذا فقالوا " لا يزال المرء في فسحة من أمره ما لم يقل شعرا أو يألف كتابا "[1] فإن " ألف فقد استهدف "[2] في هذا الإطار يمكن أن تتضح صورة العلاقة الوثيقة بين الأدب وعلم النفس.

فالأدب هو حديث النفس وبوحها والثاني (علم النفس) هو دارسها وسابر أغوارها. وبفهم هذه العلاقة ندرك سر لجوء علم النفس في بدايته الأولى إلى الأدب إذ لم يجد ملاذا إلا في الإبداع حيث وجد ضالته فيه. وكان بمثابة المنهل المتدفق بخصائص النفس، وتقلبات أهوائها واستبداد رغباتها حتى ليمكن التأكيد على أن " الشعراء هم علماء النفس الأوائل الذين سلموا لمن جاء بعدهم من علماء العصور الحديثة اكتشاف أقانيم النفس الإنسانية المعتمة "[3] ففرويد -أبو علم النفس- يؤكد أن " الشعراء والفلاسفة هم الذين اكتشفوا

1- شرح مقامات الحريري. مكتبة ومطبعة المشهد الحسيني. القاهرة. (دون ذكر اسم المؤلف ولا تاريخ الطبعة) ص 05.
2- د. عبد الله محمد الغدامي. الكتابة ضد الكتابة. دار الآداب. بيروت. ط$_1$ 1991 ص 07.
3- د. خريستو نجم: في النقد الأدبي والتحليل النفسي. دار الجيل. بيروت. ط$_1$ 1991 ص 29.

اللاشعور من قبلي أما أنا فقد أنشأت المنهج العلمي الكفيل بدراسته"[1] بل إنه لما اطلع على روايات دوستويفسكي علق قائلا: " لو أتيح لي الاطلاع المبكر على كتابات دوستويفسكي لكنت تخليت عن بعض مواضيع كتاباتي لأن دوستويفسكي سبقني إلى ذلك "[2]، ومن هنا لم يتردد في وصف الأدباء" بالعارفين الضليعين بالنفس الانسانية الذين اعتدنا تكريمهم باسم الشعراء"[3] ولا يعني كلامنا هذا أن الأدب هو علم النفس، أو أن علم النفس هو الأدب فمما هو معلوم أن هامش تحرك الأدب هو ضباب النفس وعتمتها وحينما يتحرك الأدب في هذا الهامش المعتم يتبع العلم خطواته لإنارتها، فلولا خطوات الأدب ولولا هذا الهامش لظل علم النفس يبحث عن مسارب وكوات يخترق من خلالها الحجب.

إن الأديب - حين تحركه في هامشه - يكون كالنحلة تنتج عسلها بمقتضى طبيعتها العسلية، لكنها لا تفكر البتة في مكونات منتوجها الذي يتلقفه الصيادلة والعلماء من الأطباء ليخرجوا منه ما هو شفاء للعالمين، فالأدب يمكن أن يكون " مجال معرفة " [لكن]... ليس هو بالضرورة عند الكاتب... إن المحلل النفسي هو الذي يحول إلى علم معرفة الشاعر السبقية... "[4]. فالأديب مستمع جيد لأصوات النفس، أما عالم النفس فمراقب يقظ لمصدر هذه الأصوات ودلالتها.

وقد كانت هذه القدرة السمعية لدى الأديب سندا قويا لعلم النفس، ووجهة ولى فرويد وجهه شطرها لــ " يتقدم بأدلة جديدة على صحة نظريته "[5] حيث وجد الآثار الأدبية قد سبقته بظلالها وإيحاءاتها النفسية، فاتخذها حجة " وشهادة ثمينة ينتفي فيها كل تواطؤ مسبق "[6] مع نظريته، ولهذا عد الأدب في هذه المرحلة

1- جان ستاروبنسكي. النقد والأدب. ترجمة د. بدر القاسم. منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي. دمشق. 1976. ص 250.

2- د. خريستونجم. التحليل النفسي للأدب. مجلة الثقافة النفسية. المجلد الأول. العدد. 04. تشرين الأول. 1990. ص 82.

3- د. خريستونجم. في النقد الأدبي والتحليل النفسي. ص 29 نقله عن فرويد: Freud. S. délivre et rêve dans la gradiva de Jensen

4- جان لوي كابانس. النقد الأدبي والعلوم الإنسانية. ترجمة د. فهد عكام. دار الفكر. ط1. 1982. ص 30.

5- جان ستاروبنسكي. النقد والأدب. ص 241.

6- م ن. ص 242.

"... - ولو على نطاق ضيق - أحد أركان التحليل النفسي "[1] وتعد هذه المرحلة أجلى صورة للعلاقة المتينة - والشفافة في آن - بين الأدب وعلم النفس، وهي علاقة عبر عنها " أحد علماء النفس قائلا: إن لعلم النفس ماض طويل وتاريخ قصير "[2] فعلم النفس موجود بالقوة في الأدب حتى جاء فرويد ليجعله موجودا بالفعل.

ويمكن أن نحدد طبيعة العلاقة بين الأدب وعلم النفس بالعلاقة الترافدية التكاملية لأنهما " يرفد بعضهما بعضا ويكمل أحدهما الآخر "[3].

النقد النفساني

إذا كان علم النفس قد اتخذ الأدب أداة لإثبات صحة نظرياته، فإن النقد الأدبي حينما رأى هذا العلم يثبت خطواته في ميدان العلوم، ويوسع مجالات تطبيقاته إلى فضاءات الثقافة والاجتماع والحضارة والدين... إلخ لم يتوان في اتخاذه أداة نقدية يستعين بها على مواجهة غمار الأدب والإبداع - وهذا في سياق الانبهار بالاكتشافات العلمية ومنجزاتها، وما صاحبها من زخم علمنة الانسانيات - والحق أن علم النفس " حين يغدو أداة من أدوات النقد إنما يرد إلى الأدب أمانته ولن يكون دخيلا عليه (كما قيل أحيانا) "[4]، وكيف يكون دخيلا عليه وهو ما هو من متانة العلاقة، ووجود بالقوة؟ في شكل نظرات نفسية وظفها النقد منذ القدم؛ فأرسطو طاليس يعد " المصدر الأول لعلم النفس والنقد النفسي للأدب "[5] من خلال نظرية التطهير، وما تركه من المؤلفات الفلسفية. والنظرات النقدية ذات المسحة النفسية التي لم يخل منها نقد - فيما يبدو- لأن عالم الأدب يستمد وجوده ومادته من النفس؛ فقد عرف نقدنا القديم مثل هذه النظرات حيث ظهرت

1- جان ستاروبنسكي. النقد والأدب . ص 234.

2- د. خير الله عصار. مقدمة لعلم النفس الأدبي. ديوان المطبوعات الجامعية. 1982. ص 11.

3- د. خريستونجم. التحليل النفسي للأدب. الثقافة النفيسة. المجلد الأول. العدد 04. تشرين الأول 1990. ص 81.

4- جان ستاروبنسكي. النقد والأدب. ص 234.

5- ستانلي هايمن. النقد الأدبي ومدارسه الحديثة. ترجمة د. إحسان عباس ود. يوسف نجم. دار الثقافة. بيروت.1981. ج 1. ص 259.

"... أحكام نقدية ذات أبعاد سيكولوجية "[1] فتفسير ابن قتيبة لبناء القصيدة العربية القديمة بدءا بالمقدمة الطللية حتى تخلص الشاعر إلى المدح تفسير نفسي و" ما ابتدعه الشعراء العرب على عهد الجاهلية الأولى بإيناس النفس وإيلافها بالنسيب بامرأة من النساء والخوض في قصة غرام معها ألم يكن ذلك ضربا من السلوك النفسي الذي يتحدث عنه لدى شكسبير "[2] ومعلوم أن سلوك الشعراء الجاهليين إنما جاء موجها بنظرة نقدية نفسية - عادة ما يكونون هم أصحابها فالشاعر يومئذ ناقد لا ترد أحكامه.

غير أن هذه النظرات ومهما جد الباحث في إحصائها، ومهما تكن " الخطوة العظمى في النقد النفسي... [التي] حققها كولوردج في السيرة الأدبية "[3] فإنها لا تتعدى سقف النظرة الانطباعية التأملية، ولا يمكن - البتة - اعتبارها نابعة من رؤية منهجية متكاملة الأدوات والإجراءات.

وإن البداية المنهجية للنقد النفسي أو النقد المعتمد على نظريات التحليل النفسي إنما كانت "... حين نشر فرويد كتابه تفسير الأحلام سنة 1900 "[4] وعليه يعد فرويد أول من أخضع الأدب للتفسير النفسي "[5] غير أن هذه البداية لم تكن خالصة لوجه النقد الأدبي لأن غرضها -يومئذ- هو البحث عما يعزز صحة النظرية الفرويدية، مما جعل هذه المحاولات تصنف ضمن الآثار النقدية التي " حبرت بفكر طبي محض "[6] لأنها نتاج طبيب أو مجموعة من الأطباء.

أما النقد النفساني الذي جاء يقلم ناقد لا طبيب فإنه بدأ على يد الناقد الفرنسي " شارل مورون " " فهو أول من ابتكر هذا المصطلح سنة " 1948 " [7] بعد عشر سنوات من أعماله على ما لا رميه "[8] ومهما كانت قيمة

1- د. محمد بلوحي. الشعر الجاهلي في ضوء القراءات العربية الحديثة (رسالة دكتوراه. مخطوط). قسم اللغة العربية. جامعة وهران. 2000- 2001. ص 148.

2- د. عبد المالك مرتاض. في نظرية النقد. دار هومة. 2002. ص 148.

3- ستانلي هايمن. النقد الأدبي ومدارسه الحديثة. ج1. ص 260.

4- م ن. ص 261.

5- أحمد حيدوش. الاتجاه النفسي في النقد العربي الحديث. ديوان المطبوعات الجامعية. الجزائر (د.ط). ص 14.

6- جان لوي كابانس. النقد الأدبي والعلوم الإنسانية. ص 22. نقلا عن شارل مورون.

7- Gérard Gengembre: Les grands courants de la critique littéraire. Edition. Le seuil.1996. P 17 -8

المحاولة التي قدمها شارل بودوان قبل هذا التاريخ حيث يمكننا " أن نجد الأصول الأولى لهذه المقاربة في أعمال [ـــه]... تحليل نفسي للفن 1929 "[1] فإن شارل مورون استطاع أن يقدم منهجية واضحة " انطلاقا من مفهوم أن العمل (الأدبي) نظام من الرموز "[2] فجاءت هذه المنهجية " متجانسة مع التحليل (النفسي) التطبيقي... تعطي الأولوية للنظرة النقدية لا النظرة الاكلينيكية "[3] وما يلاحظ ويثمن رؤية مورن النقدية هذه أنه كان واعيا بالفروق المميزة للمحلل النفساني ذي الرؤية النقدية الذي " لا يشخص مرضا ولا يتكهن بمآل مريض "[4]. ثم يحدد وظيفته بوضوح ويحصرها في " إحكام الصلة بين علم وفن "[5] ويحذره من الإخفاق . وفي حالة " إذا ما أضاع الاتصال بأحدهما "[6] عليه أن يظل " سهمه متجها دائما نحو الفن "[7]

أسس وخصائص النقد النفساني

إن الميدان التطبيقي لمنهج النقد النفساني أو " التحليل النفسي للأدب لا يختلف عن التحليل النفسي في إطاره العام "[8] لأن النقد النفساني ينطلق من قواعد التحليل النفسي مستثمرا تقنياته لمواجهة المنتج الأدبي واستدراجه لكشف منتجه. والأساس الأول للنقد النفساني هو أحد مستويات التحليل النفسي ويتمثل " في تبيان المعنى اللاواعي لكلام وأفعال شخص ما، وكذلك معنى إنتاجه الخيالي لكلام وأفعال شخص ما، وكذلك معنى إنتاجه الخيالي (من أحلام وهوامات، وهذيانات)... وقد يمتد التأويل التحليلي النفسي ليشمل إنتاجات إنسانية... "[9]، فاللاواعي وما بداخله هو هدف الناقد، واكتشافه برموزه هو مناط نجاحه، لأنه يمثل العمق، الذي هو مكمن الوجه الحقيقي لشخصية المبدع، ومكمن المؤثرات الخفية في السلوك الظاهر، دون إهمال المؤثرات الأخرى التي تعد أيضا أسسا يرتكز عليها النقد فهي من " المبادئ الأساسية التي قام عليها التحليل

1، 2، 3- Gerard Gengembre: Les grands courants de la critique littéraire. Edition. Le euil.1996. P 17

4، 5، 6، 7- جان لوي كابانس النقد الأدبي والعلوم الإنسانية. ص 51 نقلا عن شارل مورون.

8- د. حريستونجم. التحليل النفسي للأدب. مجلة الثقافة النفسية. العدد. 04. المجلد الأول. تشرين الأول. 1990. ص 75.

9- جان لابلانش و ج.ب. بونتاليس. معجم مصطلحات التحليل النفسي. ترجمة د. مصطفى حجازي. ديوان المطبوعات الجامعية. الجزائر. ص 165.

النفسي ومنها: ...، الطاقة النفسية الليبيدية الطفلية، النزوات المتسلطة، والتكثيف والنقلة والترميز..."[1] ويتضح عند تأمل هذه الأسس أن ربط الأثر الأدبي بصاحبه يعد من أهم خصائص ومميزات النقد النفساني القابلة للأخذ والرد خصوصا " مع ظهور أهمية القارئ وانحسار دور المؤلف... ومع نظرية الاستقبال واستجابة القارئ "[2] غير أننا نؤكد أنه ومهما يكن دور القارئ فإن " العمل الأدبي - مهما كان موضوعيا - فإنه يحمل بذور شخصية صاحبه فالمسافة بين الكاتب وعمله قصيرة جدا "[3] وترتبط بهذه الميزة ميزة أخرى وهي إهمال النقد النفساني للجانب الفني الجمالي لأنه ليس من طموحه أن يحكم على أثر ما بالجمال أو القبح بالعظمة أو التسفل فالتحليل النفسي للأدب " قد لا يكون شاملا، إلا أنه منهج التلقي الأفضل بالنسبة إلى الأدب " فهو قادر على تحسين أسلوب الاستماع البديهي لكل نقد أدبي أو إعادة أسلوب (هذا الاستماع)"[4] إن فائدة النقد النفساني تكمن في " توثيق العروة مع النص، ومع العقل الباطن، وكأنه يزمع أن يحل ليس فقط عصابا فرديا، بل عصاب النقد الجاهد لفهم الأدب "[5].

والنقد النفساني " ليس مجموعة جاهزة من القواعد "[6] يكتفي الناقد بالتفنن في تركيبها وتطبيقها فمثل هذا التصور يبدو " في غير محله، فأي تطبيق لمنهج التحليل النفسي هو إعادة اختراع وبالتالي تطوير له وإخصاب وكل تطبيق يكتفي أن يكون تطبيقا يحكم على نفسه سلفا بالعقم... فالتحليل النفسي عملية بناء مستمرة، وقد لا يتعدى حظ البناء الواحد لبنة واحدة "[7] قد يوحي هذا الكلام بحرية منهجية إلا أنها حرية محكومة بضابط التطوير والإخصاب والإسهام في البناء، مما يفرض على صاحبه أن يكون ذا قدرة على الإبتكار ومن هذه الزاوية يمكن لهذا المنهج أن يتخلى عن صرامته العلمية الموضوعية ليغدو" هو أيضا فنا ذاتيا "[8] ومن مميزات

1- كتابات معاصرة. المجلد السابع. العدد 25 (أيلول- تشرين الأول 1995). ص 93.

2- د. ميجان الرويلي ود. سعد البازعي. دليل الناقد الأدبي. المركز الثقافي العربي الدار البيضاء. ط2. 2000. ص 288.

3- د. خريستونجم. النرجسية في أدب نزار قباني. دار الرائد العربي. بيروت. ط1. 1983. ص 11.

4- د. بيار خباز. محمود تيمور وعالم الرواية في مصر. دار المشرق. بيروت. ط1. 1994. ص 37. والكلام بين قويسين نقله عن: André Green. Un œil en trop.

5- م ن. ص 38، 39.

6- 7- 8- جورج طرابيشي. المثقفون العرب والتراث. التحليل النفسي لعصاب جماعي. رياض الريس للكتب والنشر. المملكة المتحدة. ط1. 1991. ص 109.

هذا المنهج: الانتقائية والأخذ من كل مدرسة بفكرة ورؤية. فـ " الناقد الجيد هو الذي يكون في جيبه عدة مفاتيح يستطيع أن يختار منها المفتاح الملائم ليفتح كل أثر أدبي على حدى "[1] بل إننا نحسب أنه ليس من الضروري أن يكون الناقد ملزما باختيار مفتاح أدبي واحد فقط لفتح الأثر الأدبي، لأن استكشاف شخصية المبدع -من خلال أثره- تفرض على الناقد أن يساير طبيعتها الديناميكية غير الثابتة والمتفاعلة بين مجموعة من العوامل والمؤثرات، مما يحتم توظيف عدة مفاتيح ولعل طبيعة الشخصية هذه هي التي دفعت الدكتور نجم ليقول إن منهجيته في هذا المجال " لا تقتصر على مدرسة نفسية معينة..."[2] معترفا بأن منهجه " منهج انتقائي يقبل من الفرويديين وغير الفرويديين... "[3]، وعليه فليس عيبا أن نرى الفنان يداوي إحباطه ويتسامى بغرائزه المقموعة فيكون فنه تعويضا في لحظة ما أو مرحلة ما، ثم لا نلبث أن نجده عصابيا يبحث عن إثبات الذات وتأكيدها فيحسب نصه شكلا من أشكال الاحتجاج الرجولي الذي يتغذى من عقدة نقص معنيه أو قد نجده مبدعا فاقدا لتوازنه النفسي يبدع نصه من منطلق نرجسي ثم يتماهى به مستعيدا توازنه.

إن هذه الانتقائية - تهدف - إلى نوع من الإحاطة واستقصاء كل ما يسهم في سبر غور الشخصية المبدعة، حتى ليمكن أن نقول إنها انتقائية تؤول إلى منهج نفسي تكاملي.

عقدة الخصاء

- قبل تعريف "عقدة الخصاء" يستحسن أن أعرف " عقدة " لأن العقدة تعد من أكثر مصطلحات علم النفس استعمالا وتداولا بين الناس، وعادة ما تكون المصطلحات الشائعة عرضة للإفراغ من محتواها، وللاعتداء على محتويات غيرها من المصطلحات وهذا ما حدث لمصطلح عقدة، ففرويد يرى - بخصوصها - أنه " ... لم يكتسب أي من المصطلحات الأخرى التي وضعها التحليل النفسي لخدمة حاجته الخاصة، شعبية بنفس اتساع شعبيتها(أي العقدة)، ولا كان أسوأ تطبيقا منها على حساب مفاهيم أخرى أكثر دقة "[4]، واجتنابا لهذا

1- جهاد فاضل. أسئلة النقد. الدار العربية للكتاب. (د. ط). ص .96

2- 3- د.خريستو نجم. النرجسية في أدب نزار قباني. ص .12

4- نقلا عن. ج لابلانش- وجـــ.ب بونتاليس- معجم مصطلحات التحليل النفسي. ترجمة د. مصطفى حجازي. ديوان المطبوعات الجامعية. الجزائر، ط1. 1985 ص353.

التوظيف المشوه، ورغبة في أن يكون البحث الجاد ميدان ضبط ودقة أقدم هذه التعريفات.

تعريف العقدة:

- يعرفها معجم مصطلحات التحليل النفسي بـــ " أنها جملة منظمة من التصورات والذكريات ذات القيمة العاطفية القوية، اللاواعية جزئيا أو كليا"[1]

- ويعرفها معجم علم النفس -لاروس- بأنها: " مجموع الميول اللاواعية التي تحدد اتجاهات فرد، هيئته، أحلامه... إلخ "[2]

- يعرفها كتاب " العقد النفسية " الصادر ضمن سلسلة Que Sais -je بـــ "أنها ذكريات من الماضي، وامتثالات لا شعورية مشحونة من الناحية الانفعالية، وضروب من " الانفعالات المتخثرة " التي يحتمل أن تنمو نموا مستقلا عن الأنا الشعورية، وتثير الاضطرابات على نحو معين في ردود الفعل على الوضع الحالي"[3].

- يعرفها معجم علم النفس للدكتور فاخر عاقل بأنها: " فريق من الأفكار ذات المسحة الانفعالية، ولها فعاليات لا شعورية بمعنى أنها مكبوتة جزئيا أو كليا "[4].

من خلال هذه التعريفات نخرج بالاستخلاصات التالية:

أ- العقدة قوة انفعالية مؤثرة في سلوك الفرد.

ب- تأثير العقدة في سلوك الفرد لا شعوري " حيث يبدو التصرف عندها وقد تشكل بفعل بنية كامنة لا تتغير "[5] فهي محرك خفي يجعل السلوك رد فعل مهما كانت درجة وعي صاحبه ويقينه بأنه متحكم في أبعاد سلوكاته.

1- ج لابلانش-وج.ب بونتاليس- معجم مصطلحات التحليل النفسي. ترجمة د. مصطفى حجازي. ديوان المطبوعات الجامعية. الجزائر، ط$_1$ 1985. ص 353.

2- Norbert Sillamy: Dictionnaire de la psychologie, La rousse 1996, p. 60.

3- روجر موشيلي. العقد النفسية. ترجمة وجيه أسعد، دار البشائر. سوريا. ط$_2$ 1991. ص 14.

4- د. فاخر عاقل. معجم علم النفس. دار العلم للملايين. ط$_3$، 1979. ص 26.

5- ج لابلانش-وج.ب بونتاليس. معجم مصطلحات التحليل النفسي. م. س. ص 354.

ج-العقدة ذات منشأ ماضوي مستمد "... من حدث يسبب الصدمة أو الخوف... في فترة من فترات تاريخ الفرد "[1].

د – سلوك الفرد المعقد هو " رد فعل مرضي إجمالي، نفسي جسمي وغير شعوري بصورة واضحة ولا يمكن صنعه "[2].

عقدة الخصاء:"الخصاء لغة هو سل الخصيتين ونزعهما. وقد يستعمل للدلالة أيضا على استئصال القضيب..."[3].

و هذا المعنى ليس من شأن هذا البحث ولا من اهتماماته التي يطمح إلى الإجابة والمناقشة في قضاياها.

إن اهتمام هذا البحث ينصب حول "هوام الخصاء " المتعدد الصور والأشكال التي يكشف عنها تحليل المخاوف الواقعية والخيالية المنغصة لحياة الراشد أو يكشف عنها بمقاربات تدرس وتتبع تمويهات العقد عبر " رموز متنوعة حيث يمكن إزاحة الموضوع المهدد (إصابة أو ديب بالعمى) أو اقتلاع الأسنان، الخ... "[4].

إن مكمن الهوامات هو المتخيل لأنها " سيناريو خيالي يكون الشخص حاضرا فيه "[5] بغرض " تحقيق رغبة ما، وتكون هذه الرغبة لاواعية في نهاية المطاف "[6] ولما كانت مادة تحقيق هذا السيناريو هي " التحوير " باعتباره يتم " بطريقة تتفاوت في درجة تحويرها بفعل العمليات الدفاعية "[7] فإن مفهوم عقدة الخصاء في هذه الرسالة هو: "... فقدان القضيب في مستوى المتخيل إذا ما اضطرب الرمزي، ومن ثم يضطرب إدراك الواقع "[8] وعليه فإن "... دلالة الخصاء هنا دلالة مجازية أو استعارية لواقع نفسي امتنع عليه النشاط الجنسي إذ أن الموقف المعاش إنما هو موقف داخلي يرتبط بعقدة الخصاء "[9]؛ ذلك أن " كل ضعف حياتي، كل فشل وجودي يعاش على المستوى اللاواعي كخصاء " [10]

1- روجر موشيلي. العقدة النفسية. ص 13.
2- م ن. ص 15.
3- د. حسين عبد القادر ود. محمد أحمد النابلسي. التحليل النفسي. ماضيه ومستقبله. دار الفكر دمشق. ط1. 2002. ص 641.
4- جان لابلانش وج. ب. بونتاليس. معجم مصطلحات التحليل النفسي. ص 361.
5- 6- 7- ن م. ص 573.
8- 9- د. حسين عبد القادر ود. محمد أحمد النابلسي. التحليل النفسي. ماضيه ومستقبله. ص 641.
10- د. مصطفى حجازي. التخلف الاجتماعي. مدخل إلى سيكولوجية الإنسان المقهور. المركز الثقافي العربي. الدار البيضاء. الطبعة الثامنة. 2001. ص 244

إن هذا البحث لا يعنى -إذن- بإيجاد " الجواب على اللغز الذي يطرحه الفرق الشراحي ما بين الجنسين (أي وجود أو غياب العضو الذكري) على الطفل... "[1] وإن كان يستفيد من آثاره ومخلفاته وتداعياته - وهو لا يعنى أيضا - بذلك الـ"مركب [الـ] نفسي [الـ]لاشعوري [الـ] مقترن بالخوف من إضاعة الأعضاء التناسلية أو ما يتصل بها "[2].

إلا أنه يعنى أشد العناية بصدى هذا الخوف وصوته عبر أرجاء نفسية الملك الشاعر المعتمد بن عباد موضوع الدراسة.

الدلالة المجازية لعقدة الخصاء

تحدد عقدة الخصاء بمعناها المجازي في " الصعوبة التي يعانيها المرء في تأكيد ذاته شخصيا على نحو مستقل ومسؤول "[3] ويترتب عن هذه الصعوبة " رغبة تأكيد الذات ضد قوى الإخضاع والمنع التي على وجه الدقة يمارسها الآباء الخصاؤون "[4] وعند اصطدام هذه الرغبة بتلك الصعوبة المانعة يحدث الخصاء والملاحظ أن " من يعاني من عقدة الخصاء ممنوع عليه أن ينافس الأب ويضاهيه، ولذلك يظل في وضعية العجز والقصور"[5] ويتجلى هذا الخصاء في صور معوضة أو مصعدةكما يأتي:

" **في الصور المعوضة لعقدة الخصاء:** تأكيد الذات منشود من خلال المنازل الاجتماعية التي تتيح بذاتها ممارسة ضرب من السلطة الآلية إذا صح القول، والتي تتيحها كذلك بتأثير البزة النظامية وشارة السلطة. وإعلاء شأن الذات يمكن له أيضا أن يكون منشودا في قطاعات سهلة المنال وليست موضع المنازعة كتنمية القوة الجسدية بتدريب كثيف دون فكرة المنافسة بالنسبة لأولئك الذين يتصفون بأنهم موهوبون جسميا، أو بتجميع الديبلومات والألقاب بالنسبة للموهوبين فكريا... ويتم التعويض في حالات أخرى، في حياة مزدوجة

1- معجم مصطلحات التحليل النفسي . ص361.
2- د. فاخر عاقل معجم علم النفس دار العلم للملايين. ط3 1979. ص 23.
3- روجر موشيلي. العقد النفسية. ص 70.
4- م ن. ص 71.
5- د. مصطفى حجازي. التخلف الاجتماعي. مدخل إلى سيكولوجية الإنسان المقهور. ص 244

وبواسطتها حياة ذات منحدر سري صميمي تتيح ضروب الإشباع الصميمي فيه أن يتحمل الفرد انعدام التأكيد الرسمي للذات: حياة جنسية نشيطة جدا في الخفاء، أو كذلك انتماء إلى جماعات ممنوعة أو جماعة سرية. **في صورها المصعدة:** يصبح الانعزال فضيلة والمهانة قيمة متعالية، ويرسم الخضوع وتمني الطاعة واجبات الحياة، ونفي الذات قصدي، وتسوغه فلسفة أو ميتا فيزياء أو ديانة تحيل كل إرادة في القوة إلى صف الأنانية مصدر الفسق كله"[1].

ويمكن أن تكون صور هذه العقدة مغالية في سلوك ذي تكوين عكسي يتجه إلى إظهار نقيض العقدة وهذا ما يفسر تجلي "... عقدة الخصاء في الواقع ببحث مغال وتفاخري عن القوة وتأكيد الذات "[2] ويمكن أن تتحول إرادة القوة عندئذ إلى المظاهرة الدائمة والعرض المغالي، إنها الدونجوانية لدى الرجل في المجال الجنسي (الإعلان عن القوة بعدد الغزوات الغرامية) ونزعة ارتداء الحرير الشفاف عند المرأة، وفي المجال الاجتماعي، إنها الطبع المسيطر سيطرة مغالية والمستبد استبدادا مفرطا، الذي لا تعرف نهاية لتقديم البراهين على قوته، مستمتعا بسلطة العقاب والإذلال والظهور بمظهر السيد المطلق استمتاعا ساديا، دون أن يجوز مع ذلك على شخصية أصيلة قوية، وذلك يجعله في نهاية الأمر طبعا قاسيا، غير متسامح وحقير... "[3] والقاعدة الأساسية التي تحكم هذه العقدة هي أن " كل ضعف حياتي، كل فشل وجودي يعاش على المستوى اللاواعي كخصاء" [4] وتعد عقدة الخصاء، وهوامه من آثار التربية الصارمة التي يحرص الآباء فيها على إرغام أبنائهم علىسلوكات محددة ولهذا نجد المحللين النفسيين يؤكدون على أن الخصاء من الناحية النفسية الرمزية هو التعبير عن قانون الأب الذي يحد من حرية الرغبة عند الطفل "[5] وليس في هذا الحكم إدانة للآباء، ولا لحرصهم على تربية أبنائهم، وإنما غرض هذا الوصف هو بيان أثر الصرامة القاسية التي قد تمس أنا الأبناء، وتزعزع ثقتهم بأنفسهم، أو قد تصوغ

1- روجر موشيلي. العقد النفسية. ص .73
2- 3- م ن ص 74.
4- 5-د. مصطفى حجازي. التخلف الاجتماعي. مدخل إلى سيكولوجية الإنسان المقهور. ص 244.

منهم شخصيات تواكلية خانعة همها أن تختزل سلوكها في الطاعة العمياء وقد بين لنا الدكتور مصطفى حجازي أن الخصاء يبدو " على مستوى التعبير الرمزي، على شكل احترام مفرط للسلطة (رمز الأب) وعجز عن توكيد الذات إزاءها في حالة من الرضوخ والتسليم... [1] والحق أن صرامة الآباء قد تكون ثقافة عصر أو طبقة أو قطاع من قطاعات المجتمع، فالعسكري الصارم مع أبنائه إنما يترجم تكوينه وانضباطه في الثكنة، والفيلسوف والمفكر العقلاني إنما يترجم تأملاته ومناهجه مع أبنائه، دافعا بهم لاكتشاف نمط الحياة الذي يلائم تطوراتها ومستجداتها، وهكذا دواليك.

ولأن البحث سيركز على بيان أثر قسوة المعتضد على شخصية ابنه المعتمد فإنني أحب أن أؤكد أن صرامة المعتضد، وقسوته، وبطشته إنما هي تعبير جلي عن ثقافة العصر الطائفي الذي انقلبت فيه الموازين، وانهارت فيه القيم، واجتمعت المتباعدات والمتناقضات، فأراد لأبنائه أن يكونوا أبناء العصرقسوة وبطشة، وتفطنا ويقظة فلا ينخدعوا بالقيم ولا بالموازين، فالقيمة المطلقة عنده هي تمتين دعائم الملك، وسيادة العصر والمصر، ولهذا أرى أن عقدة الخصاء ليست عقدة المعتمد وحده بل هي عقدة عصر الطوائف التي تشكلت وتكونت مع مسار انهيار الخلافة والفشل في حفظ لوائها من التمزق، ويمكن أن نتتبع المسار في هذه الخلاصة المركزة.

بداية تشكل عقدة الخصاء [مسار الجرح النرجسي]

لن نستطيع أن نقدم صورة واضحة عن عقدة الخصاء وتمويماتها عند المعتمد بن عباد إلا بتتبع مسارها، والرجوع إلى البدايات التي تشكلت فيها وظهرت، معتمدا على تحليل أثر الحوادث التاريخية على نفسية الإنسان الأندلسي في هذا العصر الموسوم بعصر ملوك الطوائف، والذي يعده هذا البحث عصرا ساحقا خاصيا بأحداثه الجسام، وتقلباته المهولة، التي جعلت الخصيان أمراء وملوك وجرأت كل خامل على اقتحام المراكز والمراتب. لقد بدأت عقدة الخصاء في الظهور مع ظهور علامات الذبول على الخلافة التي لم تعد بيتا يؤوب

1-د. مصطفى حجازي. التخلف الاجتماعي. مدخل إلى سيكولوجية الإنسان المقهور. ص 244.

إليه الجميع،وراية تلقي عليهم بظلالها الجامعة، والأندلسيون بحكم بعدهم عن مركز الخلافة كانوا يحملون صورة مجللة بالنقاء والقداسة والبياض، عن هذا الاسم الرمز حتى أن عبد الرحمان الناصر " وهو أول من تسمى... بالأندلس بأمير المؤمنين "[1] لم يجرؤ على هذا اللقب إلا بعدما رسخ في النفوس أنه ما جاء إلا حفاظا على هذه النصاعة والقداسة فلم يتسم بهذا إلا " عندما التاث أمر الخلافة بالمشرق واستبد موالي الترك على بني العباس"[2].

لاحظ الأندلسيون أن هذه الصورة قد دخلها الانطماس، وأن الراية قد اعتراها الاهتراء، وأن الطامعين والطامحين قد بدأو يجتذبون أطرافها، وبدأت صورة أخرى في التشكل في مخيلة كل واحد منهم عندما رأوا هشاما المؤيد يولى ويبايع بالخلافة "وهو ابن اثنتي عشرة سنة "[3] على أكبر تقدير، وازدادت ملامح هذه الصورة الذابلة الذاوية المهترئة الحاملة لسمات الاهتراء وهم يرون كيف " حجر المنصور بن أبي عامر على هشام المؤيد بحيث لم يره أحد منذ ولي الحجابة "[4] واستقر في نفوسهم أن خليفتهم لا يختلف عن بقية عبيده وخصيانه، همة وتدبيرا. فهاهو المنصور يظهره متى شاء وكيفما شاء فقد "...جعل عليه برنسا وعلى جواريه مثل ذلك فلا يعرف منهن "[5]. وتمادى المنصور في قهر -خصي- الخليفة حتى " تركه معجوز الغناء، خفي الذكر عليل الفكر، مسدود الباب... لا يخاف منه بأس، ولا يرجى منه إنعام "[6] وكلما ازداد المنصور استبدادا واستيلاء على رمز الخلافة ازدادت تلك الصورة وضوحا، وكلما ازدادت الصورة الذابلة وضوحا، انغرز في نفوس الناس جرح نرجسي عميق الغور خفي الأثر؛ فالخلافة هي شرف الأمة المنتهك، والخليفة هو عنوان الفحولة المسلوبة، ورافع الراية البالية.

1- المقري نفح الطيب.ج1. ص 277.
2- م ن. ص ن.
3- م ن. ص 311.
4- م ن ج2 ص 104.
5- المقري. نفح الطيب. ج1. ص 104.
6- الفتح بن خاقان. مطمح الأنفس. تحقيق محمد علي شوابكة. دار عمار/ مؤسسة الرسالة، ط1 1983. ص 394.

كان المنصور شاعرا بانعكاس وتداعيات أفعاله على الأنا الجماعية التي سرى فيها خيط التصدع؛ فهو يعرف أن المسلمين يعيشون حالة " تثبيت أبوي " على الخليفة مثلما قد يعيش أي فرد هذه الحالة مع الأب فيكون ذا " تركيز مفرط على الارتباط [به]... بحيث يصعب تحول الاهتمام العاطفي من الأب إلى أشخاص آخرين..."[1]، ولهذا عمل المنصور - العارف بهذه الحالة - طيلة مدة حكمه المهيمن على ترميم الأنا الجماعية التي مسها التصدع، وتجلت ترميماته في غزوات الشتاء والصيف التي بلغت " اثنتين وخمسين غزوة واحدة في الشتاء وأخرى في الصيف "[2] وفي بناء معظم مدينته " الزاهرة " "في عامين "[3] إلا أن هذه الترميمات الخارجية لم تلامس العمق حتى وإن " انتشر الأمن في كل طريق واستشعر الأمن كل فريق "[4] لأن ذلك الشعور الهادر ظل يمخر النفوس في صمت، ويطبع حياة الناس بالمرارة والسخط، وقد أفلت هذا الشعور ليخرج على لسان شاعر " همس... بهجوه [المنصور] وهجو الدولة جميعا [السريع][5]:

اِقْتَرَبَ الْوَعْدُ وَحَـــانَ الْهَلاَكُ	وَكُلُ مَا تَحْذَرْهُ قَدْ أَتَـــاكَ
خَلِيفَةٌ يَلْعَبُ فِــــي مَكْتَبٍ	وَأُمُهُ حَبْلَى وَقَاضٍ يناك "

إن هذا الشاعر يكشف عن انسحاق الأمة أمام زمان لم يخلف ميعادا مؤلما بل وفى بتحقيق كل المحاذير المتوالية الضاربة في الصميم، العابثة بكل الرموز؛ كان هذا الشعر شعور أمة صامتة في ذهول ووجوم، وكان هذا الشعور صوت الأنا الجماعية الملجمة المقهورة وهي ترى الحاجب "يقتضي الأرواح بغير سوم، وينتضي الصفاح على كل روم، ويتلف من لا ينساق للخلافة، وينقاد ويختطف منهم كل كوكب وقاد "[6] وكانت هذه الأنا الجماعية مبصرة ترى المنصور يسوق الجميع إلى الخلافة قسرا فتنساق وهي تراه بتظاهر بأنه "لم يدع السمع

1- د. جابر عبد الحميد جابر/ د علاء الدين كفافي. معجم علم النفس والطب النفسي. دار النهضة العربية. مصر 1990. ج3 ص 1264.
2- المقري نفح الطيب. ج1 ص 313.
3- م ن. ج2 ص 95.
4- ابن خاقان. مطمح الأنفس ص 388.
5- المقري نفح الطيب. ج2 ص 113.
6- ابن خاقان مطمح الأنفس ص 388.

لخليفته والإجابة "[1] لكنها كانت ترى -في المقابل- بالعين نفسها الرجل نفسه قد " أذل قبائل الأندلس بإجازة البربر، وأخمل بهم أولئك الأعلام الأكابر... حتى تغلبوا على الجمهور... "[2] فأنى لهذه الأنا أن تثمن تلك الانجازات الترميمية؟ وأنى لهذه الانجازات أن تمس هذه الأنا وترأبها؟ أيقن الجميع أن عمل المنصور عمل " ظاهر يخالفه الباطن، واسم تنافره مواقع الحكم والمواطن "[3] وأيقنوا أن إنجازاته لا تعدوا أن تكون مجرد تنويمات أبوية بلا مصداقية -" والتنويم الأبوي يرتبط بالخوف "[4] - أصلا. ولهذا سكنهم الشعور بالقهر والانسحاق.

فبداية تشكل عقدة الخصاء -التي يعدها هذا البحث سمة لعصر ملوك الطوائف- إنما كانت في هذه الفترة العامرية -السابقة والممهدة لعصر ملوك الطوائف- وهي فترة توصف تاريخيا -كما مر بنا- بأنها فترة استقرار، إلا أنها نفسيا كانت فترة قهر وسخط صامت ساحق.

إن قراءة المتخيل النفسي تقودنا إلى اعتبار تعيين المنصور لهشام المؤيد على حساب عمه المغيرة الذي " قتل ليلتئذ... [وهو] المرشح لأمره "[5]، ثم الحجر على هشام بعد ذلك -تقودنا إلى اعتباره- عملا خصائيا للخليفة وتسفيليا للخلافة، إنجرت عنه هوامات الخصاء التي تعززت مع مسلسل الإبادة التي سلطها المنصور على رؤساء الدولة ممن عانده وزاحمه "[6] حتى " خلا الجو من أولياء الخلافة والمرشحين للرياسة "[7] ومن هنا كانت بداية العقدة، فلا عجب أن نجد المراكشي يعبر بهذه العبارة الموحية عن سقوط الخلافة وأثرها في النفوس حيث قال إن القبائل الأندلسية العربية —خصوصا- رأت أنه " لم يبق من عقبهم من يصلح للإمارة ولا من تليق به الرياسة "[8].

فكان لسقوطها جرحا نرجسيا بليغا في النفوس لأنه مس بالسلامة النفسية للأندلسيين عموما، والعائلات العربية خصوصا، وكان هذا الجرح النرجسي منشأ عقدة الخصاء، التي تجلت على سلوكات وسياسات

1- 2- 3- ابن خاقان. مطمح الأنفس. ص 389.
4- د. جابر عبد الحميد جابر/ د علاء الدين كفافي. معجم علم النفس والطب النفسي. ج3 ص 1264.
5- المقري نفح الطيب. ج1 ص 308.
6- م ن. ص ن.
7- م ن. ص 309.
8- المراكشي. المعجب. ص 90.

ومواقف إمارات وأمراء عصر الطوائف، فإذا كنا قد أشرنا في بداية الدراسة إلى تكالب هؤلاء الأمراء على كل مظاهر العظمة فإن القراءة النفسية لهذه المظاهر تؤكد أن الإنسان المهزوم والمجروح يلجأ إلى وضعيات عديدة من بينها الوضعيات العظامية والنفاجية، وقد يعيش عقدا عديدة، كعقدة النقص أو العار وعدم الجدارة وهذه العقد تمارس التلبيس والتخفي والتقنع؛ فاحتماء الانسان بالأصل المجيد والنسب الشريف لا تعدو عند التحليل النفسي سوى أن تكون انكفاء على الذات، وهروبا من الواقع، فهي "إوالية دفاعية إزاء تحديات لاقبل له بها، تشل مبادرته في الحاضر وتسد أمامه آفاق الخلاص المستقبلي "[1]، ويمكن أن نتتبع كل مظاهر الخصاء وأثاره سواء في مثل هذه الصراعات الداخلية التي عرفها عصر الطوائف، أو في الصراعات الخارجية مع النصارى. ولا تخفى على الدارس ظاهرة الشكوى من الزمان والدهر التي لا تخلو منها رثاء المماليك الزائلة، بل إن سعة انتشار هذا النوع الشعري لها أكثر من دلالة في هذا المجال. والحق أن " عقدة الخصاء " إذا كانت سمة عصر بكامله فإن ذلك لا يعني –أبدا- أن المعتمد لا يحمل جوانب التفرد، ولا يتميز بخصوصياته فهو وإن كان يعكس شخصية الأندلسي في عصر الطوائف القاتم سياسيا، والمشرق أدبيا وثقافيا، لكنه في المقابل يعبر عن ذاته المتفردة التي تبرز بوضوح بعد وفاة أبيه وتوليه أمر المملكة وزوال ملكه.

إن تفرد المعتمد لا يفهم من خلال هوام الخصاء وحده، وإنما يفهم أيضا من خلال نظرية أخرى هي : **"نظرية الدور" لــ " ألبورت" "G.W.ALLPORT"** التي ترى أن " الدور هو أسلوب بنائي منظم للمشاركة في حياة اجتماعية "[2] وأن الانسان يعيش في حياته اليومية وفي مسار حياته عدة أدوار في آن واحد أو في فترات متباعدة، فحياة الانسان كأنما هي "... تتابع من الأدوار تربط الفرد بسلسلة معقدة من النظم الاجتماعية "[3] والأدوار المتعددة " كثيرا ما تتصارع ... و... تتقاطع ... وتتشابك "[3]، والإنسان حينما يعيش

1- د. مصطفى حجازي. التلف الاجتماعي مدخل إلى سيكولوجية الإنسان المقهور. ص 103.
2- د. حلمي المليجي علم نفس الشخصية. دار النهضة العربية بيروت الطبعة الأولى 2001. ص 177.
3- م ن. ص 178.
4- م ن. ص 179.

صراع الأدوار إنما يبني شخصيته ففي رأي بعض أصحاب هذه النظرية " أن الشخصية تتألف من الأدوار التي يمثلها الشخص، ويرى البعض الآخر أن الشخصيةالاجتماعية لفرد ما تتكون من التأليف بين الأدوار الاجتماعية المختلفة المتتابعة أو المتآنية التي يأديها منذ ميلاده حتى وفاته "[1] وتحكم هذه النظريات أربعة مفاهيم أساسية هي[2]:

أ- توقعات الدور.

ب- تصور الدور.

جـ - قبول الأدوار.

د – أداء الدور.

ونقطة الارتكاز في هذه المفاهيم ونظريتها حول بناء الشخصية لحظة التقاء نظام الشخصية بالنظام الاجتماعي[3] فحينما يستوعب نظام الشخصية الدور الاجتماعي (تصور الدور) ويقبله أو يرفضه " يتحدد نوع السلوك في النظام الاجتماعي أي كيف يأدي الفرد هذا الدور"[4] متوافقا أو متصارعا أو متجاذبا. من خلال هذه النظرية نستطيع أن نستبين خصوصية المعتمد المتفردة، ونحاول انتزاعها من سطوة الشعر أو سطوة السياسة والملك أو سطوة الأسطورة لنعرضها لأشعة منهج التحليل النفسي التي لن تأبه بكثافة تلك الحجب السياسية والأدبية أو الأسطورية، لأن غايتها كشف حقيقة الشخصية المعتمدية بعيدا عن كل الأقنعة، وإبراز نقاط التفرد بعيدا كل نمذجة.

1-2- د. حلمي المليجي علم نفس الشخصية. ص 180.

3-4 - د. حلمي المليجي علم نفس الشخصية. ص 182.

I- مرحلة الإمارة

أ- التجاذب الوجداني عنوان عصاب القهر

ليس يخفى على الناظر في حياة المعتمد أنه ذو شخصية تتميز بالتجاذب الوجداني، والولع بقلب المستحيلات حقائق ووقائع ممكنات، فهما ظاهرتان بارزتان من خلال مسار حياته. والتجاذب الوجداني هو أن يتميز الشخص بـــ " تعقيد العواطف أو تذبذب المواقف"[1] فقد رأينا المعتمد يحب ابن عمار ويقربه حد التوحد به حتى إنه قال له " وهل أنت عندي إلا كنفسي" [2] وقال فيه شعرا يدل على متانة الصلة وقوة العلاقة. من ذلك ما جاء فيه[3]:

وَلِـــي خَلِيلٌ غَدَا ســـمّي   يَا لَيْتَهُ سَـــاعَدَ السمي

بل إنه أفرط في حبه حتى "...كتب من قرطبة إلى بعض كرائمه شعرا يعتذر فيه من اللحاق بها جاء في آخره "إن شاء ربي أو شاء ابن عمار"[4] غير أن هذا الحب كله لم يشفع خطأ ابن عمار، حيث أنهى المعتمد حياة " نفسه " بيديه دون أن تأخذه به رأفة أو تمنعه صداقة وألفة.

ومن علامات التجاذب الوجداني المميز لشخصية المعتمد، ذلك الالتزام الأصم والوفاء الأعمى بالعهود مع النصارى حيث رأيناه حريصا على دفع الضرائب السنوية لهم، وقت ما كانوا يلتقمون دويلات المسلمين دويلة دويلة؛ فلا يتحرك فيه أدنى شعور متعاطف أو حمية إزاء إخوانه، ثم لا يلبث أن ينقلب رأسا على عقب، فيدوس على أقدس ما تعارفت الإنسانية عليه من واجب حماية سفراء ورسل الأعداء ولو في أيام الحروب وعز المعارك الطاحنة.

أما تعلق المعتمد بقلب المستحيلات حقائق وردها ممكنات فيبدو من خلال قصة زواجه الفريدة، وتعلقه بغسالة

1- جان لابلانش وج. بونتاليس معم مصطلحات التحليل النفسي. ص 156.
2- عبد الواحد المراكشي المعجب. ص 176.
3- المعتمد الديوان. ص 65.
4- ابن الآبار الحلة السيراء. ج2 ص 193.

وتعجيله بالزواج منها، وسرعة انقياده لها؛ إذ صار لا يرد لها طلبا ولا يعصي لها أمرا. وما يلاحظ على هذا الزواج هو أن المعتمد لم يأنف من وضاعة طبقة " اعتماد " ومنشأها، إلا أنه أنف أن يراها تعود لماضيها حينما حنت للمشي حافية في الطين كرة أخرى، وقد رأينا توفيقه الغريب بين حنينها العجيب وأنفته المتأخرة حيث أنه أمر "فسحقت أشياء من الطيب وذرت في ساحة القصر حتى عمته، ثم نصبت الغرابيل وصب فيها ماء الورد على أخلاط الطيب وعجنت بالأيدي حتى عادت كالطين وخاضتها مع جواريها"[1].

ومن ولعه بقلب المستحيل ممكنا، والخيال واقعا أنه سمع باللص المعروف بالبازي الأشهب وأنه سرق وهو معلق في الطريق العام تشهيرا وعقابا فلما وصلته هذه القصة " تعجب منها وأمر بإحضار البازي الأشهب وقال له: كيف فعلت هذا مع أنك في قبضة الهلكة؟ فقال له ياسيدي لو علمت قدر لذتي في السرقة خليت ملكك واشتغلت بها فلعنه وضحك منه "[2] ثم قدمه على رجال أنجاد وصار من جملة حراس أحواز المدينة[3] هكذا في لحظة يتحول اللص من ساحة الصلب والتشهير إلى قائد للحرس يطارد أصدقاءه السابقين من اللصوص في مملكة المعتمد، وفي هذه المملكة يرتفع صوت الشكوى والضراعة من الشاعر عبد الجليل بن وهبون فيقول[4]:

قَلَّ الْوَفَاءُ فَمَا تَلْقَاهُ فِي أَحَـــــــدٍ وَلاَ يَمُرُّ لِمَخْلُـــــــــوقٍ عَلَى بَالِ

وَصَارَ عِنْدَهُمْ عَنْقَاءَ مُغْرِبَـــــــةً أَوْ مِثْلَ مَا حَـــدَّثُوا عَنْ أَلْفِ مِثْقَالٍ

ويبلغ هذا الصوت مسمع المعتمد فيقرر إعطاءه ألف مثقال قائلا له: " يا أبا محمد هل عاد الخبر عيانا؟ ...الآن حدث بها لا عنها "[5]. إن هذا التجاذب الوجداني والولع بالغرائب هو عنوان شخصية عصابية نشأت في بيئة سياسية وأسرية كل ما فيها يقود إلى العصاب، فالمعتمد وجد نفسه أميرا يكنفه المجد ويحيط به من كل النواحي، لكنه في المقابل وجد نفسه مقودا إلى السير في نهج مرسوم، وخط معلوم، لا يمكنه أن يحيد عنه، فإن

1- المقري. نفح الطيب. ج5. ص 193.
2- م ن. ص68.
3- م ن. م ص.
4- المراكشي. المعجب. ص 150، 151.
5- م ن. ص 151.

حدثت هفوة أو حاد -كما مر بنا عند فشله في فتح مالقة- " حقد المعتضد عليه... وضربه بالعصي ونكله تنكيل القصي "[1]، فلا يجد بعدها إلا الضراعة والتملق إلى والده حتى ينال عفوه، ويظفر بنظرة رضى منه.

ويبدو أن المعتمد قد فهم أنه مرغم على السير في ركاب المجد بالمفهوم المعتضدي، دون أن يكون له هامش من الحرية، وحق في الاجتهاد، كما أنه -يكون- قد شعر بأن أباه هو الآخر في قبضة منطق عصر ملوك الطوائف المتناحرين، وهو منطق الغلبة والتوسع والجمع بين "البذخ المسرف، والإجرام السافر من المطامع، والنزوات ومن الخناجر والسموم "[2]، مما جعل المعتمد في صراع مع نفسه فشخصيته شخصية فنان " تشغله تلك الأشياء التي تشغل الفنانين "[3]، لكن مقامه ومنزلته كأمير مرشح لمهام كبرى تجعل اهتمامه بتلك الأشياء علامة إهمال وهذا ما يحتم عليه أن يساير مقتضى مقامه ويواكب حركية ومنطق عصره، وبين مقتضى المقام و حتمية العصر ومنطقه، وطبيعة المعتمد ونفسيته، برزت صفة التجاذب الوجداني القائد إلى العصابية، التي تؤكدها الدراسات النفسية كأهم سمة تميز الفنانين حيث" أنهم تغشاهم بين الحين والآخر نوبات من تناقض الموقف الوجداني (Ambivelence) تجاه الموضوع الواحد "[4] وأن " أول شيئ تشخص به حال الفنان الصحية أنه عصابي Neurotic "[5]، إن طبيعة شخصية المعتمد هي طبيعة الفنان وشخصيته التي لا نشك أنها أحست بخناق نتيجة تناقض وضعها وطبعها وأنها رأت المعتضد القاهر الساحق من خلال هذا الخناق فبدا لها مقهورا مسحوقا، فبطشه وقهره لم يكن إلا تعبيرا عن شخصية ضعيفة عاجزة. ألم يره يتستر بهشام الحصري الذي لم يكن سوى حرفي يمتهن صناعة، الحصير، فاستجلبه من ورشته، وأنهضه من وضاعته وقدمه للناس مدعيا أنه الخليفة هشاما المؤيد قد رجع بعد طول غياب مستغلا أجواء الشك والتلبيس حول حقيقة قتله، فوجد في تشابه ملامح الحصري بملامح هشام مسوغا لدعواه؟ ولتلهفه على الملك والخلافة؟.

1- ابن خاقان. قلائد العقيان. ص 21.
2- آنخل جنثالث بالنثيا. تاريخ الفكر الأندلسي. ص 78.
3- م ن. ص 107.
4- د. ماجد موريس إبراهيم. سيكولوجيا القهر والإبداع. دار الفارابي. بيروت. ط1. 1999. ص 202.
5- د. عز الدين إسماعيل. التفسير النفسي للأدب. دار العودة. بيروت. ط4. 1981. ص 28.

إن المعتمد صاحب النفس الشفافة يكون قد تساءل: ألا يكفي نسبنا اللخمي العريق لنكون غرة هذا الزمان الأسود؟ أن كان لا يكفي هذا النسب فلم التشبث به؟ وإن كان يكفي فلم اللجوء إلى عامل حقير نحتمي به؟ أليس الإحتماء بهذا الشكل الذليل المهين عارا وتلويثا للسمعة؟ ألا يعد قبول الناس و إبقاؤهم على مبايعته إمعية جبانة من الجماهير؟ وإنتهازية متملقة من أولئك الملوك الذين إستجابوا لنداء المعتضد فبايعوا كما طلب منهم؟ أيبلغ الخوف من المعتضد هذا الحد من إلغاء العقول و التخلي عن العزة؟ هذا المرعب الدموي أليس هو ذلك العاجز المذكور التي تقُضُّ مضاجعه هواجس المنجمين و وساوسهم المنبئة بسقوط ملكه على يد البربر فيجمع أبناءه و" ينظر إليهم مصعدا و مصوبا و يقول ليت شعري من تناله معرة هؤلاء القوم أنا أو أنتم"[1] أليس هذا المرعب هو الذي" نال بغيته و أهلك... الأمم العاتية، وإنه لغائب عن مشاهدتها... ما إن مشى إلى عدو أو مغلوب من أقتاله غير مرة أو اثنتين "[2] لكنه لا يفتأ يدير رحى الحرب على أبنائه حتى إن أحب أبنائه إليه إسماعيل " شكا... بعض ما يناله من فضاضة والده وقسوته ورميه المتالف به "[3] فلما سمع مثل هذه الشكوى استجبن الأبناء وهددهم؟ ألم يره يرغم أخاه اسماعيل على السير إلى قرطبة وحينما تردد لقلة جيوشه " أغلظ وعيده وكاد يسطو به، وألزمه المسير لسبيله وأوعده القتل على التواني عنه "[4] فكان من آثار هذا الإلزام القاسي أن فجر بداخل الفتى " حقودا كانت له بنفسه كامنة جسرته على معصية أبيه "[5]؟ هذا المرعب أليس هو الذي رآه يحقد عليه شخصيا ويضربه بالعصي ويهجره لأنه لم يوفق في فتح مالقة؟ أليس هو ذاك العاجز الذي تشله مشاعر العجز والخصاء فلا يطيق أن يسمع من أحد ما يذكره بهذه الحقيقة ويذكي نارها بداخله فإن تجرأ أحد على ذلك -كما فعل صديقه عمر بن حسن الهوزني- " قتله بيده ودفنه بثيابه "[6]وطمسه ومحا اسمه من الوجود؟ ثم ألا يمكن القول إن عقدة الخصاء والعجز قد نغصت حياة المعتضد وأخرجت منه شخصية

1- المراكشي. المعجب. ص 148.
2- ابن سام. الذخيرة. ق$_2$/ مج$_1$. ص
3- ابن سام. الذخيرة. ق$_3$/ مج$_1$. ص 146.
4- ابن سام. الذخيرة. ق$_3$/ مج$_1$. ص 145.
5- م ن. ص ن.
6- ابن بشكوال. كتاب الصلة. تحقيق عزت العطار الحسني.مكتبة الخانجي. القاهرة. ط2. 1994. ج1. ص381.

بارانوية تجد لذتها في رؤية الرؤوس التي جمعها وزرعها في حديقته؟ ألا يدل التلذذ بهذا المنظر على أن الرجل معذب عذابا مؤلما فلا يجد شفاء ولا راحة إلا في هذا المنظر البشع الذي يحتال به على نفسه العاجزة فيقدم لها براهين قوته وقدرته عساها تؤوب إليه راضية قوية متزنة؟ وهذه الحديقة الممتعة للمعتضد، ألم تكن مرعبة للناس ولأبنائه؟ ألا يمكن أن يتحول رعبهم منها إلى رعب منه ومن نهجه؟ إن هذه الأسئلة كلها أو بعضها قد دارت في رأس المعتمد، ومزقت نفسيته، ومست شخصيته وتركيبتها، وكانت بمثابة المنشأ العصابي الذي زرع فيه الإحباط والعجز والشعور بالقهر، مما جعله مغلولا مشلول النفس.

ومما زاد في شعور المعتمد بالإحباط والقهر والعجز هو أنه وجد نفسه مهمشا غير مقدم من قبل أبيه الذي مال كل الميل إلى إسماعيل وقدمه على من هم أسن منه -كما مر بنا- وكان يشعر أن تهميشه ما هو إلا تعبير من أبيه عن عدم رضاه عن سيرته وملامح شخصيته الغالب عليها طبع الفتى الفنان وقد اتضحت هذه الملامح كثيرا حينما تولى إمارة شلب، والتقى بالشاعرا بن عمار، حيث " بدأت مواهبه الشعرية تتجلى "[1] ثمرة لهذا اللقاء وحينها لم يرض المعتضد حتى إنه تدخل للحد من غلواء هذا اللقاء وما أبداه المعتمد من ميول لاتتوافق وما يُعَدُّ له. كل هذا المعتجن النفسي كان يثقل شخصية المعتمد ويكبل نفسيته ويغلها، غارسا فيها جذور العصاب إذا " من المتفق عليه عامة أن العلاقة المبكرة غير المشبعة بين الطفل ووالديه، هي المحتمات الأولية للاستجابات العصابية فيما بعد، وقد وصفت هذه العلاقة ...(نواة العملية العصابية)"[2]؛ فقد كانت علاقة المعتمد بأبيه واصطدام شخصية الفنان بشخصية الملك الجبار بمثابة الخبرة الضاغطة التي ساعدت على ظهور مجموعة من الاستجابات العصابية[3] رجّع صداها الإبداع الشعري للمعتمد ومختلف فنونه التي نذكر منها: الغزل والمدح والاعتذار.

1- أنخل جونثالث بالنثيا. تاريخ الفكر الأندلسي.ص.89.

2- والترج كوفيل. وآخران. الأمراض النفسية. ترجمة. د. محمد الزيادي. مكتبة الفلاح. الكويت. ط2. 1986. ص .164

3- م ن. ص 165.

ب- الغزل:

عند الحديث عن غزل ملك من الملوك نميل إلى اعتباره غزلا مترفا فالملوك تفعل ما تريد، ويصلها كل ما تطلب دون أن يعصى لها أمر، أو يرد لها طلب فهي ليس عليها رقيب ولا حسيب، والأندلس في هذا العصر الطائفي بلغت فيها الحريات والترف مبلغا كبيرا؛ فقد أشاع تنافس ملوك الطوائف - فيما بينهم- على مظاهر البذخ والترف، أجواء للانغماس في المتع والملذات كما كان لرواج تجارة الرقيق، وكثرة الجواري دورهما في تسهيل اللقاء بين المرأة والرجل، مما جعل المعاني التي يقوم عليها الغزل والنسيب قليلة، فالغزل الخالد هو ثمرة أنين المعذبين بالفراق والبعد أو ثمرة وصف لقاء اختلست لحظاته اختلاسا من بين الأعين الراصدة والمترصدة، والألسن الواشية التي تفصل سرابيل العار على مقاس النفوس المريضة لتلبسها المحبين ظلما وعدوانا أو هو ثمرة تعبير عن فتوة يذوق نشوتها عاشق افتك إعجاب الحبيبة افتكاكا مع كثرة الحائمين حول قلبها وعواطفها، كل هذه المعاني الخالدة بفعل القهر -والد الإبداع، وراعيه- لا يمكننا أن نمني أنفسنا بالعثور عليها عند دراسة غزل المعتمد بن عباد لأنها معان تقتضي أن تستأثر امرأة واحدة بقلب الرجل وتملك لبه، ويكون هذا الرجل قانعا بهذا الحب مكتفيا به ولا يعرف للحب معنى إلا من خلال قصته الوحيدة المتفردة والحب بهذا المفهوم مفقود بسبب طبيعة العصر التي رأيناها، وبسبب طبيعة الطبقة الأرستقراطية التي ينتمي إليها المعتمد، فيومها كان " حب الرجل الأرستقراطي يتميز بصفتين رئيسيتين: الأولى أن الإخلاص فيه لا يعني الإقتصار على المرأة الحبيب في صلات الرجل الجنسية وحتى العاطفية وإنما تفضيلها على غيرها. والثانية أن علاقة الحب بين الرجل الأرستقراطي والمرأة كانت تعني قبل كل شيئ حبه لها أما شعورها نحوه فهذا ما لا أهمية له... "[1] والمعتمد كما رأينا قد خلع عن ثمانمائة امرأة أمهات أولاد، وجواري متعة وإماء تصرف "[2] مما يؤكد صحة الكلام السابق الذي تذهب إليه العديد من الدراسات الجادة الداعية إلى عدم الطمع في غير مطمع بطلب المعاني السابقة والبحث عنها في الغزل الأندلسي إذ " ليس من المعقول أن نطلب من القصور الأرستقراطية الغاطسة في غضارة

1- د. صلاح خالص. إشبيلية في القرن الخامس هجري. ص 101.

2- ابن الآبار. الحلة السيراء. ج2. ص 55.

العيش أن تقدم لنا فنا يتمتع بالبؤرة المأساوية الصانعة للسمو"[1] لأنه لا مجال للحديث في غزل المعتمد عن " تفقد المسروق، والحنين إلى برهة الفرح المنهوبة "[2]. فالحبيب موجود ومكدس تكدس السلع الوافرة، ولحظة الفرح تتكرر وتتنوع أساليب صنعها وأجواء حدوثها دفعا لرتابة ساعات الأنس الطويلة.

ولهذا فإن الحديث في غزل المعتمد سيكون رصدا لملامح شخصية المعتمد العاشق أو الأمير المحب، والملك المتمتع بعذاب النساء العذب وأهم هذه الملامح هي:

1 - المحب الخائر، العاشق الشاحب

يظهر المعتمد أمام المرأة بمظهر العاشق الشاحب الخائر القوى، الفاقد لكل أمل في الحياة إن هي لم تطاوعه وذلك حين يقول[3]:

قُلْتُ مَتَى تَرْحَمُـــــــــــــــنِي	قَـــــالَ: وَلاَ طُولَ الأَبَــــدْ
قُلْتُ قَدْ أَيْأَسْتَـــــــــــــــنِي	مِـــنَ الْحَيَاةِ... قَالَ: قَـــدْ

كما يظهر شاحبا مغلوبا على أمره مثل أي رجل مسحوق يستجدي المرأة ويستعطفها قائلا[4]:

فَتَرَفَّقْ بِمُدْنِفٍ أَنْتَ مِنْـــــــــهُ	فِي سَوَادِ الْقُلُوبِ وَالْحَدَقَاتِ

واللافت للإنتباه أنه يجعل من علامات الشحوب دلائل حب صادق، لا يقبل أن يمسه شك أو يكدر صفاءه ظن أو ريب فيقول[5]:

قَـــــــدْ خُبِّرَتْ عَنِّي أَنِّي امْرُؤٌ	فِيـــــهِ شُحُوبٌ وَضَنًى يَظْهَرُ
وَاسْتَفْهَمَتْ إِنْ كُنْتُ ذَا عِلَّـــةٍ	أَوْ ذَا اشْتِيَاقٍ نَارُهُ تَسْعُـــــرُ
سَيِّدَتِي لَمِ تُنْصِفِي عَاشِقًـــــــا	أَضْحَى كَمَا أَخْبَرَكِ الْمُخْبِــرُ

1- يوسف اليوسف. الغزل العذري. ديوان المطبوعات الجامعية. الجزائر. 1981. ص 158.
2- م ن. ص 157.
3- المعتمد. الديوان. ص 20.
4- م ن. ص 21.
5- م ن. ص 37.

إِذَا قُلْتِ:هَـــــلْ مِنْ أَلَمٍ طَائِفٍ؟ مَا بِكَ ... أَوْ شَوْقٍ فَمَا تَصْبِرُ

ظَلْمْتِ بِالشَّكِ هَوَايَ الـــــذِي يَعْرِفُه الْغُيَّبُ وَالْحُضَّــــــرُ

وتعداد الملامح الشاحبة وتقديمها آيات شاهدات بصدق حبه، ظاهرة بارزة تتكرر، كما سنرى، يقول مترجيا زوجته إعتماد[1]:

مَنْ شَكَّ أَنِّي هَائِمٌ بِكِ مُغْــرَمُ فَعَلَى هَوَاكِ لَهُ عَلَيَّ دَلاَئِـــــلُ

لَوْنٌ كَسَتْهُ صُفْرَةٌ وَمَدَامِــــعُ هَطَلَتْ سَحَائِبُهَا وَجِسْمٌ نَاحِلُ

ويقول متشوقا[2]:

يَا مَنْ ثَكِلْتُ دُنُوَّهُمْ وَوِصَالَهُمْ فَبَدَا عَلَيَّ مِنَ الشُّحُوبِ حِدَادُ

وفي الموضوع نفسه[3]:

لَقَلْبِي، لِبُعْدِكِ عَنِّي عَلِيــــلُ فَشَوْقِي صَحِيحٌ وَجِسْمِي عَلِيلُ

إن الظهور بمظهر المريض، وتعداد المظاهر الشاحبة ــ مثل: مدنف، ضنى يكسوه لون أصفر، جسم ناحل، عليل، عليه من الشحوب حداد ــ طريقة وجدنا أن المشاعر كان يوظفها في اعتذاراته لأبيه عندما يخطئ الأخطاء الجسيمة التي تسخط أباه. حيث كان سخطه ذا أثر قوي على نفسيته. ووقعه كبير على شخصيته حتى وجدناه يقول له[4]:

مَوْلاَيَ أَشْكُو إِلَيْــــكَ دَاءً أَصْبَحَ قَلْبِي بِهِ قَرِيحًـــــــا

سُخْطُـــكَ قَدْ زَادَنِي سَقَمًا فَابْعَثْ إِلَيَّ الرِّضَى مَسِيحًـــا

فالبيتان يكشفان عن أصل هذه الظاهرة، فهي وليدة القهر الأبوي الذي تعرض له المعتمد، حيث يبدو أنه كان

1- المعتمد. الديوان.ص 38.
2- م ن. ص 45.
3- م ن. ص 56.
4- م ن. ص 96.

وسيلة هروبه من سخط الأب وقد تكرر هذا الأسلوب وتكررت الشكوى بتعداد مظاهر المرض أو ادعائه مع الأب القاهر فوجدناه يبرر أخطاءه بالمرض الذي يشتد عليه باشتداد سخط أبيه بل إن هذا السخط يصبح في حد ذاته مرضا وعلة يشكوها إليه من ذلك قوله يخاطب أباه[1]:

تَسَخُّطُكَ الْمُمِضُّ أَعَلَّ نَفْسِي وَمَـــالِي غَيْـــرُ عَفْوِكَ طَبِيبُ

إن الشاعر يقودنا إلى منشأ علته ويدلنا عليه بوضوح، فهو سخط الأب الساحق، واللافت للإنتباه في هذا البيت هو وصف السخط بـــ " الممض " مما يكشف أنه سخط حارق يشق على النفس أن تتحمله أو تطيقه.

وتعد القصيدة ذات الأربعين بيتا التي وجهها لأبيه معتذرا متملقا مطالبا بعفوه ورضاه إثر إخفاقه في فتح مالقة، أهم نص يبدو أثر السخط المعتضدي على المعتمد -بل إن القصيدة تعد مفتاحا لأهم جانب مؤثر في شخصيته وهو جانب " الوالد الساحق "- يقول فيها[2]:

كَمْ زَفْرَةٍ فِي شِغَافِ الْقَلْبِ صَاعِدَةٍ وَعِبْرَةٍ مِنْ شُؤُونِ الْعَيْنِ تَنْحَـــدِرُ

فَالنَّفْسُ جَازِعَـــةٌ وَالعَيْنُ دَامِعَـــــةٌ وَالصَّوْتُ مُرْتَفِعٌ وَالسِّرُّ مُنْتَشِـــرُ

وَزَادَ هَمِّي مَا بِالجِسْمِ مِنْ سَقَـــــمٍ وَشِبْتُ رَأْسًا وَلَمْ يَبْلُغْنِيَ الكِـــبَرُ

وَذُبْتُ إِلاَّ ذَمَـــاءً فِيَّ يُمْسِكُـــــنِي إِنِّي عَهِدْتُكَ تَعْفُو حِينَ تَقْتَـــدِرُ

كل هذه الأشعار الراصدة لظاهرة تعداد السمات المرضية تقودنا إلى التساؤل: إذا كان تعدادها حلا هروبيا من مواجهة الأب، عند المواقف الحرجة وحالات سخطه الممض، فمم يهرب المعتمد وهو يواجه المرأة؟ فإن كان تعداد هذه السمات وسيلة استعطاف وتملق مع أبيه، فلم يستعطف المعتمد ويتملق المرأة وقد رأينا أنها سلعة مكدسة لديه؟ نرجح أن هروب المعتمد من السخط المعتضدي الممض قد زرع في المعتمد بذور شخصية تجنبية من سماتها أن تكون ذات"حساسية بالغة أمام علائم الرفض من قبل الآخرين، والانتقاد والاستفسار لدى ظهور

1- المعتمد. الديوان. ص 98.

2- م ن. ص 100، 101.

أية علامة تنبئ بتراجع تقدير المجتمع له "[1] وفي مقابل هذا الهروب أصبحت تعيش وضعا وتحيا حالة قريبة مشاعرها من عقدة الخصاء وهي عقدة التخلي حيث يشعر صاحبها " بأنه مهمل ولا يهتم به أي شخص (أو ذاك الشريك الذي فضله وصمم تصميما نهائيا على أن ينتظر منه الحب أو الاعتبار...) وبأنه ليس لديه أي نصيب في أن يكون محبوبا أو معترفا به (موضع الاعتبار والتقدير) "[2]، ولهذا نجد المعتمد شديد الحساسية للهجر سريع الرجوع إلى ذاته ليحاسبها عما اقترفته من ذنب يوجب الهجر حتى إذا لم يجد ما يبرر تصرف الحبيب ضج صارخا مستعطفا واصفا جزعه وتقلب حاله[3]:

يا معرضا عني و لم أجن مــــا	يوجب إعراضا ولا هجرا
قد طال ليل الهجر فاجعل لنا	وصلك في آخره فجــــرا

وقد نجده يناجي ذاته مناجاة متضرع يرجو الصفح من الحبيب[4]:

أيا نفس! لا تجزعي واصبري	فإن الهوى مــــا به منصف
حبيب جفاك، وقلب عصاك	ولاح لحــــاك ولا ملطف
شجون منعن الجفون الكرى	وعوضنها أدمعــــا تنــــزف

ويبدو أن مشاعر عقدة التخلي وما صاحبها من تعداد للصفات الشاحبة وعلامات المرض والسقام كدلائل على صدق الحب قد صارت بمرور الزمن واستمرار الممارسات الأبوية الساحقة هوام خصاء مقيد ومطارد؛ والتجربة المعتضدية صارت تجربة ضاغطة تطارد وتكبل المعتمد حتى في لحظات الوصال مع الحبيب فهو يقول[5]:

القلب قد لَجَّ فما يقصـــــــر	والوجد قد جل فما يستر

1- د. أحمد النابلسي. أصول الفحص النفسي ومبادئه (هكذا). المكتب العلمي للكمبيوتر والنشر والتوزيع. الإسكندرية 1997. ص 83.
2- روجر موشيلي. العقد النفسية. ص 60، 61.
3- المعتمد. الديوان ص 54.
4- م ن. ص 55.
5- م ن. ص 37.

والدمع جار قطره وابل　　　والجسم بال ثوبه أصفر

هذا ومن أعشقه واصل　　　كيف به لو أنه يهجــــر

إن حضور الممارسات الأبوية في هذه الأبيات يتجلى من خلال آلية الاستعطاف بوصف المظاهر الخارجية الدالة على الخوف والمرض (الجسم بال ثوبه أصفر)، وهذا الحضور يكشف عن حال المعتمد من الناحية النفسية فهو عاجز عن الاستمتاع بالحبيب لحظة الوصال، تلك اللحظة التي تكون للفرح والحبور لكنها تحت ضغط التجربة الأبوية غدت لحظة عذاب وعجز وبكاء، وانصراف عن الحبيب المواتي الواصل.

إن التحليل النفسي يؤكد على أن هذه الظاهرة هي وليدة " الضغط بين الأنا الأعلى والليبيدو..."[1] هذا الضغط "... يكون مولدا للقلق الناشئ من تهديد التأديب المستشعر عبر هذا الأنا الأعلى المؤخلق والمعاقب "[2] والحق أن عقدة الخصاء يمكن اعتبارها كنموذج أصلي من القلق "[3] ومما يدل على وقوع المعتمد في شراك هذه العقدة وهوامها ما يسجله شعره من مشاعر العجز المعذبة، فهو يجد الرغبات بداخله تضطرم معترمة شديدة لكنه -كما في المرة السابقة- يجد منفسه في قبضة الوهن فلا يجد أمامه إلا الإقرار بهذه الحالة المرضية[4]:

والله ما سقمي إلا هـــوى　　　كل هوى فِي جنبه يصغر

غير جسمي! فاعلمي أنني　　　أروم لقياك ولا أقـــــدر

إن هوام الخصاء يكبل نفسية المعتمد ويعذبها، ويشتد هذا العذاب حينما يجد الحبيب المواتي، الطيع المكدس، ويجد في نفسه الحب الجارف والهوى العاصف إلا أنه عند اللقاء ترتعد فرائصه وتصفر ملامحه رعبا ورهابا من المرأة لا يجد له تفسيرا حتى صار يقدم رجلا ويؤخر أخرى وهو سلوك يؤكد من جهة سمة التجاذب الوجداني، الذي رأيناه من أهم مميزات مسار حياته. يقول[5]:

أســــــفي أود ولا أود وأغتدي　　　وأروح أحفظ عهد من قد ضيعا

1- 2- 3- Daco, P: Psychologie et liberté intérieure. Marabout. Alleur. Belgique. 1990.P 156.

4- المعتمد. الديوان. ص 37.

5- م ن. ص54.

ويؤكد عقدة التخلي من جهة أخرى وقد رأيناها بُذرت من خلال مشاعر النبذ التي أضحت هوام خصاء يتجلى من خلال مشاعر العجز الناتج عن اصطدام الرغبة الجامحة في العب من متع الحب بسلطة المعتضد الداعي إلى طريق الملك والمجد السياسي. وتحت رحى هذه الثنائية الضاغطة ظل المعتمد يعيش، يريد ولا يريد يقبل و يدبر.

2- المحب المقهور:

يتضح مما سبق أن القهر الذي يكابده المعتمد لم يكن قهر سلطة اجتماعية، ذات عادات صارمة أو قيم مانعة رادعة،وإنما كان قهرا أبويا يريد أن يسوق الأبناء إلى نهج محدد تتناقض مقتضياته مع طبيعة الفنان التراعة للتحرر والانغماس في مباهج الحياة، ومن هذا التناقض تسرب هوام الخصاء واستقرت مشاعر العجز -كما مر بنا- ولم يكن المعتمد راضيا بهذه الحال وإنما كان عاجزا عن إظهار سخطه؛ فالمعروف عن الشخصيات العصابية أنها لا تملك أمام الضغوطات إلا " التمرد عليها باطنيا والتطابق معها في الظاهر"[1]، وينكشف لنا الباطن المقهور الساخط من خلال الإعتراف الظاهري، والإقرار الضمني بذنب الولع بالنساء ولعا مضيعا لمقتضيات نهج المجد بالمفهوم المعتضدي، يقول[2]:

يا أيها الشمس الـــــــتي	قلبي لها أحد البـــــروج
لولاك لَمْ أك مؤثـــــــرا	فرش الحرير على السروج

أو يقول[3]:

يا غزالا صاد مِـــــــنِّي	بالطّلى ليث الهيـــــــاج

واضح أن المعتمد يعيش تحت ضغط الإنتقادات القاهرة التي جعلته يشعر بالذنب وتأنيب النفس وتأثيمها،

1- نخبة من العلماء. الجديد في علم النفس. ترجمة فؤاد كامل. دار الجيل. بيروت. ط1. 1987. ص 43.
2- المعتمد. الديوان. ص 24.
3- م ن. ص 21.

والأبيات إحدى صور الإقرار والاعتراف بالذنب مع الاعتذار المتنصل من تحمل المسؤولية أمام الوالد كنوع من السخط، فهو لولا الحبيبة التي كالشمس أو كالغزال لكان ليث هياج تحمله السروج إلى الوغى كما يريده أبوه.

ومن صور الاعتراف والإقرار بالذنب ما نجده من مزج بين الغزل والفخر البطولي حيث يقول[1]:

يا هلالا إذا بدا تجلـــــت	عن فؤادي دجنة الكربات
وغزالا لمقلتيه بقلـــــــبي	فتكات كأنها فتكـــــاتِي

إن هذا المزج بين الغزل والفخر بالبطولة بقدر ما هو دليل على مدى القهر الذي يعيشه المعتمد حد الحضور الدائم للسطوة المعتضدية في كل اللحظات والظروف. فهو تعبير عن تمرد لا شعوري عن هذه السطوة لأنه يرد على أبيه همه وانتقاداته فكأنما يريد أن يقول له إنني إذ أمارس غوايتي، فإنني لم أضيع أخلاق البطولة ومعانيها و لم أفرط فيها.

وقد يمزج المعتمد غزله بالمدح ويوظفها رسالة تطمين يتملق بها أباه المرعب القاهر الساكن فيه فيقول[2]:

فتكت مقلتاه بالقلب مِنّي	وبكت مقلتاي شوقا إليه
فحكى لحظه لنا سيف عبا	د.ودمعي له سحاب يديه

يتضمن هذان البيتان رسالة لا شعورية مفادها أن المعتمد واع بتناقض شخصيته مع شخصية أبيه، وإيمانه باستحالة تطابقهما، فالأولى شخصية فنان عاطفية سريعة الوقوع في الغواية، والثانية فاتكة جبارة، وبين فتك العيون الساحرة كسيف عباد ودمع عيون المعتمد الكريمة كرم أبيه يخرج غزل ممزوج بمدح يبطن الذم.

ومن صور الإقرار والتطمين، المزج بين الغزل والفخر بأمجاد قومه كوتر مشترك[3]:

وأغن يلعب بالهموم كما غدت	أرماح قومي بالعداة لواعبـــا.

إن المعتمد يؤكد لأبيه أنه لا يزال على نهج الآباء والأجداد لكننا نستشف من هذه الترعة الإثباتية مدى الخلخلة

1- المعتمد. الديوان. ص 21.
2- م ن. ص 62.
3- م ن. ص 25.

والاهتزاز اللذين مسا شخصيته وعندما ندرك هذا المدى ونقدره يسهل علينا رصد تجليات عقدة الخصاء وهوامه سواء في سيرته التاريخية أو في إبداعه الأدبي، فحينما نجد في مسار حياته أنه " خلع عن ثمانمائة امرأة أمهات أولاد وجواري متعة وإماء تصرف "[1]، يمكننا أن نجد التفسير النفسي لهذه الظاهرة حيث أن صور التعويض عن عقدة الخصاء قد " تتجلى... في الواقع ببحث مغال وتفاخري عن القوة وتأكيد الذات، لأن آلية الدفاع هذه، ذات غائية مفادها أن تنفي العقدة، وأن لا تدع أي شيئ منها يظهر أمام أعين الآخرين "[2]؛ فيأبى المصاب بهذه العقدة الاعتراف بها فتكون الاستجابة " ليس بالرضوخ وإنما بالإفراط في السلوك التعويضي على شكل مبالغة وتضخيم لمظاهر الذكورة والقوة والرجولة"[3]، وأهم سمة تميز المصابين بهذه العقدة هي سمة " الدونجوانية لدى الرجل في المجال الجنسي (الإعلان عن القوة بعدد الغزوات الغرامية) "[4] كما أن التحليل النفسي يذهب إلى اعتبار الرغبة في إظهار القور الجنسية بهذه الطريقة ضربا من:

1-... التعبير عن إحباطات أخرى.

2- الهروب من مشاكل أو متاعب.

3- تدعيم مشاعر الذكورة أو الأنوثة - سواء في العلاقات الزوجية أو خارجها "[5]

إن الدونجوانية بارزة من خلال جيش النساء اللائي خلفهن وراءه تبدو أيضا -كما في واقعه ومساره- في شعره الغزلي الطافح بالمعاني التفاخرية، والميل الإستعراضي الذي ينم عن أثر العقدة السابقة التي جاءت ثمرة للقهر الأبوي. قال حينما وجه صديقه ابن عمار إلى شلب[6]:

وكم ليلة قد بت أنعم جنحها   بمخضبة الأرداف مجدبة الخصر

1- ابن الآبار. الحلة السيراء. ج2. ص 55.
2- روجر موشيلي. العقد النفسية. ص 74.
3- د. مصطفى حجازي. التخلف الاجتماعي. مدخل إلى سيكولوجية الإنسان المقهور. ص244
4- م ن. ص ن.
5- د. كمال دسوقي. علم الأمراض النفسية. دار النهضة العربية. بيروت. 1974. ص 36.
6- المعتمد. الديوان. ص 47، 48.

وبيض وسمر فاعلات بـــمهجتي	فعال الصفاح البيض والأسل السمر
وليل بسد النهر لـــهوا قطعتــه	بذات سوار مثل منعطف البـــــدر
نضت بردها عن غصن بان منعم	نضير كما انشق الكمام عن الزهـــر
وباتت تسقيني المدام بلحظـــها	فمن كأسها حينا وحينا من الثغـــر
وتطربني أوتارها وكأننـــــــــي	ســـمعت بأوتار الطلى نغـــم البتر

إن "كم" التكثيرية هنا تكشف لنا أن المعتمد بصدد استعراض فحولته ورجولته أيام كان بشلب مع صديقه ابن عمار والأبيات تبطن رغبة لا شعورية في توجيه القارئ إلى عدم تصديق ما شاع عنهما وذلك بالحديث عن الليالي العديدات والنساء الكثيرات بمختلف ألوانهن وقدودهن، ولا يخفى ما في البيت الأخير من مغالاة في إظهار الشجاعة والبطولة من خلال تشبيه صوت الأوتار الموسيقية ونغمها بنغمة السيف حين يبتر رقاب الأعداء ويحزها، وعلى الرغم من ضعف وجه الشبه في المشبه به، منه في المشبه، فإننا نكتشف قوة التشبيه إذا فهمناها - على طريقة تراسل الحواس- أي أنه تشبيه للمسموع بالمحسوس، فحلاوة النغم العذب لا تضاهيها إلا حلاوة الحز والقطع والتغلب على العدو، وعلى ضوء هذا الفهم تتجلى لنا ظاهرة جديدة وهي اقتران الغزل بالحرب تأكيدا على استمرار الحضور المعتضدي في هذه اللحظات كشاهد على مدى استبداد هوام الخصاء بشاعرنا، فهو يعيش بطولاته وحروبه هواما في مجالس الأنس ولقاءاته الغرامية.

والملاحظ أن مثل هذه التهويمات تتكرر هي الأخرى في غزل المعتمد فهو يقول[1]:

لحاظك طول الدهر حرب لمهجتي	ألا رحمة تثنيك يوما إلى سلمي

إنه حضور لهاجس الحرب، وأجوائها من خلال سهام اللحاظ المعذبة.

ويقول[2]: يا ربة اللحـــــظ الـــــــذي شد وثاقا إذ فتـــــــــــــــــر

1- المعتمد. الديوان. ص 19.

2- م ن. ص20.

وحضور الحرب هنا يبرز من خلال" تضمين " قوله تعالى في سورة " القتال " أي سورة محمد" فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا اثخنتموهم فشدوا الوثاق فإما منا بعد وإما فداء حتى تضع الحرب أوزارها "[1]

والمعتمد يعيش غزواته الغرامية تمويما حربيا إلى حد تساوي الظفر بالحبيب مع الظفر بالعدو، يقول[2]:

ظفرت بقربك بعد امتناع فمن ذاك سُمِّيتُ بالظافـــــر

وهو حين يعيش الحب حربا فلا غرابة أن يرى نفسه بطلا كميا يتعجب من شجاعة الحبيبة المتجرئة وهي تقتحم ساحة قلبه بدرع هواها[3]:

ياظبية سلبت فؤاد محمـــد أو لم يروعك الهزبر الباسل؟

ومثلما يرى نفسه بطلا كميا، وهزبرا باسلا، يرى في -المقابل- الحبيبة فارسا خصما في ساحة الوغى يختال وعدته عيون تبعث بسهام تصمي. يقول[4]:

علقت جائلة الوشـــــاح تَختال بين أسنة وبواتـــــر

فما هو تفسير ظاهرة سيطرة مشاعر الحرب والقتال وسيادتها غزل المعتمد؟.

إن سيطرة مشاعر الحرب والقتال على علاقات المعتمد وعلى حياته العاطفية، بقدر ما تكشف عن مدى الأثر السيئ للصرامة الأبوية التي ظلت تطارد شاعرنا وجعلته يستحضرها وهو يعيش حميمياته تحت مشاعر التأثيم والتقصير والتفريط، فإنها تكشف -في المقابل- عن الصورة التعويضية لعقدة الخصاء وهوامه، فالغزوات الغرامية، ولحظات العشق المتنوعة استعراض فحولي يغطي ما ظهر على الشاعر من عجز بسبب امتزاج التجربة الأبوية الصارمة بلحظة اللهو المسروقة، فهو لا يحيى تلك اللحظة حرا هانئا ولا يحياها مستريحا من أداء واجبه ودوره السياسي، وإنما يحياها على حساب كل ذلك، ولهذا فحينما يخلو بالمرأة ينتفض بداخله إثم التقصير ورعب السخط الأبوي.

1- سورة محمد. الآية 04
2- المعتمد. الديوان. ص 27.
3- م ن. ص 38.
4- م ن. ص 27.

كل هذا يفسر لنا تحول الغزوات الغرامية ولحظات العشق إلى ميادين للطعن والنزال، حتى غدا طعم الظفر فيها لا يختلف عن طعم الظفر في ساحات الوغى والمعارك.

والذي نميل إليه أن هذا الامتزاج قد نغص على الشاعر لذاته ولهوه، مما حرمه من الإشباع العاطفي والجنسي، فكان ظهور الميول الإستعراضية علامة تعويضية تهدف إلى إثبات الذات أمام المرأة من جهة وأمام الوالد من جهة أخرى.

فالمعتمد مهما استطاع أن يتخلص من سيطرة أبيه، ويخفف سطوته بالفرار إلى الملذات واللهو لكنه بسبب ما ذكرنا وجد نفسه في مواجهة المرأة متحررا من أبيه فكان الفشل نصيبه في هذا المجال حتى وجدناه يصرف طاقته النفسية والجنسية ويؤديها في الأحلام. يقول[1]:

إني رأيتك في المنام ضجيعتي	وكأن ساعدك الوثير وســـادي
وكأنما عانقتني وشكوت ما	أشكوه من وجد وطول سهادي
وكأنني قبلت ثغرك والطلى	والوجنتين ونلت منك مـــرادي

إن الأبيات تفيض بمعاني الحرمان، والبعد، والأرق بسببه، وهذا ما دفعنا إلى تقدير أنه بُعد نفسي لا واقعي، وهذا البعد النفسي يعبر عن العجز والخصاء المعنوي، فالشاعر يعترف ويقر بأنه يعذب حين لا يجد مجالا يفجر فيه طاقته لولا أن الأحلام تمكنه من ذلك فيقول[2]:

وهواك لولا أن طيفك زائـــــر   في الغب لي، ما ذقت طعم رقادي

إن اللجوء في الأحلام الليلية، والتهويم أو التطييف في نظر التحليل النفسي لا يعدو إلا أن يكون ضربا من الإشباع بسبب الكبت ذلك أن " المحتوى للظاهر للحلم يمكن... أن يعتبر كتحقيق مقنع للرغبات المكبوتة "[3]، وهذا ما يؤكد لنا صحة ما ذهب البحث إليه من اعتبار فشل المعتمد في تصريف طاقاته النفسية والجنسية إنما

1- المعتمد. الديوان. ص 50.
2- م ن. ص ن.
3- Freud. Sigmund: cinq leçons sur la psychologie. Edi. Payot. France. 1998. P 41.

كان بسبب قوة وعنف الزجر والصرامة الأبوية التي جعلت طاقته تتبدد وتوهن وتنشطر إلى شطرين، إذ رأيناه يعيش غرامياته معارك وتهويمات حربية تؤكد سعيه لإرضاء ذاته دون أن يسخط أباه.

ويبدو أن المعتمد قد استلذ هذا المسلك، فراح يحقق رغباته عبر أحلامه حيث نجده منتشيا بوصف تهويماته الجنسية، التي حررته من ضغط الرغبات، وعززت فحولته الواهنة بفعل الانشطار. يقول[1]:

أباح لطيفي طيفها في الكرى الخد	فعض به تفاحة واجتنـــــى وردا
وألـــمتني ثغرا شـــممت نسيمه	فخيل لـــي أنـــي شـــممت ندا
سقى الله صوب القطر أم عبيـــدة	كما قد قت قلـــبي على حره بردا

وقد بلغ التلذذ وفق هذا المسلك المقنع حدا مازوشيا يستصحب الألم لتحقيق اللذة فيقول[2]:

سأسأل ربي أن يديم بي الشكوى	فقد قربت من مضجعي الرشأ الأحـــوى
إذا علة كانت لقربك علــــــــة	تـــمنيت أن تبقى بـــجسمي وأن تقوى

إن رضى المعتمد بتحقيق رغباته بهذا الشكل يؤكد لنا عمق المعاناة الجنسية، وقوة ضغطها عنده. ومن حق أي كان أن يستغرب وجود مشكلة جنسية لدى ملك في حوزته ثمان مائة امرأة وله قرابة المائتي ولد إلا أنه ليس من حق أحد أن يشكك في أن الانسان يمكن أن يقنع ويغطي هفواته ونقاط ضعفه بنقيض ما يشعره ويعيه، فالجبان ينتفش، ويضخم أضعف مواقفه ومعاركه حتى يجعل من خصومه الصغار أبطالا لا يواجههم إلا هو، والبخيل يحدثك عن كرمه ويجعل من شربة الماء التي قدمها لضيوفه أحلى العصائر التي اجتلبها لإكرامهم وهكذا دواليك...

إن حال المعتمد ومشكلته الجنسية العاطفية الواهنة يمكن أن نجد لها تفسيرا عند علماء التحليل النفسي الذين يؤكدون على أننا " يمكن أن نشعر بمحبة قوية مع ضعف تناسلي أو قوة تناسلية مع محبة ضعيفة "[3] أي أن

1- المعتمد. الديوان. ص 49.

2- م ن. ص 57.

3- Daco, P: Psychologie et liberté intérieure. P 141.

الإنسان يمكن أن يعيش مستشعرا لقوة عاطفية يصحبها ضعف جنسي والعكس. ومما يؤكد أن المعتمد عاش مشكلته هذه هو أنه عاش في عصر قلق وفي سياق معطيات سياسية متناقضة ومصطرعة ولا يمكن لأحد أن يقدر إيقاعها الطاحن أفضل ممن كانوا قريبين منها، بل كانوا صانعيها مثله، فإذا أضفنا المعطيات الحضارية التي عرفتها الأندلس في القرن الخامس الهجري، وما أتاحته من حريات فردية لا نستبعد أن يكون الميل إلى الغزل بالمذكر تعبيرا عن تلك المشكلة وهروبا منها. إنه ومهما كانت عليه الطبقة الأرستقراطية من تفرد وانهماك في مثل هذه الممارسات، ومهما كان موضوع الغزل بالمذكر " ... يدخل ضمن سلسلة التناقضات التي بنيت على أساسها الحضارة العربية الإسلامية وخاصة أيام عنفوانها "[1]؛ مهما كل هذا - فإننا نرجح أن الجانب الجنسي في حياة المعتمد يعد من بين الأسرار المؤثرة في طبيعة شخصيته الثرية ولهذا لا نستبعد أن يكون غزله بالغلمان اعترافا تلقائيا عن انحرافات جنسية شذوذية تعاطاها المعتمد جراء معاناة القهر المتضافرة مع المعطيات السابقة؛ فالقهر في مرحلة الطفولة والصبى دافع للإنحراف ذلك أن "الجنسية المثلية تأخذ مصدرها في الطفولة والمراهقة"[2] ونحن نعلم أن هذه المرحلة الخطيرة من عمر المعتمد قد عرفت بداية توتر العلاقة الأبوية أين شعر بأنه مهمش بسبب سيرته، وأنه مراقب من قبل أبيه الذي فرق بينه وبين صديقه ابن عمار، ومما يؤكد أن غزله بالمذكر تعبير عن رواسب شذوذية يكون قد عاشها فعليا في مرحلة الصبى قوله في مملوكه سيف[3]:

ســـميت سيفا وفي عينيك سيفان	هذا لقتلي مسلول وهـــذان
أما كفت قتلة بالسيف واحـــدة	حتى أتيح من الأجفان ثنتان
أسرته وثنانـــي غنج مقلتـــــــه	أسيره فكلانا آسر عانــــــي
يا سيف أمسك بمعروف أسير هوى	لا يبتغي منك تسريحا بإحسان

إن ما يلاحظ في هذه الأبيات هو استمرار حضور الحس الحربي، وإثبات العلاقة الصراعية بين الحبيب والمحبوب

1- د. عبد الله حمادي. دراسات في الأدب المغربي القديم. دار البعث. قسنطينة. ط1. 1986. ص 408.

2- Daco. P. comprendre les femmes. Marabout. P 258.

3- المعتمد. الديوان. ص 59.

في البيت الثالث مع الإقرار بالهزيمة والتلذذ بها تأكيدا على الحس المازوشي الذي سبقت الإشارة إليه، إضافة إلى إقراره بعدم قدرته واستسلامه أمام "سيف" ومما يؤكد الرواسب الشذوذية قوله متغزلا بالمرأة[1]:

غلامية جاءت، وقد جعل الدجى لــخاتم، فيها فص غالية، خطـــــــا

فقلت أحاجيها بما في جفونـــها وما في الشفاه اللعس من حسنها المعطى

اللافت للإنتباه هو أن سر انجذاب الشاعر للمرأة يكمن في كونها ذات عينين غلاميتين، ثم يكشف فيما بعد عن المعايير الجمالية الجذابة فيها فنجدها معايير ذكورية غلمانية[2]:

أرى نكهة المسواك في حمرة اللمى وشاربك المخضر بالمسك قد خطـــا

عسى قزحا قبلته فأخالـــــــــــه على الشفة اللمياء قد جاء مُـــخَطـــا

وهذا ما يقودنا إلى إثارة علاقته وصداقته المريبة مع ابن عمار فتعلقه به كما رأينا عند استعراضنا لمسار حياته لم يكن تعلقا طبيعيا، حتى إننا نجد المؤرخين يلمحون تلميحات توحي بما ذهبنا إليه فصاحب المعجب يقول عن هذه العلاقة واصفا مرحلة التقائهما بشلب: " ... وساءت السمعة عنهما "[3] .

وقد يفهم سوء السمعة في هذا المقام بسوء تسيير شؤون ولاية شلب غير أن شخصية ابن عمار وسيرته تجعل مذهبنا واردا ومحتملا، فهو كما رأينا " زير قيان وغلمان وصريع راح وريحان، أمله - زعموا - كان بين شرب كأس وشم آس، وجذله في نصب حبالة، لغزال أو غزالة ... "[4] وأكثر من هذا فإننا إذا تتبعنا سياق حياة ابن عمار نجد أن شذوده يعد من أسباب نهايته و مصرعه السيء، فابن بسام بعدما أنهى حديثه السابق عن سيرة ابن عمار و عدّدَ مساوءه أشار إلى أن الباحث يمكن أن يراها كلها "... في أشعاره وتسمعه أثناء

1- المعتمد: الديوان. ص 58.
2- م ن. ص 5.
3- المراكشي: المعجب. ص 174.
4- ابن بسام، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة. ق2 / مج1. ص 373.

أخباره "[1] ثم يؤكد كيف أنها أودت به فيقول " حتى ثل ذلك عرشه وأوهن بطشه وطأطأ من سموه وساقه صاغرا إلى يد عدوه "[2] ونحن نعرف أن نهاية ابن عمار كانت بيد المعتمد حينما وصلته أشعاره التي تصف حالهما بشلب، هذه الحال التي عبر عنها المراكشي فقال إن المعتمد حينما تولى الولاية وهو شاب يافع " استدعاه... وقربه أشد تقريب، حتى كان يشاركه فيما لا يشارك فيه الرجل أخاه ولا أباه "[3] مما يبرر ما ذهبنا إليه من اعتبار ما ورد من شعر الهجاء لابن عمار صحيحا في هذا المجال فهو يخاطب المعتمد قائلا[4]:

أراك توري بحب النســــــــا وقدما عهدتك تهوى الرجالا

ونجد تفصيلات هذا الميل المثلي في القصيدة نفسها -التي توزعت بين المصادر- حيث يقول ابن عمار مخاطبا المعتمد[5] :

أتذكر أيامنا بالصبـــــــــــا وأنت إذ لحت كنت الهلالا

أعانق منك القضيب الرطيب وأرشف من فيك ماء زلالا

وأقنع منك بدون الحــــــــرام فتقسم جهدك ألا حـــلالا

إن لفظة " الصبى " في هذه الأبيات لتؤكد لنا أهمية ودلالة السن ودوره وما عاشه من تجربة الاصطدام بأبيه في هذه المرحلة التي قلنا إنها منشأ العصاب لدى المعتمد علما أن "... العصاب هو... مسودة الانحراف "[6] كما يذهب إلى ذلك فرويد الذي يقول: " إننا نجد في لاشعور كل العصابيين بدايات ميول إلى اللوطية "[7] وهذا ما يدفعنا إلى الجزم مطمئنين بأن المثلية عند المعتمد تعد إحدى محطات مسار حياته، وليس تناقضا ما قد يبدو بين ما رصدناه من ميول غلمانية ظهرت في أشعار المعتمد، وبين ما نراه في شعر ابن عمار أين نجد المعتمد منفعلا، لا فاعلا كما تصرح أشعاره، فالإنسان المثلي قد يُصنَّف شذوذه الجنسي ضمن " الارتكاس الثنائي الذي يتميز

1- 2- ابن بسام. الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة. ق2 / مج1. ص .373

3- عبد الواحد المراكشي. المعجب. ص .174

4- العماد الأصفهاني. خريدة القصر وجريدة العصر. تحقيق آذرتاش آذرتوش وآخرون. الدار التونسية للنشر. 1971. القسم الثاني/ ص .83

5- المقري. نفح الطيب. ج5. ص .140

6- 7- رولان دالبيز. طريقة التحليل النفسي والعقيدة الفرويدية. المؤسسة العربية للدراسات والنشر. بيروت. الطبعة الأولى. 1983. ص 141.

أصحابه بكون... موضوعاتهم الجنسية من جنسهم أو من الجنس المقابل "[1]، وغير مستبعد أن المعتمد يصنف ضمن ذوي الارتكاس الثنائي خصوصا وأن التجاذب يعد أحد أكبر ملامح مسار حياته.

إن ما يستخلص من غزل المعتمد يمكن ضبطه في السمات الآتية:

1- تتجلى عقدة الخصاء وهوامه في غزل المعتمد بوضوح، وهذه العقدة وهوامها تطورتا عن عقدة أولية سابقة وهي عقدة التخلي التي مسته بفعل التهميش الأبوي وتفضيل أخيه وتقديمه عليه. فكان التهوين والتهميش بمثابة العلة الأولى لعقدة الخصاء وهو ما تؤكده إحدى قواعد التحليل النفسي التي تقول إن " ... كل خفض في قيمة الذات يعاش في اللاشعور على أنه ضرب من خصاء"[2].

2- وعقدة الخصاء وهوامه نتيجة طبيعية لمسار النشأة، في ظل والد ساحق قهر أبناءه على السير في خطه ونهجه، ونال المعتمد قسطا وافرا من القهر، لأنه كان فنانا؛ تتناقض شخصيته مع صورة الشخصية التي كان والده يرجوها ويعده لتمثلها مما زرع فيه بذور العصاب، وظهور العقد الضاغطة على سلوكه.

3- يكشف غزل المعتمد أن الرجل كان يظهر أنه سريع الغواية والافتتان وسبب ذلك استبداد مشاعر العجز به وتكبيلها له، لأنه جعل من الغزل هامشا لصد الضغط الأبوي ومقاومة قهره، وقد انعكست هذه الإوالية الدفاعية في شكل تهويم حربي، وتغن بالبطولة، حتى صار يؤمن بأن الانتصارات الغرامية معادلا موضوعيا للانتصارات الحربية التي يعدها الشاهد الوحيد المثبت لبطولته أمام الوالد، وفي سياق دفعه لقهر أبيه تكون قواه العاطفية قد تضاءلت، وقل وهجها؛ فراح يظهر سرعة الغواية والافتتان، وهذا ما دفعنا إلى اعتبار هذه الإوالية ذات هدف مزدوج، يكسبه رضا الوالد ويثبت فحولته وصدق مشاعره أمام المرأة.

4- سيطرة الحس الحربي على غزل المعتمد أدت إلى كثرة الألفاظ الحربية ومعانيها وعباراتها مثل: ظفرت، حرب، يروع، الباسل، أسنة،البتر،بواتر،سلم الهياج،فتكات،أرماح،السروج،قتلة،شد وثاقا،العداة، سيف...

1- فرويد. ثلاث رسائل في نظرية الجنس. ترجمة د. محمد عثمان نجاتي. دار العلم للملايين. بيروت. ص35.

2- جورج طرابيشي. الروائي وبطله. دار الآداب. بيروت. الطبعة الأولى. 1995. ص 57.

5- يمكن اعتبار سيطرة الحس الحربي على غزل المعتمد ضربا من عقدة الاثمية فالمعتضد (والده) بملاحظاته القاسية تركته يعيش تجاذبا وجدانيا بين واقع مغر ونفس فنانة، وبين مثال مرسوم ونهج محدد لا مناص من السير فيه؛ فحينما ينغمس في لذاته يستشعر التفريط فيتولد لديه الشعور بالإثم والتقصير.

6- كشف لنا غزل المعتمد عن ظهور علامات شذوذية أكيدة أرجعنا سببها إلى القهر الأبوي أساسا، وللمعطيات الحضارية التي عرفتها الأندلس، حيث كانت نوازع التفرد حقا شخصيا لا تطاله لا القيم الدينية ولا السلطات الاجتماعية ما لم يمس القوانين العامة أو يخل بالصورة المثالية للملك، وكشفنا أن خط التجاذب الوجداني ظل بارزا من خلال ظهور ملامح الشذوذ الايجابي والسلبي، وتمسكنا بالسبب الوحيد لهذه العلة مقتصرا على " القهر الأبوي " لا يعني أننا لا نبالي بنظرية التحليل النفسي التي تنظر إلى المثلية على أنها إحدى ثمار العقدة الأوديبية. وإنما أعرضت عن الخوض فيها بسبب غياب أدنى المعطيات عن طفولة المعتمد، وعلاقته بأمه وهل هي سيدة قصر المعتضد أم أنها " العبادية " التي رجحت أنها أمه؟

والمؤكد أن غياب هذه المعطيات لم يكن حائلا أمام إثبات حقيقة العلامات الشذوذية، والشذوذ الجنسي عند المعتمد إذ يظهر كعلامات لا يعني بحال أنه انحرف مرضي مزمن بل كان استجابة ظرفية لضغوط آنية ما قدر المعتمد قدرها ولا أدرك بعدها إلا بعدما دبت الخلافات بينه وبين ابن عمار وسوف تطفح تداعيات هذه التجربة في سياق تحولات كبيرة على شخصية المعتمد فتكون -في نظر البحث- من أكبر أسباب أخطر قراراته مع ابن عمار.

ج- الاعتذار والمدح:

الاعتذار والمدح مفتاحان هامان من مفاتيح شخصية المعتمد فإذا كنا قد رأينا بأن منشأ الشحوب والتعلل بالمرض عند الحديث إلى المرأة والتغزل بها عادة اكتسبها وورثها عن علاقته بأبيه، ثم نقل هذه العادة إلى غزلياته فصارت آلية استعطاف يتجدي بها كل سلطة قاهرة يشعر أمامها بالعجز. فإن أفضل طريقة لتفحص منشأ هذه

الإوالية بوضوح هو قراءة شعر الاعتذار والمدح.

والإعتذار والمدح غرضان شعريان يدل اسم كل واحد منهما على سلطة قاهرة دفعت المعتذر إلى طلب العفو، ودفعت المادح إلى طلب العطاء، وعليه فالمعتذر والمادح لا ينجوان من التصنيف والإدراج في خانة أصحاب " اليد السفلى " وهنا يكمن سر اقتران المدح وملازمته للإعتذار فهما يرتكزان على حالة واحدة تولدهما، وهي حالة الدونية التي تسكن المعتذر فلا ينهي قصيدته إلا مادحا.

والغرضان في ديوان المعتمد معلمان هامان من المعالم المعينة لنا على فهم طبيعة وحقيقة العلاقة الأبوية التي رأينا أنها من المحددات الكبرى لشخصية شاعرنا، ومن أبرز الملاحظات اللافتة للإنتباه هي اقتصار الغرضين في -الديوان- على الأب دون سواه كما أن المدح يمكن أن نسميه حمدا فهو من قبيل الشكر للوالد - أيضا - ولهذا أدرجه محقق الديوان ضمن شعر المناسبات التي جرت العادة أو المراسيم الملكية بأن يقابل الشاعر تكريمات والده الملك بمثل هذا الشعر الحمدي.

ولعل السؤال الوجيه الذي يتبادر إلى الذهن هو كيف لهذين الغرضين أن يكشفا حقيقة وطبيعة العلاقة الأبوية وهما الغرضان الملتبسان بالطابع الرسمي حيث تطغى العواطف المصطنعة ويكثر الزيف والتكلف؟ ثم أليست الرواية الرسمية حريصة على إخراج وتصوير " العلاقة الأبوية " تصويرا نموذجيا مثاليا، إذ لا ترضى إلا بالنبل، فالابن - حسبها - ملتزم الشكر والأب مصدر الأبوة الحامية؟ فهل نجد في الاعتذار والمدح غير هذه الصورة النبيلة؟

الحق أن مثل هذه الأسئلة تزيد من إصرارنا على الغوص في خبايا النصوص وتسليط الضوء على الجزئيات والمعاني الهامشية، والمؤثرات الخفية التي عادة ما تضيع في زحمة المحتوى الظاهر والمعنى أو المعاني الكبيرة، أي أننا ننساق إلا وراء لغة اللاشعور الكامنة في النص فنحاول تقشير الرسميات التي تغطيها إذ لا شك أن تلك اللغة اللاشعورية تبحث عن من يكسر عنها القشرة فقط لتهبه قصب السبق مؤذنة بالإفتضاض؛ فحينما يعتذر

شاعرنا لأبيه قائلا[1]:

أقلني تجد عبدا شكورا وصارما يحز من الأعداء ليتا وأخدعا

أليس هذا تأكيدا لما وصل إليه التحليل السابق الذي كشف الأثر القوي للمعتضد على ابنه وبين أنه من صنف الوالد الساحق حيث نجد الإبن في هذا البيت مدركا أنه لن ينال رضا أبيه، إلا بامتثالية صماء تجعله آلة صماء صارمة يحز بها الوالد أعناق أعدائه؟.

إن المحتوى الظاهر أجبن من أن يدين الوالد، لهذا يسارع إلى مباركة العفو الأبوي وشكر الأبوة والتوبة من قبل الإبن وهذا منتهى ما تطمح إليه الرواية الرسمية وعليه فإننا سنعمل جاهدين على تتبع لغة اللاشعور، لأنها اللغة الأشف، والأصدق والأقدر على تجلية قوة أثر الوالد الساحق على شاعرنا.

أ- الاعتذار:

أول ما يلفت الانتباه في ديوان المعتمد أنه يتشكل من مقطوعات شعرية- بالمعنى الإصطلاحي- للمقطوعة[2] أما القصائد فعددها ثلاث وثلاثون قصيدة في الديوان كله، نظم عشرين منها في الأسر، والبقية فهي بنت مرحلة الإمارة والملك، وإذا كان أثر الأسر بارزا في شحد قريحة الشاعر، فإن اللافت للإنتباه في الديوان هو أن أطول قصيدة فيه إنما جاءت في الاعتذار لأبيه حينما خسر رهان فتح مالقة!!.

إن المعتمد مر بتجارب حياتية ضخمة من خسران المعارك، وفقدان الأبناء وضياع الملك والمملكة إلا أن أطول قصيدة لم تأت في مثل هذه التجارب القاسية، بل جاءت في الاعتذار لأبيه. فهل كان المعتمد حريصا على رضاه وعفوه أكثر من حرصه على كل ما سبق؟ أم أن الرضا الأبوي أغلى من الأبناء والملك والملكة؟.

إن القراءة بالمنهجية السابقة تقودنا إلىالإجابة بالنفي، لأنها ترى أن السخط الأبوي كان أقسى وأمر وأعمق

1- المعتمد. الديوان. ص 97.

2- يقول ابن رشيق: "... وقيل إذا بلغت الأبيات سبعة فهي قصيدة... ومن الناس من لا يعد القصيدة إلا ما بلغ العشر وجاوزهم ولو ببيت واحد " أنظر:

- ابن رشيق: العمدة تحقيق د. عبد الحميد هنداوي. المكتبة العصرية. بيروت. ط1. 2001. ج1. ص 180.
- جبور عبد النور: المعجم الأدبي. دار العلم للملايين. بيروت. ط2. 1984. ص 213 و ص 262.

أثرا في نفسية الشاعر التي تبدو في قصيدته الأطول في غاية التضعضع والانسحاق أمام الغضبة الأبوية الممضة والمبعثرة لقطاعات نفس شاعرنا، المذوبة بنار السخط المعتضدي.

قد تبدو هذه الملاحظة غير مبنية على جمع الإبداع الشعري الذي قاله المعتمد في مراحل مختلفة من حياته، فهو يوم كان أميرا يختلف عنه بعدما أصبح ملكا، وهو يوم كان شابا غض الشخصية، ليس هو بعدما صار أصلب عودا وأكثر مسؤولية.

إلا أن مثل هذا التحفظ يدعم مذهب البحث أكثر مما يضعفه، لأن التجارب القاسية في المراحل الأولى هي الأكثر والأعمق تأثيرا وضغطا على شخصية المرء من التجارب التي تأتي بعد النضج، ونحن نرى أن التجربة الأكثر عمقا وضغطا على شخصيته هي تجربة الوالد الساحق كما ينطق بذلك طول هذه القصيدة التي قالها وهو صغير في مرحلة الإمارة.

هيكل القصيدة ومحتواها الظاهر

عند النظر في القصيدة وتأمل معانيها تنجلي لنا مجموعة من المعطيات النفسية المهمة والمبينة لحقيقة أثر المعتضد في ابنه المعتمد، حيث نجد نصف القصيدة يدور حول هذا الأثر الذي لا نتردد في وصفه بالأثر المؤلم، فالشاعر يبدو في الأبيات التسعة الأولى كالقائد المذهول يهذي كالمحموم من وقع صدمة الخسارة التي أطارت نفسه شعاعا. وتركت قلبه فارغا يكاد أن يطير من بين جنبيه لولا أن يربط عليه بالإيمان بالقدر، وتسلية النفس بأن الخسارة عثرة في مسار لازالت مسافته طويلة ومراحله التي قطعت لا تخلو من إنجازات تصون النفس من الانكسار فيقول:

سكن فؤادك لا تذهب به الفكـــــر ... ماذا يعيد عليك البث والحـــــــــذر؟

وازجر جفونك لا ترض البكاء لهـــا ... واصبر فقد كنت عند الخطب تصطبر.

وإن يكن قدر قد عاق عن وطـــــر ... فلا مرد لـــما يأتـــي به القـــــــــدر

وإن تكن خيبة في الدهر واحـــــدة فكم غدوت ومن أشياعك الظفـــــر؟[1]

ويحاول الشاعر ألا يترك لسيل عواطف الرعب أن يغمر اتزانه، ويُغْرِق رباطة جأشه، فيشق طريقه إلى ذلك بالتساؤل المسكن للروع والاستفهام الزاجر للنفس عن استرسالها في الجزع[2]:

إن كنت في حيرة من جرم مجترم فإن عذرك في ظلمائها قمـــــر

كم زفرة في شغاف القلب صاعدة وعبرة من شؤون العين تنحدر؟

ولا يجد الشاعرما تسلو به نفسه سوى تفويض أمره لله، وتعويله على صفح أبيه والتاريخ النبيل لأجداده[3]:

فوض إلى الله ما أنت خائفـــــه وثق بـــمعتضد بالله يغتفـــر

ولا ترعك خطوب إن عدا زمن فالله يدفع والمنصور ينتصـــر

واصبر فإنك من قوم أولي جلـــد إذا أصابتهم مكروهة صبروا

وعند هذا البيت ينعطف الشاعر نحو أبيه وارث أمجاد الأجداد الذين إذا أصابتهم مكروهة صبروا فيقول له[4]:

من مثل قومك؟ والملك الهمام أبو عمرو-أبوك-؟ له مجد ومفتخر

وعند هذه الانعطافة يستجمع الشاعر قواه ويلتقط أنفاسه، ليقترب أكثر من نفس أبيه المحبة للمجد فيمسح أعطافه بالمدح مضفيا عليه كل الصفات والمناقب العزيزة عليه، ولا يجد أفضل من جعله سيدا كريما تفيض يداه بالآلاف من العطايا دون أن يشعر بالرضا لأنه يستقلها ويتمنى المزيد، وهذا السيد الكريم مثلما يفيض جودا وكرما فإنه يفيض بأسا وجبروتا فيده الندية مثلما هي قبلة المعتفين طلبا لمواهبها، فإنها قبلة الجبابرة لتأدية

1- المعتمد. الديوان ص 99، 100.

2- م ن. ص 100.

3- م ن. ص ن.

4- م ن. ص ن.

مناسك الخنوع والولاء بتقبيلها يقول[1]:

سميدع يهب الآلاف مقتدرا ويستقل عطاياه ويـــحتقر

له يد كل جبار يقبلهـــــا لولا نداها لقلنا إنها الحجر

و لم يجد الشاعر لحظة أفضل من هذه لتمرير اعتذار لأبيه وطلب صفحه فخاطبه قائلا[2]:

يا ضيغما يقتل الأبطال مفترسا لا توهنني فإنـــي الناب والظفر

وفارسا تحذر الأقران صولتـــه صن عبدك القن فهو الصارم الذكر

و لم ير المعتمد بأسا أن يستغل نشوة أبيه إذ أسبغ عليه هذه الصفات، ليتحدث عن نفسه فذكره لافتا انتباهه إلى بركته ويمنه؛ فما رقب المعتضد وجه المعتمد إلا وكان فأل خير عليه وما وجهه لأمر إلا انقضى[3]:

هو الذي لم تشم يمناك صفحته إلا تأتى مراد وانقضى وطر

وكأن الشاعر يجد الفرصة مواتية لتقديم مبررات عثرته وهي لا تناقض يمنه وبركته التي ذكرها سابقا ـــ وتقديم أسفه وحسرته وأساه المتجلي من سماته الشاحبات ودموعه الهاميات، حتى شاب لهولها، وهو من الولدان وعليه فلا يستحق -بعد هذا- إلا الصفح والعفو[4]:

قد أخلقتني صروف أنت تعلمها وقال موردها: مالي بها صدر

فالنفس جازعة والعين دامعـــــة والصوت مرتفع والسر منتشر

وزاد همي ما بالجسم من سقم وشبت رأسا و لم يبلغني الكبر

وذبت إلا ذماء في يـــمسكني: أني عهدتك تعفو حين تقتدر

1- المعتمد. الديوان ص 100.
2- م ن. ص 101.
3- م ن. ص ن.
4- م ن. ص ن.

والشاعر إذ يقر بذنبه كما يقتضي المقام إلا أنه لا يلبث أن يحمل غيره إثم ووزر الهزيمة فيقول[1]:

كم يأتي عبدك ذنبا يستحق بــــه	عتبى، وها هو قد ناداك يعتـــــذر؟
ما الذنب إلا على قوم ذوي دغل	وفـــى لهم عهدك المعهود إذ غدروا

ولا شك أن هذه الفئة أو الطبقة العازلة كانت محل ثقة الأب الذي وفى لها كعهده المعهود معها، إلا أن ثقة الأب لم تشفع لهذه الفئة أمام الشاعر الذي كال لها ما تستحق من الذم والهجاء فقال[2]:

قوم نصيحتهم غش، وصدقهم	مين ونفعهم إن صرفوا ضـــــرر
يميز البغض في الألفاظ إن نطقوا	ويعرف الحقد في الألحاظ إن نظروا
إن يحرق القلب نفث من مقالهم	فإنـــما ذاك من نار القلى شـــرر

ثم يعود بعدها لطلب الصفح والعفو حيث يصف أثر سخط أبيه عليه إذ تركه في حالة عجز وشلل أفقدته لذة الحياة وطعمها[3]:

مولاي! دعوة مـــملوك به ظمأ	برح وفي راحتيك السلسل الخضر
أجب نداء أخي قلب تملكـــــه	أسى، وذي مقلة أودى بها السهر
لم أوت من زمني شيئا أسر بـــه	فلست أعهد ما كـــأس ولا وتر
ولا تـــملكني دل ولا خفـــــر	ولا سبى خلدي غنج ولا حـــور
رضاك راحة نفسي لا فجعت به	فهو العتاد الذي للدهر أدخـــــر
وهو المدام التي أسلوبـــها فـــإذا	عدمتها، عبثت في قلبي الفكـــــر
ما تركي الخمر من زهد ولا ورع	فلم يفارق -لعمري- سني الصغر
وإنـــما أنا ساع في رضاك فـــإن	أخفقت فيه فلا يفسح لي العمـــر

1- المعتمد. الديوان ص 101، 102.

2- م ن. ص 102.

3- م ن. ص 102، 103.

ما سرني وأحاشي عصر عطفكـــم　　　يوم أحل في عيني القصـــــــــــر

فالأبيات تفيض بمعاني العجز والحاجة إلى الأب، و الشاعر لن ينعم الشاعر بالحياة الملأى بالملذات ما لم يعفو أبوه عنه ويهبه صفحه الأغلى والألذ من كل تلك الملذات؛ بل إن لذاته الشخصية لتذوب وتتحول إلى لذات الأب فيصير الإبن ملتذا بما يلتذ به أبوه[1] !!:

أجل ولي راحة أخرى علقت بـــها　　　نظم الكلى في القنا والهام تنتثـــر

كم وقعة لي في الأعداء واضحـــــة　　　تفنى الليالي وما يفنى لها الـــخبر

سارت بها العيس في الآفاق فانتشرت　　　فليس في كل حي غيرها ســـمر

وهنا يكون الشاعر قد صحح خطيئته أمام أبيه، وعدلها وفق الخط المرسوم والنهج المعلوم الذي يرضاه هذا الأب لأبنائه، وبعد هذا التصحيح والتعديل لا يبقى أمام شاعرنا إلا تجديد الولاء، وإخلاص الدعاء لأبيه، وإعادة رجائه في أن يسبغ عليه عفوه ورضاه[2]:

لازلت ذا عزة قعساء شامـــخـــة　　　لا يبلغ الوهم أدناها ولا البصـــر

ولا يزال وزر من حسن رأيك لي　　　آوى إليه فنعم الكهف والـــــوزر

إليك روضة فكري جاد منبتهـــا　　　ندى يـــمينك، لا طل ولا مطـــر

جعلت ذكرك في أرجائها شجرا　　　فكل أوقاتـــها للمجتني ثـــمـــر

وعليه فالقصيدة تتشكل من أربع وحدات كبرى حيث نجد في الوحدة الأولى من مطلع القصيدة إلى البيت العاشر أن الشاعر لا يزال تحت وقع الصدمة واهنا يعزي نفسه ويقدم لها ما يعيد توازنها، ويرأب صدعها، فهي في حالة انشطار والشاعر يرممها ويركبها معيدا الثقة إليها.

أما الوحدة الثانية فتنتهي عند منتصف القصيدة، أي عند البيت العشرين حيث الشاعر قد نجح في رد توازنه

1- المعتمد. الديوان ص103.

2- م ن. ص 103، 104.

وإعادة الثقة بنفسه؛ إذ يخاطب أباه مادحا مستعطفا إياه أن يقيل عثرته، مقدما مبرراته، مقرا بذنبه.

وأما الوحدة الثالثة التي تنتهي عند البيت السادس والثلاثين، فهي أطول وحدة تبدو فيها ثقة الشاعر بنفسه قد زادت حيث تبرأمن ذنبه وحمله لبطانة أبيه، التي صب عليها جام غضبه و لم ينس أن يؤكد من جديد ضراعته واعتذاره وإخلاصه في طلب الرضا والعفو؛ فكشف أنه فقد طعم الحياة وسرورها ما لم ير أباه عنه صافحا راضيا.

وعند الوحدة الأخيرة أخلص الشاعر الدعاء لأبيه وجدد الولاء له متمنيا أن يظل ملاذه وركنه الذي يأوي إليه.

إن هذه القصيدة تروي لنا بوضوح حقيقة العلاقة الأبوية وأثرها في شخصية شاعرنا الذي يتمثل له أبوه في كل مكان؛ فلا يرى لنفسه وجودا إن لم ير أباه إلى جنبه راضيا، فإن سخط أو أعرض فقدت الدنيا قيمتها، وفقد شاعرنا اتزانه وتذوقه للحياة، وهو ما يوحي بأن المعتمد يرى في أبيه " الأب الحامي " لا " الأب الساحق" كما يذهب البحث وهو ما يثير التساؤل عن حقيقة الأب في هذه القصيدة. هل هو أب حام أم أب ساحق؟ أو .بمعنى آخر هل القصيدة تؤكد مذهب ومطمح الرواية الرسمية العائلية التي أشرنا إليها؟ أم أنها تكشف وتؤكد فرضية البحث الدامغة للمعتضد بدمغة الوالد الساحق؟.

إن المناخ النفسي لا يمكن ضبطه إلا من خلال رصد الظواهر المختلفة التي تتكرر في حالات وفي تجارب ومواقف محددة، وكلما تكررت الظاهرة عند محدد ما، دل ذلك على طبيعة المناخ النفسي. والموقف الذي أنتج هذه القصيدة موقف استثنائي حرج ومثل هذه المواقف تبدو فيها شخصية الإنسان على حقيقتها المتجردة من قناع الرسميات إذ تنفلت من أسر الوعي والتخطيط والتدقيق في الكلام لتخرج على الساخن يعلوها دخان الإنفعال الفائر، وعليه فما هي الظواهر المميزة لشخصية المعتمد في هذه التجربة؟ وما هي صورة أبيه الراسخة في نفسه يا ترى؟

القائد المنهزم... الطفل الباكي/ الأب المفترس

بلغت دولة المعتضد أوج قوتها فصارت ملاذ الأرومة العربية عصرئذ حتى كان " أهل مالقة إذا جرى ذكر عباد ارتاحوا إليه ارتياح الغصون تحت النسيم، ورفعوا أصواتهم بالصلاة عليه والتسليم "[1] وكانت هذه الصورة الجليلة أعز مطمح يسعى المعتضد لنيله؛ فلم يكن يسمح لأحد أن يعرضها للاهتزاز، واهتزازها يعني انفجار بركان غضب وسخط دونه الموت، ولهذا كانت الهزيمة تساوي الموت عند ابنه المعتمد الذي عبر عن ذلك بقوله لأبيه[2]:

وإنـــما أنا ساع في رضاك، فإن أخفقت فيه، فلا يفسح لي العمر

والمعتمد يدرك أن خسارة معركة في نظر العقل والعقلاء ليست نهاية الدنيا فالحياة ليست سلسلة من النجاحات المتصلة والعبرة بالمحصل العام[3]:

وإن تكن خيبة في الدهر واحدة فكم غدوت ومن أشياعك الظفر

إلا أنه يعلم أن لا مجال لصوت العقل أمام شبح العجز والخور المرتسم أمام ناظري المعتضد وهو يرى جيشه يولي الدبر خائبا، لا يغيث مستغيثا، ولا يحقق رجاء الأصدقاء والأشياع ... إن هذه الهزيمة لطعنة نجلاء، لا يقل أثرها ووقعها عن وقع أثر تخمينات منجمية وتأويلات كوابيسه التي طالما أرقته.

كان المعتمد مدركا لنفسية أبيه محيطا بمشاعره، ولهذا لم يكن أمامه إلا التقنع بمجموعة من الحيل الدفاعية التي يسميها علماء النفس "إواليات الدفاع"[4] علها تقيه سخط أبيه وتنجيه من غضبه، وأبرز هذه الإواليات ما يأتي:

1- ابن بسام. الذخيرة. القسم الثاني المجلد الأول. ص 49.
2- المعتمد. الديوان ص 103.
3- م ن. ص 100.
4- جان لابلانش وج. ب. بونتاليس. معجم مصطلحات التحليل النفسي. ص 132.

v " إواليات الدفاع " البارزة في القصيدة:

1- التبرير:

وهو إحدى الحيل الدفاعية التي " تقي الفرد من الاعتراف بالأسباب الحقيقية غير المقبولة لسلوكه، أو هو حماية للفرد من الإعتراف بالفشل أو العجز "[1]، وتبدو هذه الحيلة جلية في قوله[2]:

قد أخلقتني صروف أنت تعلمها	وقال موردها ما لي بها صدر
وزاد همي ما بالجسم من سقـــم	وشبت رأسا و لم يبلغني الكبر

فالشاعر يتعلل بصروف وأسقام يعلمها الوالد، ولا تسعفنا المصادر التاريخية بذلك رغم استقصائها وإحاطتها بجوانب حياته في هذه المرحلة ومرحلة الملك بعدها، وهذا ما يدفعنا إلى ترجيح فكرة الحيلة الدفاعية التي تنجيه من الإقرار بالأسباب الحقيقية لانقلاب نصره إلى هزيمة، بل إنه يلجأ إلى حيلة أخرى هي:

2- الإسقاط:

وهو حيلة دفاعية " ينبذ فيها الشخص من ذاته بعض الصفات، والمشاعر، والرغبات وحتى بعض " الموضوعات " التي يتنكر لها ويرفضها في نفسه كي يموضعها في الآخر، سواء أكان هذا الآخر شخصا أم شيئا "[3]ولا شك أن المعتمد حين يتحدث عن الطبقة العازلة أو بطانة أبيه فيدينها بقوله: " ... ونفعهم، إن صرفوا ضرر "[4] إنما يتترس بحيلة الإسقاط؛ حيث يرمي بعيوبه وضعف كفاءته العسكرية التي هي أسوأ صفة يدينها أبوه ويدينه بسببها، وقد تجلى ضعف المعتمد عسكريا حين نصحه أهل مالقة - عندما فتحها في بداية الأمر وكان النصر حليفه - بأن يثبت جواسيسه وألا يغفل عن مطاردة الممتنعين بالحصون غير أنه " عدل عن انتهاز فرصتهم،

1- د. فيصل عباس. التحليل النفسي للشخصية. دار الفكر اللبناني. بيروت. ط$_1$ 1994.ص 94.

2- المعتمد. الديوان. ص 101.

3- جان لابلانش وج. ب. بونتاليس. معجم مصطلحات التحليل النفسي. ص 70.

4- المعتمد. الديوان. ص 102.

وإبراء غصتهم إلى الاستراحة من تعبه والإناخة على لهوه ولعبه وتفرق أصحابه في ارتياد الفتيات وطراد اللذات... "[1] مما يؤكد أنه يرمي نفسه ويدينها أكثر مما يرمي خصومه ومستشاري أبيه حينما قال عنهم " ونفعهم، إن صرفوا ضرر " فقد كان غرا ضعيف الحزم فأضر و لم ينفع.

3- التماهي بالمعتدي:

قد يبدو وصف الوالد بالمعتدي وصفا مبالغا فيه، كما أنه قد يبدو انسياقا وراء مصطلحات ونظريات نفسانية، إلا أن الرجوع إلى تداعيات الهزيمة والإخفاق في فتح مالقة يكفينا عناء الرد على مثل هذه التحفظات المتوجسة حيث تقول المصادر إن المعتمد عقب الهزيمة "... آوى إلى أحد المعاقل، أعرى من الحسام، فحقد المعتضد عليه... "[2] ومن معقله هذا " خاطب المعتمد أباه بالشعر المتقدم الذكر... "[3] يستعطفه ويعتذر إليه ولولا هذه الطريقة "... لتبت يداه ولحق إسماعيل أخاه "[4] وعليه فالمعتمد كان في وضعية تستدعي هذه الإوالية الدفاعية، لأنه يدرك جيدا وقع الفشل على نفسية أبيه فحينما يجابه الشخص بخطر خارجي "يتمثل نموذجيا بانتقاد صادر عن سلطة ما فإنه يتماهى مع المعتدي عليه، إما بأن يتبنى لحسابه العدوان بحد ذاته وإما من خلال المحاكاة الفيزيقية أو المعنوية لشخص المعتدي، أو من خلال تبني بعض رموز القوة التي تدل عليه "[5] والتأمل في القصيدة يقودنا إلى إدراك هذه الحيلة الدفاعية في قوله[6]:

أجل، ولي راحة أخرى علقت بها   نظم الكلى في القنا والهام تنتثر

وكأن هذه الصورة تتضمن إشارة إلى الحديقة المعتضدية التي تطلع الرؤوس منها حيث كان أبوه يتلذذ ويتتزه بمنظرها المرعب الذي يعد من أكبر شناعاته الفظيعة، والشاعر إذ يعبر عن راحته وتعلقه بهذه الصورة الدموية.

1- ابن خاقان. القلائد. ص 21.
2- م ن. ص ن.
3- ابن بسام. الذخيرة. ق2 مج1. ص 50.
4- م ن.ص ن.
5- جان لابلانش وج. ب. بونتاليس. معجم مصطلحات التحليل النفسي. ص 203.
6- المعتمد. الديوان. ص 103.

إنما يكشف عن تماهيه وتبنيه لأفعال أبيه، على سبيل التطابق مع الصورة الحازمة التي يريدها المعتضد لكل أبنائه ومنهم المعتمد، وإلا فإن شخصيته الحقيقية إنما هي شخصية الفنان؛ فهي أرأف وألطف من أن ترتاح بنظم الكلى في القنا، وبالهامات المتناثرة، ولو كانت – حقا- كما ذكر لما وصل إلى ما فيه.

إن المعتمد - بلا شك - لم يكن دمويا إلى هذا الحد الذي يفصح عنه شعره في الظاهر فالمحتوى الباطن يقول إن مثل هذا الكلام لا يعدو أن يكون تماهيا بالمعتدي. وهذه القصيدة الإعتذارية إذ تضمنت بعض " الإواليات الدفاعية " لم تخل من ظواهر نفسية مماثلة لها لعل أبرزها " تبخيس الذات " وإدانتها حيث يجعل نفسه عبدا قنا أمام أبيه فيقول[1]:

.... صن عبدك القن ....

وتتكرر صفة العبودية في القصيدة مقررة ومقرة بالإدانة الصريحة للذات في قوله[2]:

" كم يأتي عبدك ذنبا " أو في قوله[3]: " مولاي دعوة مملوك "

ولئن كان تبخيس الذات علامة إحباط يقطع النفس، ويزعزع الأنا، فإنه في المقابل باب واسع ندخل منه إلى حقيقة العلاقة الأبوية، وصورة الأب في ذهن الإبن الذي لا يرى في أبيه إلا المالك المتصرف في عبده كيفما يشاء، وليس أمام العبد إلا أن يكون دائما على أهبة الاستعداد والتجند، فهو طوع ورهن إشارة السيد المالك.

إن هذه الصورة السيئة تتكرر في الديوان حيث نجد الشاعر يخاطب أباه بهذه اللغة المبخسة قائلا[4]:

لعبدك همـــة هامـــت   بركض الضمر الـــجـــرد

ويرغب ضارعا منهـــا   إلـــى علياك فـــي الـــورد

وإن تقبضه من عبـــد   تـــمن به على عبـــــــد

1- المعتمد. الديوان. ص 101.
2- م ن. ص ن.
3- م ن. ص 102.
4- م ن. ص 81.

فهو يعلن عن رغبته في ألعاب الفروسية بنفسية " العبد " والغريب أنه حين يلبي طلبه يزداد تبخيسه لنفسه أمام أبيه فعندما " بعث إليه (جوادا) مسرجا ملجما كتب إليه"[1]:

خلعت ثوب الصفـــي   على العبيد الوفـــــي

وفي مثل هذه المواقف لا يتأخر المعتمد عن التذكير بأنه مدرك لدوره المرسوم فيقول[2]:

فسوف أورد رمـــحي   عليه قلب الكمـــــي

ولفظة " العبيد " تعبر بصدق عن عمق الشاعر المقهور، والأمير الذي يجهد نفسه في التطابق مع الخط المرسوم حتى إنه يعلنها صراحة وهو يخاطب أباه[3]:

مولاي يا ذا الأيادي   كواكفات الغوادي

أنا عبيد معـــــــد   لحسم داء الأعادي

مما يكشف أن تبخيس الشاعر لذاته في هذه القصيدة الإعتذارية التي ندرسها. وهو علامة نفسية محبطة أمام الوالد غير الراضي عن سيرة لاهية. لا تليق بأمير مرشح لتولي أمر الدولة برمتها، وهذا الإحباط هو الذي ولد في ذهنه صورة " العبد " الحقير حد التصغير " العبيد " و" السيد الجبار المالك ".

وعند العودة إلى القصيدة نجد العبد مثقلا بالمهام والواجبات إلى حد أنه لم يعد يطيق حملها مع التعنيف والزجر حيث يقول لأبيه[4]:

....   لا توهنني فإنـــي الناب والظفر

والحق أن المعتمد أصدق ما يكون حين يرى نفسه مجرد ناب أو ظفر يغرزها سيده في ظهر الأعداء، فهي صورته الحقيقية أمام أبيه تبين مدى الضآلة والاحتقار اللتين يشعر بهما.

تلك هي صورة العلاقة الأبوية في أصدق تجلياتها، فالوالد لم يكن حاميا وإنما كان قاهرا ساحقا وسلطة راغمة

1- 2- المعتمد الديوان. ص.88

3 - م ن. ص .84

4- م ن. ص 101.

رادعة للأبناء، لا تقبل منهم أن يزيغوا عن نهج الآباء، ولا ترضى لهم أن يضيِّعوا ملكا بناه على الأشلاء. فهي شخصية لا ترضى لهم الخطأ مهما صغر، ولهذا كان ما منتهى ما يتقرب به الشاعر لأبيه معتذرا، هو أن يعلن تطابقه التام؛ شخصية وسلوكا، مع نهج الأب الساحق، لأنه يدرك أن ذلك، هو أهم واجبات الولاء والطاعة، وأوسع الأبواب التي تفضي به إلى ساحة الرضا المعتضدي.

وقد فهم المعتمد هذه الحقيقة جيدا، في هذه اللحظة الحرجة، ولهذا لم يرد أن يكون أكثر من "ناب" أو" ظفر" أو " صارم" في يد أبيه، وإذا كان قد رضي لنفسه هذا فإنه لم يرض لأبيه سوى أن يكون[1]:

". . . ضيغما يقتل الأبطال مفترسا " فهو كالذي يأكل الشوك بأفواه الآخرين.

إن القصيدة تسودها صورة نفسية ثلاثية الأضلاع يبرز فيها قائد الجيش المعتضدي منهزما، فلا يلبث أن يصير طفلا باكيا يستعطف رئيسه أو أباه المفترس.

ولا تتغير هذه الصورة في المقطوعات الإعتذارية الأخرى؛ فهي تؤكد معاني العبد المطيع مع السيد المالك المستبد الساخط أبدا، لأن عبده يخطئ على الدوام ولا يستحق إلا العقاب:[2]

فإن عاقبتنـــي فجـــزاء مثلـــي　　　وإن تصفح فليس من الغريب

إن هذا الإستسلام المطلق للعقاب، والرضا هو منشأ الحس " المازوشي" الذي أشار إليه البحث عن الحديث عن غزل المعتمد حينما قال:[3]

سأسأل ربي أن يديـــم بـــي الشكوى　　　.......................

فيا علتي دومي فأنت حبيبــــــــــة　　　.......................

1- المعتمد. الديوان. ص 101.

2- م ن. ص 98.

3- م ن. ص 57.

وليس غريبا أمر العواطف وشأن النفس فهي تقبل بالرضا الأبوي مقابل الألم تأدبا وحاجة ثم لا تلبث أن تألف الحصول على الرضا بالألم فيصير هذا مطلبا من مطالبها وحاجة من حاجاتها.

والخلاصة التي يصل إليها هذا التحليل هي أن العلاقة الأبوية علاقة قهر وردع، خلفت مجموعة من الآثار النفسية البالغة، حيث كان منشأ شخصية عصابية، تتطابق مع القهر في ظاهرها، وتتمرد عليه في الباطن، وفي ظل هذه الثنائية المتناقضة نما لديها ما عرفناه من ظواهر " التجاذب الوجداني" الذي ظل يطبع سلوك المعتمد حتى أواخر حياته، و لم يقتصر أثر العلاقة الأبوية على هذين الملمحين البارزين؛ فقد رأينا من الحيل الدفاعية والظواهر النفسية التي مرت بنا ما يكفي لتأكيد حقيقة شخصية المعتمد وما أثر فيها.

ب- المدح

لئن رأينا المعتمد متماهيا - في لحظة الغضب الأبوي- بالمعتدي، فإنه في لحظات استقرار العلاقة يتماهى بأبيه البطل، مضفيا عليه كل صفات البطولة والشجاعة، والكرم والجود؛ فعادة الشعراء في المدح أن يسبغوا على الممدوحين من الفضائل النفسية، والمناقب المعنوية ما يخلدهم ويعلي كعبهم بين أضرابهم، وللمادح أن يبالغ ويغلو ويفرط خصوصا " إذا كان الممدوح ملكا لم يبال الشاعر كيف قال فيه ولا كيف أطنب وذلك محمود وسواه المذموم"[1] حتى أن قدامه بن جعفر يرى أن الشاعر الذي يجمع للممدوح - الخلال جميعها هو الشاعر المجيد حيث يقول:"... المصيب من الشعراء من مدح الرجال بهذه الخلال، لا بغيرها، والبالغ في التجويد إلى أقصى حدوده من استوعبها"[2] وإذا كان مدح المعتمد لأبيه المعتمد مترها عن التكسب المادي فإنه لم يسلم من صفقة التملق، لأن المعتمد تكرست لديه مشاعر الضآلة و الدونية أمام أبيه الذي يبدو أنه قد حكم عليه حكما لا مبدل له، فكان المعتمد يظهر- في مقطوعات المدح- كمن يحاول أن يثبت أنه على نقيض ما يراه أبوه؛ فقد

1- ابن رشيق. العمدة، ج2. ص 148.

2- قدامة. نقد الشعر. تحقيق د. محمد عبد المنعم خفاجي. دار الكتب العلمية. بيروت. د. ط. ص 96.

كتب قصيدة يمدحه و يحمده جاء فيها[1]:

أثقلت بالإنعام ظهري فقد　　　　أفحمت عن شكرك إفحاما

فهو مقصر عن أداء الشكر لأبيه إلا أن هذا الكلام ما هو إلا استطلاع وتعبير عن شعور الأب لا شعوره هو، فهو تجني الأب على إبنه أو هو سخط الملك على الأمير الفنان، و لهذا نجد الأمير في الأبيات الموالية يحاول أن يرقى إلى الشخصية المرغوبة المتطابقة مع ما يريده الملك فيقول:[2]

سفكت إفضالا دمي كي ترى　　　　تزيد في عمرك أعوامـــا

فاسلم لإهراق دماء العــــــدى　　　　ماطرد الإصباح إظلاما

إن المعتمد واع بمطلب أبيه و يعرف أنه شخصية دموية لا تستشعر السلامة إلا إذا رأت دماء الأعداء مهراقة لا ينقطع سيلانها صباح مساء، و لهذا يبدي تجنده اليقظ لتحقيق هذه الرغبة الأبوية، و لو اقتضى الأمر أن يسفك دمه إفضالا -لا فداء- إن كان ذلك يزيد في عمر الأب.

و الحق، إن والدا بهذه الأنانية التي تهون عليه رؤية دماء أبنائه مسفوكة في سبيل أن يزيد عمره لهو الوالد القاهر[3] و إن الإبن الذي يرضى بهذا الأمر لهو الإبن الخنوع المقموع حقا. و من ظواهرالمدح أو الحمد اللافتة للإنتباه كثرة الإشارات الرادعة، و اللفتات القامعة، فالمعتمد يستقبل هدايا أبيه إستقبال العبد لأوامر السيد، حتى ليخيل أنه يقرأ نفسية أبيه القامعة على صفحات هداياه و تشريفاته؛ فقد أهداه المعتضد فرسا، و كأن المعتمد لم ير في هذه الهدية إلا أمرا صارما بالولاء و بالتطابق مع الخط المرسوم فقال:[4]

نوال جزيل ينهر الشكر و الحمدا　　　　و صنع جميل يوجب النصح و الودا

إن البيت ينطق بمعاني الردع من جهة الأب،والطاعة من جهة الإبن، ويتجلى ذلك من خلال"ينهر" و"يوجب"

1- المعتمد. الديوان. ص .93

2- م ن. ص ن.

3- يسمي بعض الدارسين هذه الظاهرة " عقد ابراهيم -ع- " وذلك " عندما يأمر الأب بتضحية ولده". انظر: غاستون بوتول. هذه هي الحرب. ترجمة. مروان القنواتي. منشورات عويدات. بيروت. ط1. 1981. ص101، 102.

4- م ن. ص ن.

و المعتمد يفهم مغزى الهدية جيدا فيقول في المقطوعة نفسها[1]

لعلي يوما أوفـــي حقـــــه   فأنعله مـــمن عصى أمرك الخدا

فالفرس هدية تحمل أمرا مبطنا بالتأهب لتمريغ أعداء أبيه في التراب، والشاعر يستشف الأمر المبطن ويعلن - متماهيا بالبطل- أنه يرجو أن يوفق في المهمة على أكمل وجه يرضاه أبوه.

إن استقبال المعتمد لسلوكات أبيه، بهذه النفسية المقموعة الخانعة، يعبر عن صورة ثابتة تسكن ذهنه هي "إيماغو" الأب القامع الساحق تلك الصورة التي ثبتتها صدمات شخصية الملك الجبار مع شخصية الأمير الفنان وأسفرت عن شخصية عصابية تتطابق في الظاهر وتتمرد في الباطن، أو تكبت تمردها إلى حين، وعند تتبع مقطوعات المدح نجد أن صورة الأب القامع، والملك الجبار هي الأكثر انتشارا في معظم هذه المقطوعات حيث يصور المعتمد أباه ويكنيه " بأبي السنان " فيقول[2]:

لله در أبـــي السنـــــــــان   من فارس شهم الجنان

ويقول مهنئا له بعد شفائه من مرض[3]:

لا غرو إن حم منك جسم   فعادة الأسد أن تـــحما

لازلت تلقى العداة بؤسى   منك، ويلقى الولاة نعمى

وحين يمدح أباه بالجود نجد صورة الملك الجبار ترافق صورة الملك الجواد[4]:

قرنت في كفك بحر الندى   بصارم أسكنته الهامــــــا

فالموت والعيش بيمناك قد   صرفت أسيافا وأقلامـــا

وعلى هذا المنوال تظل صورة الملك الجبار في معظم مقطوعات المدح.

1- المعتمد. الديوان. ص 89.

2- م ن. ص 94.

3- م ن. ص 95.

4- م ن. ص 92.

وهذه الصورة الأبوية تقابلها صورة الملك نجد صورة الإبن المطيع - الخانع أو المقموع في واقع الحال- الــمُهلِّل لأدنى علامات الرضا الذي يبدو أنه صار غاية المدح عند الإبن[1]:

دعونا الأمانـــي لما رضيت فجاءت توالى علينا وتترى

فهو ما إن يشعر أنه نال مبتغى الرضى حتى يسارع إلى تبشير أبيه بامتثاليته وحرفية اتباعه للنهج الأبوي[2]:

فلم يبق لي أمل أرتـــجيـــه سوى أن أقوم بنعماك شكرا

إن التبشير بالإمتثالية وحرفية الاتباع عند المعتمد، نابع من شعوره بالقصور والضآلة التي أشرنا إليها أنها من أكثر الظواهر اللافتة والمميزة لشعر المدح عنده وهو لا يختلف كثيرا عن مدح سائر الشعراء، في إضفاء كل الصفات والفضائل النفسية والمعنوية على أبيه الممدوح من جود وشجاعة وعدل. إلا أن مدح المعتمد يكرس صورة الملك الجبار، تقابلها صورة المادح المقموع الطالب للرضا.

وهذا مايقودنا إلى استخلاصٍ مفاده أن شخصية المعتمد بمكوناتها وعقدها وظواهرها النفسية التي رأيناها، إنما هي ثمرة علاقة أبوية غير سوية؛ فهي مرآة تعكس الأثر الأبوي الساحق الذي لا يعرف غير القهر منهجا لترويض الأبناء على اقتفاء منهج الآباء. ولا تقبل من الأبناء إلا من أطاع ونفذ، واقتفى النهج والأثر، دون أن يحيد قيد أنمله، فهو من صنف الآباء الذين خبروا الزمان حلوه ومره، ولا يريدون لأبنائهم سوى أن يكونوا صدى لخبرة الآباء، ويعز عليهم أن يكرر أبناءهم أخطاءهم وخبراتهم.

وبناء على كل هذا نقول: إن تصنيف شخصية الأمير لا يخرج عن صنف الشخصيات العصابية المأزومة بمأزم أو عصاب القهر الأبوي، المتجلي في غرضي الاعتذار والمدح الذين تجلت فيهما معاني الطاعة الخانعة المولدة لمجموعة الإواليات الدفاعية من إدانة للآخرين في مقابل إدانة الذات وتبخيسها، ومن تبرير وإسقاط وتثبيت لصورة الأب السيد المالك.

1- المعتمد. الديوان. ص 90.

2- م ن. ص ن.

إن التأمل في هذه الإواليات إذ يؤكد حقيقة الشخصية العصابية، فإنه في المقابل يؤكد حقيقة أكبر من كل الحقائق المفترضة، وهي أن المعتمد قد نجح في التعايش مع المتناقضات الضاغطة، وجمع بين الاستسلام للقهر الأبوي الساحق، وبين الحفاظ على صورة ذاته؛ فقد رأيناه كيف أدان نفسه وبخسها لكنه لم يتردد في إدانة مستشاري أبيه وبطانته، كما رأيناه يدين نفسه أمام أبيه إلا أنه لا يلبث أن يبديها له في صورة الكمي الذي يـــمرغ أعداء أبيه.

إن هذه الظواهر المصطرعة ماهي إلا صدى شخصية تتميز باستبصار ذاتي انعكست فيها صراعات الحياة وصدماتها مع رغبات النفس ونزواتها وما تقتضيه المترلة السياسية ومتطلباتهم، وهذا ما سهل عليها النهوض من كل العثرات بمجرد انقصاء عوامل الضغط والقهر، كأن لم تعان من قبل، ومن هنا يصح التساؤل عن أسباب سرعة التكيف والعودة إلى السواء؟ فهل يمكن اعتبار النهوض بسهولة مؤشرا على شخصية مغايرة؟ أم أنها هي نفسها بملامح جديدة، وبنفس متحررة؟ وهل هذه الملامح الجديدة، وهذا النفس المتحرر قادر على محو التجارب الماضية وضغطها؟ أم أن هذه التجارب اتخذت سبيلها في بحر النفس سربا ثم ظلت في الخفاء تفعل فعلها؟ إن عجائب النفس لا تنقضي، وخير ما نجيب به عن كل هذه التساؤلات هو أن ندرس مرحلة مابعد الأب الساحق التي هي مرحلة الملك.

II- مرحلة الملك

إن تصنيف شخصية المعتمد ضمن الشخصيات العصابية يؤشر على شخصية فنان ذي نفس شفافة، قادرة على استكناه غور معطيات الواقع، ومقتضياته، واستشفاف حقيقة الذات وتقديرها. والقدرة على الاستكناه والاستشفاف هي التي جعلته بمنأى عن الإدانة بالاضطرابات المرضية للشخصية، فالعصاب ماهو إلا محاولة تكييف الذات مع الواقع ومع الدور، والظواهر النفسية التي رأيناها، والعقد التي رصدناها من خلال علاماتها إنما كانت مؤشرات تكيف فالدراسات النفسية تقول:"إن الشخصية في العصاب أثناء محاولتها التكييف مع

الضغوط الداخلية والخارجية تلجأ إلى استحداث أعراض نفسية أو جسمية"[1]، فشخصية الإنسان يمكن أن تبدو عليها مظاهر وعلائم اضطرابات معينة غير أن ظهور تلك المظاهر والعلائم لا يكون مبررا لتصنيفها ضمن نوعيات ثابتة إلا إذا تميزت العلامات بخاصية الثبات"ولا يمكن أن نصف شخصا ما بسمة من هذه السمات إلا إذا كانت هذه السمة تميز سلوكه معظم الوقت"[2]،ومعنى هذا أن العقد السابقة إنما هي عقد عرضية[3]لا مرضية.

إن هذا الفهم يحل لنا العديد من ألغاز شخصية المعتمد الذي رأيناه مقهورا، مسحوقا، مهزوز الأنا، يبدو خائرا أمام سلطة أبيه، ثم ينقل خوره إلى ميدان علاقاته النسوية فيقف مقهورا خائرا أمام سلطة الجمال الأنثوي.

إلا أنه ما إن تلوح له بوادر التحرر من السلطة الأبوية حتى نجده يطلع من تحت رماد القهر والانسحاق، بشخصيته العاكفة على الملذات، العاشقة لمباهج الحياة، المعتزة بنفسها وحالها وسلوكها.

إن سرعة الترجيع علامة على شخصية مرنة، لم تسقط بضربة السحق الأبوي التي كانت في قوتها وأثرها يمكن أن تكون قاضية، لولا أن العصاب لعب دور المصد الحامي لنواة الشخصية، ونواة الشخصية عند علماء النفس هي " فكرة المرء عن نفسه "[4]. والمتمعن في شعر المعتمد يدرك أن فكرته عن نفسه بأنه فنان وأنه واقع بين فكي كماشة الواقع السياسي المضطرب، وواقع الحياة الطافحة بالمباهج من جهة، وبين طباعه وخصائص شخصيته من جهة ثانية ولهذا نجده في كثير من الأحيان يشكو أعباء تسيير شؤون مملكته، حتى إنه لا يطيق فراق الحبيبة لأكثر من ثلاثة أيام فيصف لنا مشهد الوداع قائلا[5]:

ولـــما التقينا للوداع غديـــة	وقد خفقت في ساحة القصر رايات
وقربت الجرد العتاق وصفقت	طبول ولاحت للفراق علامـــــات
بكينا دما حتى كأن عيوننـــا	لجري الدموع الحمر منها، جراحات

1- د. حسين فايد. الاضطرابات السلوكية. مؤسسة حورس الدولية للنشر والتوزيع. الاسكندرية. 2003. ص 173.
2- م ن. ص 172.
3- انظر: روجر موشيلي. العقد النفسية. ص18.
4- د. مصطفى فهمي. التكيف النفسي. مكتبة مصر. د. ط. ص 14.
5- المعتمد. الديوان. ص 44، 45.

إن كل هذه الدموع الدامية، والأكباد المتفطرة إنما بسبب فراق كان مقررا ألا تتعدى مدته ثلاثة أيام؟![1]

وكنا نرجي الأوب بعد ثلاثة ....

غير أن المدة تغيرت[2]:

.... فكيف وقد طالت عليها زيادات

وهذا ما لا يطيقه الملك الفنان الذي تظهر عليه في هذه المرحلة مجموعة من الظواهر والعلامات والسلوكات نذكر منها:

أ- ثنائية الدور والطبع

إن القطعة الشعرية السابقة كافية لكشف معاناة الملك المثقل بالأعباء ومقتضياتها من جهة، والفنان المنجذب للملذات والمباهج من جهة أخرى.

وقد مر بنا عند دراستنا لحياته الشخصية أنه قد يهمل واجباته إذا " دعته دواعي نفسية إلى قينته وكأسه "[3].

إن المعتمد كان مدركا أوعارفا لنفسه كما أنه كان عارفا لدوره، وقد ساعدته معرفته هذه على تجاوز مرحلة الأب الساحق دون أن تغير من طباعه كثيرا ودون أن تمس خاصية الفنان اللاعب لدور الملك، ولا شك أن تناقض الدور الاجتماعي مع الشخصية يعد عاملا من عوامل استمرار العصاب المتجلي في حالات العجز عن العمل -كما رأينا- وفي القلق الدائم الذي كان يعيشه ويعبر عنه إذ نجده تعيسا بائسا مهموما بهموم غامضة لا يحددها لأنه لا يدركها إلا أنه يجد نفسه في مواجهتها فيلجأ إلى حلول هروبية تخفف وطأة قلقه فيقول مناجيا نفسه[4]:

أكذا يقود بك الأسى نحو الردى والعود عود والشمل شـــمول

لا يستبيك الـــهم نفسك عنوة والكأس سيف في يديك صقيل

1- 2- المعتمد. الديوان. ص 45.

3- ابن الأبار. الحلة السيراء. ج2. ص 132.

4- المعتمد. الديوان. ص66.

ومهما يجتهد في تفسير حاله هذه فإنه لا يجد أمامه إلا الهروب "والغياب عن الوجود" بتعبير غاستون باشلار[1]، ومن هنا يرتمي في عالم الغياب قائلا[2]:

بالعقل تزدحم الهموم على الحشا فالعقل عندي أن تزول عقـــول

فكأنما يعبر عن تلك " المعاناة الجذرية للشروط الأساسية التي يرتكز عليها الوجود البشري... ذلك الوجود الذي يقوم أصلا على خلفية من العدم "[3]، وهذه الخلفية العدمية نغصت عليه إقباله على الحياة لولا أنها سرعان ما تتحول إلى حافز من حوافز الإقبال عليها[4]:

علل فـــؤادك قد أبل عليل واغنم حياتك فالبقاء قليـــل

لو أن عمرك ألف عام كامل ما كان حقا أن يقال: طويل

والحق إن مثل هذه المعاناة الجذرية الوجودية لا تعبر عن قلق فلسفي عميق يقوم على التأمل والتحليل بقدر ما تعبر عن قلق ما يسميه علماء النفس "صراع الأدوار"[5]، فهو من حيث المنظار الاجتماعي كان ملكا بعد وفاة أبيه إلا أنه من حيث واقعه كان فنانا لاهيا، يغترف الملذات، وساعات الأنس اغتراف النهم، ولهذا نجد شكواه الحقيقية التي تتكرر في شعره إنما كانت من هذا الوضع المتناقض، أو الثنائية المتجاذبة التي يعبر عنها حينما اعتذر عن عدم تلبية دعوة ندمائه قائلا[6]:

لولا عيون من الواشين ترمقني وما أحاذره من قول حراســـــــــي

لزرتكم، لا أكافيكم بجفوتكم مشيا على الوجه أو سعيا على الرأس

إن هذه الثنائية المتجاذبة نجد صهد صوتها اللافح في قوله أيضا[7]:

1- غاستون باشلار. جدلية الزمن. ترجمة. خليل أحمد خليل. ديوان المطبوعات الجامعية. الجزائر. ط 1982. ص 16.
2- المعتمد. الديوان. ص 66.
3- سمير الحاج شاهين. لحظة الأبدية. المؤسسة العربية للدراسات والنشر. بيروت. ط1. 1980. ص 05.
4- المعتمد. الديوان. ص 66.
5- د. حلمي المليجي. علم نفس الشخصية. دار النهضة العربية. بيروت. ط1. 2001. ص 179.
6- المعتمد. الديوان. ص 64.
7- م ن. ص 42.

داوى ثلاثته بلطف ثلاثـــــة فثنى بذاك رقيبه لم يشعر

أسراره بتستـــــــــر، وأواره بتصبر،وخياله بتوقـــــر

إن تصبر المعتمد وتوقره تعبير صريح عن صراعه، وعن إدراكه لما هو فيه، إنه فنان مثقل بالأعباء، نجده في غمرة أدائه لدوره السياسي كقائد يعيش بمشاعره مع ابنه الصغير، يتلو حنينه إليه في ساحة التزال، وعند لحظة المعركة في يوم كبير من أيام الأندلس هو يوم الزلاقة فيقول له[1]:

أبا هاشم هشمتني الشفـــار فلله صبري لذاك الأوار

ذكرت شخيصك ما بينها فلم يدعني حبه للفــــرار

وتتكرر مثل هذه الشكاوى مع الحبيبة أيضا حتى يخيل للقارئ أنهما لا يعيشان حياة الحضارة والاستقرار في الأندلس، وإنما يعيشان كالبدو حياة التنقل والترحال، وسبب ذلك أنه -كما رأينا - لا يطيق الفراق، ويضيق بمقتضيات دوره؛ فقد غادر إشبيلية متجها إلى يوسف بن تاشفين بأرض العدوة لدعوته إلى نصرة الأندلسيين في مواجهتهم للنصارى الاستردادين، ورغم ثقل المهمة، وجسامة الموقف، إلا أن سفره هذا فجر بداخله مشاعر الحنين للحبيبة التي تركها وراءه فقال[2]:

أدار النوى كم دار فيك تلذذي وكم عُقْتني عن دار أهيف أغيد؟

والهيفاء الغيداء التي خلفها إنما هي اعتماد التي يردد اسمها كما لو أن فراقهما أبدي[3]:

فما حل حل من فؤاد خليلـــه مـــحل اعتماد من فؤاد محمد

إن هذه الثنائية المتجاذبة هي ثنائية " الطبع والدور " المتناقضين تتكرر كثيرا في شعر المعتمد، وهذا التكرار يدفع للتساؤل عم إذا كان المعتمد رافضا لدوره، أم أنه كان راضيا به؟.

إن شعر المعتمد الطافح بالشكاوى لا يعبر عن رفضه لدوره فشكواه إنما هي شكوى العصابي الذي:" يتسم ...

1- المعتمد. الديوان. ص 106.
2- م ن. ص 51.
3- م ن. ص ن.

بأنه يستجيب بشدة لمواقف الحياة نظرا للتوتر الشديد الذي يعانيه "[1] فهو قد يستجيب " بالهياج لمواقف الضغط العادية "[2]. والتمعن في شعر المعتمد يقودنا إلى أنه كان واعيا - في مقابل وعيه بطبعه وشخصيته - بدوره مقدرا لما يقوم به من أعباء ثقيلة عليه. فإذا ما تأملنا بيتيه اللذين عبر فيهما عن حنينه لابنه الصغير وشكواه من المعركة نجد أنه لم يفقد تقديره لما يقوم به، بل إنه يفخر ويعتز بأنه ظل ثابتا في المعركة، رغم نوازع الحنين وجواذبه فإنه لم يفكر في الفرار بل ظل ثابتا[3]:

ذكرت شخيصك ما بينهـــــــا   فلـــم يدعنـــي حبه للفـــــــــــرار

فتقدير المعتمد لدوره نجده ملازما لشكواه التي يعبر عنها بقوله[4]:

كتبت وعندي من فراقك ما عندي   وفي كبدي ما فيه من لوعة الوجـــد

وما خطت الأقلام إلا وأدمعـــــي   تـــخط كتاب الشوق في صفحه الخد

لكنه لا يلبث أن يعبر عن تقديره ورضاه بدوره ومقتضياته فيقول[5]:

ولولا طلاب المجد زرتك طيه   عميدا، كما زار الندى ورق الورد

ومثل هذا التلازم بين الشكوى والرضا بالدور يتخذه ذريعة ومبررا يطمئن به حبيبته اعتماد فيقول لها[6]:

أغائبة الشخص عن ناظري   وحاضرة في صميم الفؤاد

مرادي لقياك في كل حين   فيا ليت أني أعطى مرادي

فهو هنا يكشف لنا عن إدراكه لحاله ووضعه المتجاذب المتناقض بين دواعي طبعه ودوره، دون أن يكون هذا التناقض دافعا للتفكير في تغليب جانب على آخر لحسم صراعه ومعاناته.

ولهذا فالمعتمد بعدما تولى شؤون المملكة كان يعيش ثنائية " الطبع والدور " التي ولدت لديه ثنائية " الشكوى

1- والترج كوفيل وآخرون. الأمراض النفسية. ص 168.
2- م ن. ص ن.
3- المعتمد. الديوان. ص 106.
4- 5 – م ن. ص 41.
6- م ن. ص 40.

مع الرضا والتسليم " وأخرجته في صورة " المتبرم الراضي مما يؤكد صفة المسار المتجاذب الذي تعايت في أثنائه المتناقضات والمتباعدات والغرائب.

إن صورة الملك " المتبرم الراضي " هي استمرار نفسي لصورة " الأمير الفنان " " المقهور الطائع " أو " المقهور المتماهي بالوالد الساحق "، والمرجح أن المعتمد لم يفقد معاناته - رغم تبدل موقعه وانتهاء أمر الدولة إليه- فنفسه لم يبرحها توترها وقلقها المؤلم، مما جعلها تزداد شفافية ورهافة أعانته على التقاط نبض الحياة، واستماع نبض ضميره الحي رغم ثقل الركام السلبي، ورغم جسامة الأخطاء.

إن صاحب هذه النفس مهما نأت به نزواته بعيدا عن الجادة، ومهما ابتعدت به الأنانية والشهوات، فإنه يظل قريبا من الأصل، لأن نبض الحياة، ونبض الضمير يظلان يربطانه بالواقع وبالواجب؛ ومهما يرى الناس مثل صاحب هذه النفس بعيدا، ومهما يروه متخليا مهملا لواجباته فإنه يبقى يعيش على وقع ذاك النبض الجذاب الذي يسهل عليه الانتفاض في أية لحظة، فالمعتمد وجد نفسه ملزما بعهود المملكة مع النصارى فكان يجمع الضرائب متذللا لهم قاهرا لرعيته على دفعها، متشكيا من فعله بقوله: " الحال مع العدو - قصمه الله - بينه لا تخفى، ومداراته - ما لم تمكن مضاهاته - أولى وأحرى... "[1]، وهو بهذا يكشف نفسيته المتبرمة من جهة ما يشعر به من مهانة أمام النصارى، لكنه يجدها راضية من جهة أخرى لأنه يجنب دولته ورعيته حربا غير متكافئة لقناعته بأن العدو لو خرج لأهلك الحرث والنسل حيث يقول: "...فكم حال كانت بخروجه تتلف ونعمه بأيدي طاغيته تنسف "[2] إلا أن كلامه هذا يكشف عن نفسية تختنق بما هي فيه من ذل وضعف لا يخفيان، بل يزداد ضغطهماأمام وقع الضمير الحي المتغذي بنسغ الإباء العربي. والأرومة الملوكية الرابطة لحلقة الأمجاد.

أمام المعطيات السابقة يمكننا أن نقول: إن شخصية المعتمد تقبل أن تتحول في أية لحظة من النقيض إلى النقيض كمحصلة طبيعية للتجاذب بين الطبع الذي تشكل من مكونات الحياة اللاهية، وبين الدور والمترلة التي تقتضي

1- ابن بسام. الذخيرة. ق$_2$/ ج$_1$. ص 252.

2- م ن. ص 253.

حزما وصرامة ويقظة دائمة، ومن ضغط هذا التجاذب بين النقيضين كانت تتغذى أعماق المعتمد وضميره لتتخلق من كل هذا ملامح نفسية مستبصرة شفافة تكتنه معطيات العصر، وحوادث الواقع والمحيط.

فلا عجب إذا رأينا المعتمد يتقلب من حال إلى حال متساوقا مع ميزان قواه المتباينة ومتلونا بظلال مشاعره المكثفة، في هذا السياق يمكن تفسير بعض العلامات النفسية التي قد لا تلقي لها بعض الدارسات بالا، إذ تبدو لهم جزئيات لا دلالة لها، إلا أن التحليل النفسي ينطلق منها لفهم مرحلة مابعد الأب، ويعدها المنفذ الأساسي لفهم أعمق لشخصية " المعتمد/الملك".

ب- السلوك النفاجي

ظهرت في هذه المرحلة على المعتمد مظاهر السلوك الاهتياجي وميزته في مجال الأنس مع الندماء، فقد كان في مجلس " مكتس بالمعال، وصوت المثاني والمثالث عال، والبدر قد كمل، والتحف بضوئه القصر واشتمل، وتزين بسناه وتجمل فقال[1]:

ولقد شربت الراح يسطع نورهـــا	والليل قد مد الظـــلام رداء
حتى تبدى البدر في جوزائــــــــه	ملكا تناهى بـــهجة وبـــهاء
لـــما أراد تنزها في غربـــــــــه	جعل المظلة فوقه الــجوزاء
وتناهضت زهر النجوم يـــــحفه	لألاؤها فاستكمل الـــلألاء
وترى الكواكب كالمواكب حوله	رفعت ثرياها عليه لـــــواء
وحكيته في الأرض بين مواكـــب	وكواعب جمعت سنا وسناء

يشيع في هذه الأبيات" جو الانبهار والبهجة وأريحية العزة الملوكية "[2]، وهذا السلوك يتكرر كلما "شعر المعتمد بهاجس النشوة يهزه طربا "[3] حتى وصل به الأمر ذات جلسة أن يزحف زحفا حينما " أديرت الراح،

1- الفتح بن خاقان: قلائد العقيان. مكتبة السيد محمد عبد الواحد بك. مصر. الطبعة الأولى. 1320هـ. ص 06. وانظر الأبيات في الديوان. ص 69.

2- 3- د.عبد الله حمادي:الكواكب في شعر المعتمد بن عباد الأندلسي،مجلة الآداب،العدد 06.كلية الآداب واللغات،قسم اللغة العربية،جامعة منتوري،قسنطينة.2003.ص 62.

وتعوطيت الأقداح، وخامر النفوس الابتهاج والارتياح، وأظهر المعتمد من إيناسه ما استرق به نفوس جلاسه، ثم دعا بكبير فشربه كالشمس غربت في ثبير، وعندما تناولها قام المصري ينشد أبياتا تمثلها (بسيط):

اشرب هنيئا عليك التاج مرتفقا بشاذ مهر، ودع غمدان لليمن

فأنت أولى بتاج الملك تلبســـه من هوذة بني علي وابن ذي يزن

فطرب حتى زحف من مجلسه وأسرف في تأنسه وأمر فخلعت عليه ثياب لا تصلح إلا للخلفاء وأدناه حتى أجلسه مجلس الأكفاء "[1]، قد يكتفي من ينظر في هذين الحادثين بتفسير هذا السلوك الموغل في التأنس والحبور برد السبب إلى فعل الخمرة أو الراح، لكننا عندما نجده يعتذر لأحد ندمائه عن عدم حضوره للمجلس بقوله[2]:

لولا عيون من الواشين ترمقني وما أحاذره من قول حراســــــي

لزرتكم لا أكافيكم بجفوتكم مشيا على الوجه أو سعيا على الرأس

عندما نجده يبالغ في التعبير عن انتشائه وفرحته بوصف ما يسود مجالسه من غرائب سلوكه - التي رأينا ابن خاقان يقول عنها أنها تسترق نفوس جلسائه - نستطيع حينها أن نضعها في إطار " السلوك الاهتياجي " الذي يكون " عبارة عن رد فعل نفسي وجداني من الإحساس بالقوة والجبروت والسطوة على العالم الخارجي يرافقه مشاعر غبطة ورضى عن الذات ... "[3] وقد رأينا في المقطوعة الأولى كيف رسم صورة جبروتية ملوكية لنفسه مستعينا بخياله المتفاعل مع البدر وسائر الكواكب، ثم رأينا البيتين اللذين تمثل بهما " المصري " وهما يصبان في منحى تعزيز الشعور الملكي الجبروتي الأحق بالملك من " هوذة بني علي " ومن " ابن ذي يزن " ولم لا من كل الملوك؟ والسلوك الاهتياجي قد يعبر عن حالة مرضية يتميز فيها المريض بانطلاقه في " نشاط عارم ومشتت يرقص، يغني، يركض، يتحرك، يتحدث بدون انقطاع، متنقلا من فكرة إلى أخرى بدون أي ارتباط سوى تداع الأفكار والألفاظ، كل ذلك في حالة من النشوة العارمة، الشعور بالسعادة والوفاق مع الوجود، والرضى

1- الفتح بن خاقان. قلائد العقيان. ص 07.
2- المعتمد. الديوان.ص 64
3- د. مصطفى حجازي. التخلف الاجتماعي مدخل إلى سيكولوجية الإنسان المقهور. ص 239.

عن الذات وتضخم الذات بشكل يعطي الاحساس بنسف كل الحدود والقيود "[1]، ولئن كنا نميل إلى اعتبار السلوك الاهتياجي عند المعتمد ضربا من ردود الأفعال بعيدا عن السلوك المرضي فإننا لا نغفل مدى تقاطع العديد من هذه الأوصاف مع حالات المعتمد وسلوكاته الحبورية في مجالس أنسه، والسؤال المهم الذي يطرح في هذا الإطار بعدما رأينا أن لهذه السلوكات في مجالس الأنس دلالةاهتياجية، فما هي دلالة السلوك الاهتياجي على شخصية المعتمد/ الملك؟ إن البحث إذ يؤكد على انتفاء الجانب المرضي الحاد للسلوك الاهتياجي، فإنه يؤكد على على إدراج هذا السلوك ضمن ردات الفعل التي يصدرها الإنسان الذي لم يستطع تحويل أحلامه وأهدافه إلى واقع ملموس، فالاهتياج: "... بهذا المعنى قد يكون رد فعل على مشاعر العجز والتقصير..."[2] والحكم على ملك بالعجز ليس مجازفة تورطنا فيها قوالب ومصطلحات المنهج النفسي بقدر ما هو نتيجة نستند في رصدها إلى علامات سلوكية لا شك في أن المعتمد قد مارسها. وهنا يبدو لنا سؤال آخر إذا كانت الحوادث والسلوكات السابقة تدرج ضمن السلوك الاهتياجي وإذا سلمنا بأن هذا السلوك يعبر عن عجز وتقصير فعمّ عجز المعتمد وفيما قصّر؟ أليس هو الملك الذي تخلص من ضغط الوالد وقهره؟ ألا يمكن أن تكون هذه المرحلة مرحلة تحرر؟ والحق أن الحكم بالعجز والتقصير لا يكتفي عند إصداره بتلك العلامات لندين به المعتمد، بل إن شعره يكشف لنا ذلك، فإذا ما جئنا إلى بدايات توليه للحكم نجده يرسم لنا ملامح برنامج تطغى عليه معاني البطولة واسترجاع الأمجاد الأندلسية الضائعة في عصره بسبب التشتت والتشرذم. وقد أعلن المعتمد عن برنامجه حينما فتح"قرطبة"فقال عقب ذلك[3]:

من للملوك بشأو الأصيد البطـــل	هيهات جاءتكم مهدية الــــدول
خطبت قرطبة الــحسناء إذ منعت	من جاء يــخطبها بالبيض والأسل
وكم غدت عاطلا حتى عرضت لها	فأصبحت في سرى الحلي والحلـــل

1- د. مصطفى حجازي. التخلف الاجتماعي مدخل إلى سيكولوجية الإنسان المقهور. ص 239.
2- م ن. ص ن.
3- المعتمد. الديوان. ص 105، 106.

عرس الملوك لنا في قصرها عـــرس كل الـــملوك به في مأتـــم الوجـــل

فراقبوا عن قريب - لا أبا لـــكم- هجوم ليث بدرع البأس مشتمـــــل

واضح أن المعتمد - وهو في بداية مرحلة جديدة - إنما كان يرسم برنامجا وفق صورة مثالية ينشدها وتنشدها الأندلس جميعا، وملامح البرنامج المرسوم هي ملامح الصورة التي بدأ في تشكيلها – في إطار مراجعة النفس- وتتمثل في الهيبة البطولية القادرة على إحياء مجد قرطبة رمز الخلافة وعاصمتها، ولما كان هذا العمل يهم كل الملوك الطائفيين فإنه ما أنهى قصيدته إلا بتهديدهم بأنه قادر بقوة البأس والعزيمة على أن يكون في مستوى مقام قرطبة التاريخ والأمجاد التي ترامت في أحضان فارسها طيعة بعدما امتنعت عمن خطبوها بالسلاح، وفضلت أن تظل عطلا في غياب الأكفاء حتى جاءها المعتمد. إلا أن هذا البرنامج - الصورة - ظل حلما يطوف بخيال شاعرنا دون أن يجسده في الواقع ففي ظل ثنائية " الطبع " و" الدور " وفي ظل تجاذبهما لم يستطع المعتمد أن يحول الصورة المنشودة إلى مشروع سياسي واضح المعالم وحينها اكتفى -كما هي عادة الفنان- بالتغني بأحلامه لتتحول هذه الأحلام بمرور الوقت إلى ثقل نفسي ضاغط تجلت ردة فعله في السلوكات الاهتياجية السابقة.

وعليه فالشعور بالعجز والتقصير عند المعتمد حقيقة أخرى تسكن أعماقه المصطرعة. ويبدو أن هذا الشعور الضاغط هو أحد مظاهر الطبع الخائر أمام ملذات الواقع التي انغمس فيها غير أن الشعور بالعجز والتقصير في ظل نفس شفافة مستبصرة قد يتحول بين الفينة والأخرى إلى طاقة تحرك المعتمد فينتفض ليؤشر ويؤكد حقيقة التجاذب الوجداني، وهذا ما يجعل شعوره السابق - في بعض الأحيان- فضيلة من الفضائل، وقوة من القوى المعنوية المحفزة.

في هذا السياق المتجاذب المتناقض تبدو لنا أفعاله وسلوكاته في غاية الاتساق النفسي فحينما يغلب الطبع يرتكس المعتمد حد السقوط، وحينما تشرق النفس المستبصرة يحلق المعتمد في سماء البطولة حد الأسطورة دون

أن يرى أو يشعر بالحرج عند السقوط أو بالتكلف والتصنع عند التحليق. إن هذا الفهم يقودنا بسهولة إلى فهم التغيرات الجذرية التي عرفتها سيرة المعتمد وحياته.

ج- التحولات

رأينا أن نفسية المعتمد تصطرع غير بعيدة عن نبض الحياة ونبض الضمير، فلئن رأى الفقهاء ظاهر المعتمد يغوص في الاستهتار والبطالة والمجاهرة بالمعاصي حتى إنهم كتبوا "بذلك وبتعطيل صلوات الجمع عقودا ورفعوها إلى أمير المسلمين "[1] - أي ابن تاشفين- فإنه في أعماقه المستبصرة ما غاب عنه ما يدور في واقعه وفي نفوس الناس، وقد عبر لابنه عن إحساسه العميق قائلا: " أنا في هذه الأندلس غريب بين بحر مظلم وعدو مجرم وليس لنا ولي ولا ناصر إلا الله "[2] بل إنه وصف مشاعر رعيته بمختلف فئاتها وطبقاتها قائلا: "... قد تلف لجاؤنا وتدبرت بل تبردت أجنادنا وأبغضتنا العامة والخاصة "[3]، واستبصار المعتمد جعله يحدد واجبه ويعترف بضعف حزمه وتقصيره، فقد خاطب الإذفونش عندما ردّ على تطاوله - قبل الزلاقة - قائلا: "... وكان بيننا وبينك من المسالمة ما أوجب القعود على نصرهم وتدبير أمورهم -[يقصد مسلمي الأندلس]-، ونسأل الله المغفرة فيما أتيناه في أنفسنا وفيهم من ترك الحزم "[4] وهكذا يذهب المعتمد في تحليله لحال ملوك الطوائف حتى يغوص في الأسباب الحقيقية التي أوقعته تحت طائلة العجز حيث يرى أنهم تركوا الحزم والصرامة لأن " الهواء والماء منعهم عن ذلك "[5] كاشفا بذلك عن ثنائية الدور السياسي والطبع المتراخي المترف.

وهذا السياق المتجاذب المتناقض تبدو لنا قصته مع صديقه ابن عمار بنهايتها المفجعة في غاية الاتساق؛ ذلك أن المعتمد حينما تشرق نفسه يسترجع حزمه وصرامته، ويقدر أبعاد الحوادث والوقائع حق التقدير؛ فعند النظر فيما أقدم عليه ابن عمار من محاولة الاستفراد والاستقلال "بمرسية " نجد أن هذا الحادث غير مستبعد ولا

1- آنخل جنثالث بالنثيا. تاريخ الفكر الأندلسي. ص 95.
2- ابن الخطيب: الحلل الموشية. ص 27.
3- م ن. ص28.
4- م ن. ص25.
5- ابن الخطيب: الحلل الموشية. ص 29

غريب عن منطق العصر ولا عن منطق ابن عمار؛ فالعصر حافل بمئات الحوادث التي انقلب فيها الأبناء على آبائهم والإخوة على إخوتهم، ناهيك بالأصدقاء والخلان!! والمعتمد يعرف عصره وصديقه ومنطقهما حتى إن بعض المصادر تقول إنه لما أرسل ابن عمار لمرسية وتمكن من الاستيلاء عليها وصلته أخبار تصف ما ملك ابن عمار من فخر وعجب " فبدأت الشكوك تساور نفس المعتمد وفوجئ بالأمر فتغيرت نفسه وخشي أن يكون صديقه القديم مشتغلا بالتدبير عليه... "[1] وتذهب بعض المصادر أبعد من ذلك حين تنقل لنا أن المعتمد صارح صديقه بشكه عندما وجهه إلى " مرسية " فودعه بقوله: " سر إلى خيرة الله ولا تظن أني مخدوع "[2] والغريب أن ابن عمار أجابه:"لست بمخدوع ولكنك مضطر"[3] وهو ما يؤكد لنا أن انقلابه كان متوقعا، وكان العفو من المعتمد محتملا وممكنا، نظرا لطبيعة شخصية المعتمد وطبيعة صداقتها المتينة، وقد بدر من المعتمد ما يدل على عفوه عن صديقه بعد ما قضى في السجن عامين أي بعدما هدأت سورة الغضب وحدته، لكنه في نهاية المطاف أقدم على قتله بيديه!! إننا عندما نعيد التأمل في لحظة قتله نجد أن الرميكية ركزت في أثناء تحريضها للمعتمد، على قضيتين؛ الأولى هي منازعة ابن عمار له في الملك والثانية هي تعرضه لشرفه وحرمه مع إنشادها لهجائه فيه، وقد صور لنا ابن سعيد الحادثة فقال إن ابن عمار بعدما أسره المعتمد ظل " يستعطفه وهو لا ينعطف له إلى أن كان ليلة شرب فذكرته الرميكية به، وأنشدته هجاءه فيه، وقالت له: قد شاع أنك تعفو عنه، وكيف يكون ذلك بعد ما نازعك ملكك، ونال من عرض حرمك؟ وهذا لا تحتملهما الملوك "[4] ومادام المعتمد قد مال إلى العفو في قضية الانقلاب والمنازعة على ملك مرسية، فلم يبق أمامنا سوى قضية العرض والشرف أي قضية الماضي بينهما أين رأينا ابن عمار يصرح - ويفصح - علاقتهما الشذوذية علانية، والأخطر أنه كشف بأنه سيبتز صديقه بهذه القضية حينما قال[5]:

سأهتك عرضك شيئا فشيئا وأكشف سترك حالا فحالا

1- آنخل جنثالث بالنثيا. تاريخ الفكر الأندلسي. ص 92.

2- 3- ابن الأبار. الحلة السيراء. ج2. ص140

4-ابن سعيد الغرناطي. المغرب في حلى المغرب. تحقيق خليل المنصور. دار الكتب العلمية. بيروت. ط1 1997. الجزء الأول. ص 310.

5-المقري نفح الطيب ج5 ص 140.

لا شك أن المعتمد قد رأى ببصيرته أن هذا التهديد سيكون بمثابة الفتيل الناسف لكل تحول في شخصيته أو كل تعديل لمساره، خصوصا وهو يرى التحديات الداخلية والخارجية تحدق به، مما يعني أن ابن عمار قد أغلق كل هوامش خط الرجعة أمامه ليصل به الحال إلى أن يقول له كما مر بنا "لست بمخدوع ولكنك مضطر"[1]

إن تقدير المعتمد لبعد الماضي السيئ وما يشكله من تهديد للصورة المثالية التي تسكنه وتحركه في لحظات تفاعل إشراق النفس مع مقتضى ومتطلبات المكانة والمترلة، قد جعله يحسم الموقف بما يسمح له بالتأقلم والتكيف مع دوره وصورته متى سنحت له الفرصة. وحين عبر المعتمد عن ضيقه من تغير صديقه وانقلابه لم يزعجه شيء كما أزعجه الماضي حيث وجدناه يرمم ما يرمم ويتملص مما رماه به ابن عمار من شذوذ وذلك في قوله[2]:

تغير لـــي - فيمن تغير - حارث	ورب خليل غيرته الحوادث
أحارث إن شوركت فيك فطالما	نعمنا وما بيني وبينك ثالث

إن اللافت في هذين البيتين هو إعادة الحديث عن الماضي الحساس، بلغة لا تخلو من إشارة تحط من ابن عمار وتدنيه بأنه قد وهب نفسه للآخرين حتى تحركت غيرة المعتمد على هذا الحبيب الذي لا يحب أن يشاركه فيه أحد، ولم يجد المعتمد عزاء أفضل من تذكر يوم كان ينعم بابن عمار وحيدا. فهذا التعريض في هذه المرحلة يؤكد على حرج المعتمد، لأنه لم يكن إلا موقفا دفاعيا يسميه علماء التحليل النفسي " الإسقاط " وهو إوالية دفاعية تلجأ إليها الذات حينما يشعر الفرد بتهديد ما " يثير مشاعر ذنب أو خجل أو عار إذا وعاه الشخص كجزء من ذاته، فهو يتهرب منه بإلصاقه بالغير أو اتهام الغير به في نوع من تبرئة الذات "[3] إن لجوء المعتمد إلى إوالية الإسقاط يثبت لنا أن ماضيه مع صديقه كان سبب قتله فمما لا شك فيه أن هذا الماضي لو ظل ورقة ضغط وابتزاز في يد ابن عمار لاستطاع أن يمنع أي تحول، ويشوه أي صورة ينشدها المعتمد لحظة تمتعه بصفاء روحي واستبصار نفسي دفعه لتنفيذ قرار القتل دون أن تجدي شفاعة أو تنفع ضراعة أمام ما قدره.

1- ابن الأبار. الحلة السيراء. ج2. ص 140.
2- المعتمد: الديوان. ص 126.
3- د. مصطفى حجازي، التخلف الاجتماعي مدخل إلى سيكولوجية الإنسان المقهور. ص 235.

وعلى هذا المنوال أدار المعتمد شؤون مملكته يتلقف خصومه وخصوم مملكته حوادث لهوه وبطالته ليتخذوا منها شواهد على فساده وسفاهة دولته، بينما يتلقف أصحابه والموالون لدولته حوادث إشراق نفسه حين يستعيد لياقة حزمه، وهيبة دولته ليتخذوا منها شواهد على صلاحه وجدارة دولته، وبين هؤلاء وأولئك ارتسمت لنا صورة المعتمد الفاسد السفيه تناقضها وتقابلها صورة المعتمد البطل وكأن الصورتين لا تلتقيان!! أوكأن الإنسان يختزل في صورة قديس أو صورة إبليس!!.

لقد سبقت الإشارة إلى أن شعور المعتمد بالعجز والتقصير- بل واعترافه بهما- قد يتحول إلى فضيلة من الفضائل، وطاقة من الطاقات التي تقوي روحه المعنوية فتعينه على الانتفاض والنهوض. وتعد انتفاضة المعتمد عقب سقوط " طليطلة " في يدي النصارى الاستردادين خير دليل على صحة هذا الحكم، حيث دخل عالم الخلود بفضلها لأن انتفاضته هذه كشفت لنا عن ضمير حي لم تستطع الملاهي ومجالس الأنس والملذات أن تخنق صوته أو تطمس إحساسه بمقتضيات المسؤولية والواجب. فلئن رأيناه في مجالسه منغمسا في لذاته. فإن ما لفت الانتباه في تلك المجالس هو ظهور بعض علامات السلوك "الاهتياجي" الذي يمكن اعتباره سلوكا نفاجيا يؤكد لنا حاجة المعتمد إلى ما يثبت قوته وعظيم ملكه، لأن "النفاج" "هو نوع من رد الفعل التعويضي على مشاعر نقص ذاتية شديدة، إنه رد فعل تمرد خرافي على العجز وهو على صلة ما بعقدة الخصاء ورفضها... "[1]. ونحسب أن المعتمد كان يعيش رفضا عميقا لحاله، وحال دولته، وحال الأندلس عامة إلا أنه لم يكن في - ظل المعطيات الكثيرة المتباينة والمعقدة- قادرا على تحويل رفضه إلى سلوك سياسي أو استراتيجية تترجم رغبته في الخلاص، فكانت المجالس اللاهية هروبا نفاجيا يكسر فيها حرارة الأعماق الملتهبة، وما إن سقطت طليطلة حتى ظهرت أعماقه الملتهبة، وانكشف باطنه المتوهج المتفلت طلبا للإنعتاق من حال العجز والخور إذ لم يبق أمامه مجال للحلول الهروبية التعويضية، ولا المهدئات النفاجية. والمؤكد أن المعتمد - بقدرته الاستبصارية وشفافيته النفسية - كان أكثر الملوك شعورا بالخطر، وأبعدهم في التقدير والنظر؛ فقد رأيناه أسرعهم إلى الموافقة على

1- د. مصطفى حجازي. التخلف الاجتماعي مدخل إلى سيكولوجية الإنسان المقهور. ص 253.

الاستنجاد بابن تاشفين مستهينا بكل المخاطر، دائسا على توجسات مستشاريه ووزرائه ونظرائه، متجردا من نعمائه إيمانا منه بالتضحية بكل مصالحه الخاصة، وعلى رأس هذه المصالح الملك والمملكة لأن منطقه هو منطق النفس المستبصرة التي ترى العار في الانهزام أمام النصارى أما الانخداع للقريب فهو الشرف وإن كان مر المذاق.

بهذه البصيرة التي حولت المتوقع واقعا ماثلا لعيانها، وبهذا المنطق الذي رأى الهزيمة الآنية نصرا على المدى البعيد استطاع المعتمد أن يستدرك كل الماضي الغارق في اللهو والبذخ المسرف.

د - الانتفاضة والتحرر النفسي

إن انتفاضة المعتمد في وجه النصارى عقب سقوط طليطلة إنما جاءت تتويجا لتحول عام على مستوى شخصيته؛ فقد رأيناه حريصا على التحرر من كل ما من شأنه أن يكبلها وذلك عندما قتل صديقه ابن عمار، كما تذكر المصادر المختصة بدراسة سيرته أنه كان في تلك المرحلة الحاسمة يعمل على تحسين صورته وصورة زوجته اعتماد بعدما تعرضا لانتقادات لاذعة من قبل الفقهاء والعلماء ولهذا " كانا يعملان على إثبات بطلان هذه الظنون، هو بدقته في القيام بواجبات المسلم الحق، وهي بحرصها على أن تقيم باسمها المنشآت الدينية "[1].

وعليه فانتفاضة المعتمد هي محصلة طبيعية لكل هذه الضغوط الذاتية، والداخلية والخارجية التي تعاونت على استيقاظ البطل سليل الأمجاد الملوكية.

وتجلت للمعتمد صورته المثالية المنشودة يوم " معركة الزلاقة " - وهي تدرج تاريخيا ضمن تداعيات سقوط طليطلة- ففيها ظهر من استبساله وتفانيه ما غير صورته القديمة التي أنكرها الفقهاء، إذ سرق الأضواء من الجميع لأنه تفرد عن سائر الملوك بالجد في استقبال ابن تاشفين، وفي الإشراف على تنظيم جيشه وحمايته، وأظهر من اليقظة ما فوت به على النصارى ألاعيبهم وخدعهم، وأكثر من هذا فقد ظهر في ساحة المعركة بطلا أسطوريا كما صورته المصادر فقد " ...ضرب على رأسه ضربة فلقت هامته حتى وصلت إلى صدغه،

1- ليفي بروفينسال. الاسلام في المغرب والأندلس. ترجمة محمود عبد العزيزسالم، و أ. محمد صلاح الدين حليمي. مؤسسة شباب الجامعة. الاسكندرية.1990. ص157

وجرحت يمنى يديه وطعن في أحد جانبيه، وعقرت تحته ثلاثة أفراس كلما هلك واحد قدم له آخر، وهو يقاسي حياض الموت ويضرب يمينا وشمالا"[1]، وتقول المصادر إن المعتمد يومها " ...صبر ...صبرا لم يعهد مثله لأحد"[2] وتكتمل هذه الصورة الأسطورية بتصوير البطل وهو يهون من جراحاته ويصف المعركة لابنه الذي خلفه في المملكة: " و لم يصبني والحمد لله إلا جراحات يسيرة ألمت لكنها فرجت بعد ذلك "[3].

إن الصورة الأسطورية التي رسمت للمعتمد وهو مترام على الحتوف تمكننا من قراءة هذه اللحظة الحاسمة في حياته قراءة نفسية تكشف لنا أنه كان واعيا بأبعادها سواء على المستوى السياسي أو على المستوى الشخصي. فمن الناحية السياسية كانت الأندلس مهددة بالضياع والسقوط أمام حملة استردا دية طوقت الإمارات المتبقية .بما جعل الجميع بين فكي كماشة الشمال النصراني والجنوب الإسلامي المتوثب العازف لأنشودة الكمال الحريص على تقويم كل الناقصين.

ومن هنا فالترامي على الحتوف يعد ضربا من الاستجابات الحرجة التي يتميز بها الكائن الحي فالإنسان حينما يعيش وضعا حاسما " يستجيب بسلوك قتالي مذهل في عنفه وفعاليته...بشكل يفاجئ المهاجم الذي يفوقه قوة وعددا"[1]، ولا شك أن المعتمد كان يدرك أن وضعيته مصيرية مأزقية، وأن "معركة الزلاقة" منعطف كبير في حياته وحياة المملكة والأندلس.

أما من الناحية الشخصية فقد كانت هذه المعركة .بمثابة لحظة الإنعتاق من كل الضغوط الذاتية والداخلية والخارجية إذ تعززت أناه وتحسنت صورته وانمحت سيئاته وهفواته وزلاته فما أسرع ما حظي بحب العامة وعطفها إذ " طار ذكر ابن عباد بهذه الوقيعة وشهد مجده ومالت اليه القلوب "[4] حيث " رزق من الناس حبا ورحمة فهم يبكونه إلى اليوم "[5] وقد عد المؤرخون هذه المرحلة التي استيقظ فيها البطل سليل الأمجاد معلم

1- المقري، نفح الطيب. ج 5. ص .272
2- م ن. ص274.
3- د. مصطفى حجازي.التخلف الاجتماعي. مدخل إلى سيكولجية الإنسان المقهور. ص235
4- ابن عذاري. البيان المغرب. ج4. ص140.
5- ابن الأبار. الحلة السيراء. ج2. ص55.

شخصيته فتحدثوا من خلالها عن فضائله فقالوا:" ومما يؤثر من فضائله، ويعد في زهر مناقبه، استعانته علىالروم بملك المغرب حينئذ - وهو يوسف بن تاشفين- وسعيه في استقدامه، وجده في ملاقاة الطاغية ملك النصارى والإيقاع به بالموضع المعروف بالزلاقة..."[1] وفوق كل هذا فقد زال الخطر الصليبي مصدر مشاعر العجز والعار.

وقد ظهر المعتمد بعد المعركة بمظهر الأبطال فحينما عاد إلى إشبيلية " جلس للناس وهنئ بالفتح، وقرأت القراء وقامت على رأسه الشعراء، فأنشدوه "[2] وهذا ما جعله يسترجع راحته واعتزازه بذاته واطمئنانه للجميع اطمئنانا ضيع عليه فرصة التمتع طويلا بالنصر واسترجاع العذرية السياسية، فمما يروى أنه دعا ابن تاشفين -عقب المعركة- لزيارة اشبيلية وفي أثناء استضافته له لاحظ الناس أن ابن تاشفين وأصحابه يبيتون الشر للمعتمد، لما رأوه من نعيم وإسراف، فاستأذن رجل ودخل على المعتمد ناصحا له بأن يقبض عليه ويعتقله حتى يعطي المواثيق بألا يعود للجزيرة[3]. فابن تاشفين -كما بدا- لهذا الرجل:" مستأسد على الملوك قد حكم على رفقائه ببر العدوة وأخذ الملك من أيديهم ولم يبق على واحد منهم"[4]. وعليه قال الرجل للمعتمد " ولا يؤمن أن يطمح إلى الطمع في ملكك"[5]. غير أنه أبى في ظل نشوة الانتصار والتحرر أن يتورط في ما يشوه صورته الجديدة التي رأى أنها تكمل سلسلة من الأمجاد والمناقب فلا يليق بالمعتمد " وهو إمام المكرمات "[6] أن " ... يعامل بالحيف ويغدر بالضيف "[7] كما بادر أحد أصحابه بالقول، ولأن المعتمد كان في غاية النشوة فإنه لم يخامره الشك أو التوجس من صريخه.

هـــ - نصر العصابي

بعد هذه المرحلة نجد المعتمد -وقد قدم ما يليق بمجده- عاد إلى سابق عهده مستجيبا لداعي الطبع فلم يستفق من سكرة النصر ونشوة تألق النجم إلا بعدما تأكد من نية ابن تاشفين وعزمه على خلع كل الملوك عندها "

1- ابن الأبار. الحلة السيراء. ج2. ص54 ، 55
2- المقري، نفح الطيب. ج 5. ص 275.
3، 5،4- م ن. ص279.
6 ، 7 – م ن. ص 280

أخذ في بناء الأسوار وعمل القنطرة"[1] وحينما لامه ابنه الرشيد قائلا: " ألم أقل لك يا أبت يخرجنا هذا الصحراوي من بلادنا إن أنت أوردته علينا؟ قال: يابني لا ينجي حذر من قدر"[2] ويبدو أن هذه الإجابة الاستسلامية تعبر لنا بصدق عن شخصية المعتمد فهي وإن تحررت من عقدة العجز والعار إلا أن طبعها العصابي يظل بارزا فانتصاره في " الزلاقة " كان كافيا لتحرره وانعتاقه وبالتالي كانت الفرصة أمامه لبناء خطة تحصن المملكة، وتحيي بداخله حلم الخلافة خصوصا وقد " سالمته ملوك الطوائف، وخاطبوه جميعا بالتهنئة و لم يزل ملحوظا معظما "[3] لكنه مثل أي عصابي عندما يحقق " أي إنجاز بارز... إنما يأتي على حساب إهماله لكل جوانب الحياة الأخرى. والنتيجة الحتمية لذلك هي الفشل في تحصيل إنجازات كاملة "[4] مما يفسر لنا امتناعه عن استثمار نصره الذي أوهى عزيمته، وأضعف حذره وحيطته رغم ما كانت تصله من تحذيرات واقتراحات بشأن الناقمين عليه من مواطني اشبيلية؛ فحينما ثارت عليه المعارضة الداخلية العميلة للمرابطين نصح" بتمزيق أديمها وسفك دمها... فأبى له ذلك مجده الأثيل، ورأيه الأصيل ومذهبه الجميل"[5] والحق أن الضرب بيد من حديد على من يهدد سلامة المملكة لا يتنافى مع المجد الأثيل في شيء، بل إنه يحفظ المجد ويؤثله.

و لم يتوقف إهمال المعتمد عند هذا الحد، فقد غفل عن الاحتياط من حساده من الملوك أمثال ابن صمادح صاحب المريّة الذي أوغر صدر ابن تاشفين عليه، فرغم علمه بفساد العلاقة بينه وبين ابن صماح، ورغم إحساس المعتمد بتغير ابن تاشفين عليه إثر استضافة ابن صمادح له حيث " ظهرت للمعتمد قبل عبوره [أي رجوع ابن تاشفين إلى بلاده] أشياء عرف بها أنه غيّر عليه! "[6] إلا أنه لم يتخذ ما يلائم وما يكمل نصره وإنجازه مكتفيا برسالة حذر فيها ابن صمادح و" كتب إليه (كامل):[7]

يا من تعرض لي يريد مساءتي	لا تعرضنّ فقد نصحت لـــمندم
من غره منـــي خلائق سهلة	فالسم تـــحت ليان سم الأرقم "

1 – ابن عذاري. البيان المغرب ج4. ص .144

2 - م ن. ص ن.

3 -

4 - والترج. كوفيل، الأمراض النفسية. ص .167

5 - المراكشي. المعجب. ص 205، 206.

6 - م ن.ص.203

7 - الفتح بن خاقان. قلائل العقيان. ص14. وانظر ديوان المعتمد. ص108. وفيه نجد الشطر الثاني من البيت الثاني: " فالسم تحت ليان مس الأرقم " مس عوض سم.

إن المعتمد بطبعه العصابي يكون قد عد نصر الزلاقة ولمعان نجمه بعدها منتهى ما يقتضيه التدبير، ومنتهى ما تصل إليه الهمم، ولهذا فقد أهمل المعارضة الداخلية التي ظلت تتغذى من دموية أبيه ومن آلامه المروعة التي خلفها ألغاما قابلة للانفجار في أي وقت، كما ظلت تتغذى من أخطائه وانغماسه في اللذات،إضافة إلى إهماله لطبيعة عصره الطافحة بالجرائم والخيانات والوشايات فلا عجب بعد ذلك أن يتعاون الجانبان على تشويه صورته من جديد؛ ويكفي أن نورد ما ذكرته المصادر التاريخية من سعي ابن القاسم الهوزني- وهو ابن أبي حفص عمر بن الحسن الهوزني- " في فساد دولة المعتمد ابن عباد، وحرض عليه أمير المسلمين يوسف ابن تاشفين... حتى أزال ملكه "[1] بسبب " قتل بني عباد [القاتل هو المعتضد] لأبي حفص الهوزني المذكور "[2]، ويكفي ما ذكرناه من سعي ابن صمادح في إغراء ابن تاشفين بالمعتمد ومملكته بالنميمة والبهتان حتى إنه زعم أن المعتمد قال في شأن بقاء ابن تاشفين بالأندلس:"لو عوجت له إصبعي ما أقام بها ليلة واحدة هو ولا أصحابه... وأي شيء هذا ا لمسكين وأصحابه؟ إنما هم في بلادهم في جهد من العيش وغلاء من السعر جئنا بهم إلى هذه البلاد نطعمهم حسبة وائتجارا، فإذا شبعوا أخرجناهم عنها إلى بلادهم! "[3]، كل هذا يكفي لإبراز حقيقة أو جسامة الأخطار والتحديات التي كانت محدقة بالمعتمد ومملكته. لكنه استهان بها وأهمل الاحتياط لها بسبب من طبعه؛ فالعصابي يتميز "بالانشغال بذاته وعدم القدرة على على إقامة علاقة إنسانية "[4] وهذا ما "... يعوق العمل بفعالية "[5] ففشل المعتمد في الاحتياط، وفشله في إقامة علاقة ودية مع يوسف ابن تاشفين، أفضيا إلى نتيجة واحدة طالما انتظرها وتهيأ لها منذ الصغر وهي سقوط المملكة على يدي المرابطين الذين قَضُّوا مضجع أبيه المعتضد الذي كان "...يستطلع أخبار العدوة: هل نزل البربر رحبة مراكش؟ "[6] وسبب هذا الهاجس عند المعتضد ما "كان يراه في ملحمة كانت عنده أن هؤلاء القوم خالعوه أو خالعوا ولده ومخرجوه من ملكه"[7]، وقد رأينا في القسم الأول كيف كان يجمع أبناءه مرعوبا ثم"ينظر إليهم مصعدا ومصوبا ويقول:ياليت شعري

1، 2 – المقري. نفح الطيب. ج3. ص 225، 226.

3 – المراكشي. المعجب. ص 202، 203.

4، 5- والترج كوفيل. الأمراض النفسية. ص.167

6، 7 – المراكشي. المعجب. ص 148.

من تناله معرة هؤلاء القوم أنا وأنتم؟ "[1] والغريب حقا أن المعتمد أجابه من بين إخوته:"جعلني الله فداك وأنزل بي كل مكروه يريد أن يترل بك! فكانت دعوة وافقت المقدار"[2] إن هذه الأحداث التاريخية تقودنا إلى الحديث عما يسميه علماء النفس بـــ:"عصاب المصير" الذي يدل على شكل من الوجد المتصف بالعودة الدورية لتسلسل متطابق من الأحداث البائسة عموما، ويبدو الشخص خاضعا لهذا التسلسل كخضوعه لقدر خرجي محتوم "[3] فالأشخاص المصابون بهذا العصاب "... يعطون الانطباع بأن القدر يلاحقهم... "[4]، والمعتمد لم يكن بمنأى عن هذا العصاب أو على الأقل عن الشعور بخضوعه لقدر خارجي محتوم وقد تجلى ذلك في بعض المواقف التطيرية التي سبقت خلعه نذكر منها قصته مع جارية مغنية أهداها ابن تاشفين للمعتمد " وجاء بها إلى اشبيلية وقد كثر الإرجاف بأن سلطان الملثمين ينتزع بلاد ملوك الطوائف منهم، واشتغل خاطر ابن عباد بالفكر في ذلك فخرج بها إلى قصر الزهراء على نهر اشبيلية، وقعد على الراح، فخطر بفكرها أن غنت عندما انتشى هذه الأبيات: [الكامل]

حملوا قلوب الأسد بين ضلوعهم	ولووا عمائمهم على الأقمار
وتقلدوا يوم الوغى هنديـــــــــة	أمضى إذا انتضيت من الأقدار
إن خوفوك لقيت كل كريهـــة	أو أمنوك حللت دار قـــــــرار

فوقع في قلبه أنها عرضت بسادتها، فلم يملك غضبه، ورمى بها في النهر، فهلكت..."[5] .

إن لحظة الانتشاء بفعل الراح لحظة تنكشف فيها الأعماق الخفية للإنسان، فهي لحظة إفضاء يختلسها الجواسيس والعملاء بنصب حبائل المجالس الخمرية أين تقتحم الخمرة مواطن الأسرار فتعريها، وها هي هذه اللحظة من حياة المعتمد تأتي دون ترتيب ودون نصب الحبائل لتكشف لنا مؤرقاته ومنغصات حياته فهو يبدو من خلال هذا التصرف في غاية الإثارة والقلق، لا يتحمل سماع ما يشير إلى المرابطين، ولا يطيق

1 ،2 - المراكشي. المعجب. ص 148.

3، 4- جان لابلانش و ج. ب بونتاليس. معجم مصطلحات التحليل النفسي. ص.344

5- المقري. نفح الطيب. ج 5. ص196.

أدنى ما يثير شعوره بمصيره المرتقب إلى حد التطير.

ومن مواقفه التطيرية أن رجلا "رأى في منامه إثر الكائنة عليهم كأن رجلا صعد منبر جامع قرطبة واستقبل الناس ينشدهم:

رب ركب قد أناخوا عيسهم	في ذرى مجدهم حين بسق
سكت الدهر زمانا عنهـــــم	ثم أبكاهم دما حين نطق

فلما سمع المعتمد أيقن أنه نعي لملكه..."[1].

إن هذه النفسية المتطيرة لها دلالتان نفسيتان الأولى هي ما سبقت الإشارة إليه من شدة القلق التي ألجأته إلى عملية إسقاط هلع الباطن على الخارج و على الكلام الظاهر، أما الدلالة الثانية فهي أن التطير يعد آخر خطوط المقاومة لدى الإنسان العاجز عن المبادرة باتخاذ الوسائل والتعاطي مع الأسباب الحقيقية لمواجهة الخطر والتحكم في الوضع، ولما كان المعتمد غير قادر على ذلك فقد ظهرت عليه بوادر الانهيار والاستسلام للقدر المحتوم وتجلت هذه البوادر في مخاطبته لمنجمه الخاص "أبي بكر الخولاني" إذ قال له[2] :

أرمدت أم بنجومك الرمد؟	فقد عاد ضدا كل ما تعد
هل في حسابك ما تؤملـــه	أم قد تصرم عندك الأمـــد
فالآن لا عين ولا أثــــــر	أتراك غيب شخصك البلد
الملك لايبقي على أحـــــد	والموت لا يبقى له أحـــد

إنه الانهيار الذي تحولت معه كل الأحلام إلى انتكاسات، وكل الآمال إلى إحباطات فلا مجال للوهم، ولا مجال للاطمئنان إلى دغدغات منجم يريد زرع الإرادة والعزم في جنبات نفس سكنها "عصاب المصير" الذي رسخ لديها يقينا لا يتزعزع وقناعة لا تتحلحل هي أن "الملك لا يبقى لأحد "بل إن المُلْك عند المعتمد المعصوب

1- ابن بسام. الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة. ق 2 / مج 1. ص.58

2- المعتمد. الديوان.ص148.

يغدو نظير الموت[1]

الملك لا يبقي على أحـــــد والموت لا يبقى له أحـــد

فمثلما يأبى الموت أن يترك الحياة في متناول الإنسان إلى الأبد، يأبى الملك أن يبقى في قبضة أحد لا يفلت منها إلى الأبد.

ويبدو أن هذه القناعة كانت من العوامل التي ساعدت المعتمد بن عباد على تجاوز صدمة فقدان الملك، والتعايش مع عذاب وآلام الأسر التي ستكون المحور الأخير لهذا البحث.

1- المعتمد. الديوان.ص148.

III- مرحلة الأسر

أ- الاستسلام للمصير

يعد سقوط مملكة بني عباد واستيلاء الرابطين على مقاليد اشبيلية خروجا مأساويا للمعتمد من الباب الضيق، ونهاية سياسية قاسية له؛ إذ لا يوجد ما هو أقسى على نفس الإنسان من أن تفقد ما تملكه مهما كان هينا، فكيف إذا كان المفقود عرشا ملكيا بنعيمه ونعمائه، ومملكة بخيراتها وغلاتها وولاياتها؟ ناهيك بما يترتب على فقدان الملك من تبدل الحال من النقيض إلى النقيض أي من العلو السامق إلى الحضيض الهابط، ومن العز إلى الذل، ومن الأنس إلى الوحشة والغربة، ومن الحرية المطلقة إلى الأسر المقيد لأبسط الحركات والرغبات.

وتزداد قسوة فقدان الملك على المعتمد إذا وضعنا في الحسبان المرحلة التي خلع فيها؛ فقد جاءت بعدما حقق نصرا استراتجيا لا يقتصر أثره على المملكة الإشبيلية فقط وإنما مس الأندلس كلها على اختلاف ممالكها، وهو ما جعل اسم المعتمد يطير في الآفاق كما - مر بنا – أي أن الأسر جاء بعدما تهيأت للمعتمد أسباب المجد والخلود، وتحررت نفسه من ضغوط ومشاعر العجز والعار والتقصير في استرجاع أمجاد الأندلس، وهي المشاعر التي رصدنا آثارها من خلال العديد من السلوكات والإواليات الدفاعية والحلول الهروبية التعويضية، فلما حانت ساعة استثمار اللحظة التاريخية التي صنعها بنفسه، جاءت بدلها ساعة المصير التي آذنت بالخاتمة المروعة حيث خلع من ملكه وأخرج من جنة الأندلس ليهبط إلى أرض العدوة مأسورا بأغمات.

والنهايات التي تكون بهذا الشكل هي التي تجعل الموت ألذ الأمنيات، وأحلى الرغبات، لأن أصحاب هذه النهايات يكتشفون سرابية الآمال، وبشاعة الحياة، وقبح الدنيا إذ تنكشف لهم حقائقها فيرون العالم عاريا بعيدة عنه الأقنعة كلها ساقطة بجانبه كل أوراق التوت !.

وهذا هو سر إقدام العديد من القادة - الذين عرفوا مثل هذه النهايات- على الانتحار هروبا من حقيقة الحياة التي أحبوها وتفانوا في حبهم لها.

وقسوة النهاية المروعة هي التي أضفت على شخصية المعتمد ظلالا أسطورية إضافية، لأنها أخرجته في صورة البطل الذي قدم كل ما لديه لأمته ليحميها من السقوط فلما حقق لها آمالها سلب منه ما تبقى له من ملك ومال وأبناء وهو الذي كان يستعد لتقديم روحه فداء لسالبيه وخالعيه.

وهذه النهاية - أيضا - هي التي كانت بمثابة المادة والتجربة الدرامية التي تغذى منها شعره في الأسر حيث تجلت فيه نفسية وشخصية المعتمد في صورتها النهائية الحقيقية التي أكدت اتساق ملامحها العريضة من خلال السمات والمظاهر الخصائية، والإواليات الدفاعية السابقة من نفاج وتبخيس لقيمة الحياة والملك وفي المقابل ظهرت على المعتمد نزعة إنكفائية على ذاته فبدا محتميا بأمجاد الماضي - وهو في الأسر- مرتاح الضمير لأنه قدم ما لديه من جهد، فبدا كالذي تحقق له المصير المنتظر منذ مدة.

ب- الإحباط والانتحار النفسي

الفشل في تحقيق الرغبات،وفي الحفاظ على المكتسبات بوابة عريضة تدلف منها العديد من أنواع ردود الفعل الظاهرة والمقنعة؛ فالنفس الانسانية حال فشلها لا تطيق مرارة الحقيقة، ولا تتحمل كنه الواقع الذي يظلم حتى لا ترى في الأفق سوى السواد، ولا تدرك من أحلامها إلا الرماد وهذا الفشل يولد الإحباط القاتل للنفس ورغباتها الظاهرة لكنه يستنفر اللاشعور كرد فعل يكافئ قوة الصدمة، ويسمى رد الفعل هذا "بالرضة"[1] حيث:"يدير الإنسان ظهره للعالم، يتعلم أن يقمع رغبته حتى لا يشعر بآلام الإحباط، يقطع الصلة بموضوعات هذه الرغبة كي لا تثير في نفسه قلق الخواء، وما يجره من إحساس بانعدام القيمة"[2]،والمعتمد بعد خلعه وتعرضه

1- جورج طرابيشي. المثقفون العرب والتراث. ص22

2- د.مصطفى حجازي. التخلف الاجتماعي. مدخل إلى سيكولوجية الإنسان المقهور. ص101.

للأسر و الإذلال وجدناه قد أدار ظهره للعالم مبخسا لقيمة الملك وقيمة الدنيا قائلا[1] :

أرى الدنيا الدنية لا تواتـــي	فأجمل في التصرف والطلاب
ولا يغررك منها حسن بـــرد	له علمان من ذهب الذهاب
فأولها رجاء من ســـــراب	وآخرها رداء من تـــــراب.

ها هي الدنيا تغدو دنية، وها هو الذهب مشتق من الذهاب أي أن لا شيء يبقى طوع مالكه، وهذا ما يسمى بالتبخيس، وقد سلطه المعتمد على الحياة، وهو تحول جذري في رؤيته لها؛ فقد كان حريصا على العب من متعها، وعلى الاستزادة من لذاتها حتى قال حين طابت له شهواتها ونعيمها[2] :

لو أن عمرك ألف عام كامل	ما كان حقا أن يقال طويل

وأكثر من هذا فقد كان التفكير في الموت ينغص عليه حياته، ويفسد صالح لذاته، ولهذا كان يدعو إلى نبذ التفكير في الموت والأسى ويحض على الإقبال على الحياة[3]

علل فؤادك قد أبل عليـــل	واغنم حياتك فالبقاء قليـــل

وهذا التحول يكشف مدى وقع مأساة الخلع والأسر، وفقدان الملك والأبناء والتحول من العز والنعماء إلى الذل والفقر.

إن الدعوة إلى نبذ الدنيا ومباهجها وتحقيرها إنما هي سلوك انكفائي، وانسحاب إجباري من الحياة، يسميه المحللون الانتحار النفسي ويعرف بأنه "نوع من الانتحار غير الصريح حيث يزهد البعض في الحياة تماما ويبغضونها..."[4].

وقد تطور هذا النبذ إلى تمني الموت حد الانزعاج والتعجب من سطر رسالة بعث بها الطبيب أبو العلاء

---

1 - المعتمد.الديوان. ص152.

2 ، 3 – م ن. ص 66

4 – د. حسين فايد. الاضطرابات السلوكية. ص 242.

زهر، وفيها دعا للمعتمد بطول البقاء فما كان منه إلا أن رد عليه[1]:

دعا لي بالبقاء وكيف يهوى	أسير أن يطول به البقـــــــاء ؟
أليس الموت أروح من حياة	يطول على الشقي بـــها البقاء؟
فمن يك من هواه لقاء حب	فإن هواي من حتفي اللقـــــاء

إن المعتمد إذ يترعج من دعاء صديقه، ويتعجب منه ليس غرضه أن يستعرض ذوقا أرستقراطيا يعطي لكل مقام ما يستحق من الألفاظ والعبارات، فهو ليس بصدد تنبيه صديقه إلى أنه أخل بما يقتضيه المقام حين دعا له بطول البقاء وهو أسير وإنما يعبر عن نفسية تتعذب وتتحطم وتدرك أن عذابها لا حل له ولا أصل لها في انقطاعه عنها، ويشتد هذا العذاب حين يرى بناته فقيرات عواري[2]:

أأرغب أن أعيش أرى بناتي	عواري قد أضر بها الحفـــــاء

وأمام هذه الحال، وهذا العذاب تستيقظ مشاعر العدوانية بداخل المعتمد فلا يجد أفضل من صبها على الذات بتمني الموت وتفضيله على الحياة.

ج- الانكفاء على الذات

إن تمني الموت لا يخلو من إوالية "النكوص" أو"الارتداد" وهو من الحيل اللاشعورية، الرامية إلى "تخفيف درجة التوتر الناشئ عن مواجهة الفرد لعائق أو مشكلة، وهو يرمي إلى تجنب الشعور بالفشل..."[3] ومن مظاهر النكوص هو "...تراجع الفرد إلى أساليب طفلية أو بدائية من التفكير أو السلوك حين يعجز عن التغلب بطريقة إيجابية لما يعانيه من كبت أو إحباط أوصراع"[4]، وتمني الموت ما هو إلا حيلة نكوصية يتمنى خلالها المعتمد لو أنه يعود إلى مرحلة يستقل ويتحرر من كل مسؤولية فلا ضمير يؤنبه إذ يرى بناته عاريات ولا أحد يلومه أو يتشفى فيه إذ يفقد ملكه.

1، 2- المعتمد. الديوان. ص176.

3- د. فيصل عباس. التحليل النفسي للشخصية. ص96 ، 97.

4- م ن .ص 97.

وتتجلى إوالية النكوص بشكل أوضح من هذا في الأساليب الطفلية التي واجه بها حال الأسر، وفواجع الأحداث، فحينما قتل ولده المأمون والراضي على يد جيش ابن تاشفين سنة(484هـ) لم يجد وسيلة أفضل من البكاء والتصريح به والإصرار عليه أمام من دعوه للصبر حيث قال في تأبينهما[1]:

يقولون صبرا، لا سبيل إلى الصبر   سأبكي وأبكي ما تطاول من عمري

إن البكاء سلوك طفلي وحيلة لا شعورية هدفا تخفيف وطأة المصاب. ولجوء الراشد لهذا السلوك إنما هو نكوص وارتداد لمرحلة الطفولة.

والملاحظة الجديرة بالتسجيل أن بكائيات المعتمد تتقنع بقناع الإسقاط في كثير من الأحيان فهو لا يصرح ببكائه دائما، وإنما يتخذ من مكونات المكان وعناصره وسيلة لذلك، فكأن عزة نفسه تأبى عليه البكاء بشكل صريح -كما رأيناه- ومن أمثلة بكائه المقنع بقناع الإسقاط قوله[2]:

بكى المبارك في إثر ابن عبـــــاد   بكى على أثر غزلان وآســـــاد

بكت ثرياه لا غمت كواكبـــها   بـــمثل نوء الثريا الرائح الغادي

بكى الوحيد، بكى الزاهي وقبته   والنهر، والتاج كل ذله بـــادي

مساء السماء على أبنائـــه درر   يا لجة البحر دومي ذات إزبـــاد

إن القصر و الحصن و النهر و التاج و المساء كلها تبكي في إثر ابن عباد، أي أن الزمان و المكان يبكيانه، ولا شك أن هذا البكاء إنما هو وجيب أصداء و حنايا المعتمد الذي صار يرى الكون كله من خلالها.

و بكاء القصور الإشبيلية و أنهارها و حصونها هو تعبير عن الحنين إلى الماضي المقهور المندحر الذي مازال يصارع الحاضر التعيس في ساحة نفس و خيال المعتمد، و الصراع يتجلى من خلال الطباقين اللفظي و المعنوي بين "الرائح و الغادي" و بين "الزاهي و الوحيد" على التوالي و لا يكف شعر المعتمد من إمدادنا بإواليات

1- المعتمد. الديوان. ص162.

2- م ن. ص 161.

نفيسة المحطمة تحطم الأمواج المزبدة التي رأى فيها الجهود و الأتعاب يستحيل إلى هباء ينكسر على صخرة الدهر انكسار عاتي الأمواج على صخور الشواطئ، و ما تمنيه لها بأن تدوم على تعزيتها إلا ضربا من التعزية و التسلية و كأنه يقول:إن في انكسار الموج عزاء للنفس!! فموج العزم يستحيل على شاطئ الدهر زبدا.

و هذا ضرب آخر من ضروب الإسقاط.

و يمعن المعتمد في النكوص من خلال آلية الإسقاط حيث نجده لما ثار ابنه عبد الجبار بأركش[1] يغضب و يجزع لكنه سرعان ما "تهللت أسرته، وظلته مسرته...و تشوف إلى السماء و تطلع...فما كان إلا مقدار ما تنداح دائرة، أو تلتفت مقلة حائرة حتى قال[2]:

كذا يهلك السيف في جفنه	إذا هز كف طويل الحنين

ألا شـــرف يرحم الـــمشرفي مـــما به من شـــمات الوتيـــــــــن

ألا حنة لابن مـــحنيـــــــة	شديد الحنين ضعيف الأنين
يؤمل من صدرها ضمـــــة	تبوئه صدر كفء معيـــن

فالنكوص إلى المرحلة الطفلية يبرز في البيتين الأخيرين من خلال استعطاف الشاعر لمن بإمكانه أن يحن على ابنه و يمكنه من الارتماء في أحضان الأم لعلها تزوده و تبوؤه صدرا يعينه و يسنده، وواضح أن هذه الأمنية التي تمناها المعتمد لابنه الثائر إنما هي أمنيته الشخصية التي عزت عليه نفسه أن يصرح بها فأسقطها عليه، وإذا ما شئنا تتبع آلية النكوص من خلال الإسقاط فإننا نجد أمثلة أخرى كثيرة نذكر منها مناجاته للقيد المكبل لرجليه[3]:

قيدي أما تعلمنـــي مسلمـــا؟	أبيت أن تشفق أو ترحـــما
دمي شراب لك واللحم قـــد	أكلته لا تـــهشم الأعظمـــا

1- عبد الواحد المراكشي، المعجب. ص 209 الهامش رقم 1. وانظر النفح. ج5. ص144.

2- المعتمد. الديوان. ص 178. وانظر: القلائد. ص 27.

3- المعتمد. الديوان ص 181.

يبصرنـــي فيك أبو هاشـــم فينثنـــي والقلب قد هشمـــا

ارحم طفيلا طائشا لبـــــه لم يـــخش أن يأتيك مسترحما

وارحم أخيات له مثلـــــه جرعتهن السم والعلقمـــــا

منهن من يفهم شيئا فقـــد خفنا عليه للبكاء العمـــــى

والغير لا يفهم شيئا فمـــا يفتح إلا للرضاع فـــــــما

إنها صورة عائلية تطفح بسلوكات البراءة الإشفاق والعطف المتبادل بين الأب وأبنائه وبناته، حيث يتمنى المعتمد أن يلين الحديد لهذه الحال المأساوية ثم ينهاه زاجرا ألا يهشم العظم لكنه يمرر الاشتعطاف بتصوير حال " الطفيل أبي هاشم " " والأخيات " الضعيفات اللائي تجرعن سم الأسر مع والدهن. وفي طيات الاستعطاف على لسان الأبناء يضمن بكاءه الدائم حتى إن بنياته ليخشين عليه العمى.

إن إوالية النكوص إلى المرحلة الطفلية من خلال البكاء والحنين إلى صدر الأم الحنون جاءت مقترنة بإوالية إسقاطية لجأ إليها المعتمد حفاظا على عزته الممرغة في تراب الأسر، وكل هذا جاء في سياق عام سميناه " الانكفاء على الذات " وعادة ما يكون مصطحبا بإواليات أخرى كالاعتراف بالذنب وتبخيس الذات وإدانة الغير إلا أن شعر المعتمد خلا من هذه الإواليات الدفاعية، والسبب - فيما يبدو - هو أن الزمن الطائفي هون مثل هذه الأحوال المأساوية ولهذا نال الزمن أو الدهر من إدانة المعتمد النصيب الأوفى من ذلك قوله:[1]

قبح الدهر فماذا صنعـــا كلما أعطى نفيسا نزعـــــا

وقناعة المعتمد بأن الدهر قُلّب وأنه يرجع في عطيته قناعة راسخة. وهي ذات صلة بعصاب المصير الذي يجعل المعصوبين به في حالة انتظار دائم للفجائع والمصائب.

ويبدو المعتمد -في ظل الخلع والأسر- كمن اكتشف أن حسنات الدهر ما هي إلا فلتات أو ذنوب سرعان

1- المعتمد. الديوان. ص 155.

ما يتوب الدهر منها فتتهاطل الفجائع على رأس من أحسن إليه حتى تمحى الأخطاء ويخرج الدهر بلا ذنب.

وفي هذا قال[1]:

أبى الدهر أن يقنى الحياء ويندما   وأن يمحو الذنب الذي كان قدما

وهذه سخرية مريرة من الدهر الذي استرجع عطاياه خجلا من حسناته التي صار المعتمد يراها ذنوبا.

وتأمل المعتمد للدهر وتقلباته ينطلق من بداية مسار حياته حتى الأسر في شكل استرجاع وتذكر يوحي بأنه طوى مرحلة الأحلام و لم يبق أمامه شيئ فعاد إلى الماضي ليصف صراعه مع الدهر خصمه اللدود فقال[2]:

قد كان دهرك إن تأمره ممتثلا   فردك الدهر منهيا ومأمــــورا

من بات بعدك في ملك يسر به   فإنــما بات بالأحلام مغمــورا

إن هذا الصراع محسومة نتائجه، والغلبة - لا محالة- هي للدهر وهذا ما يعيننا على اكتشاف سر إدانة المعتمد له وإعراضه عن إدانة الآخرين، ذلك أنه حين يؤثم الدهر ويوجه إليه أصابع الاتهام إنما يبرئ نفسه من كل عار. لأنه انهزم أمام إرادة عليا لا تقهر ولا تجابه.

هـــ- القدرية والانسحاب

إن ذن الدهر وتبخيسه يبرئ المعتمد من العار لأنه انهزم أمام ارادة قوية لا تغلب فهي إرادة قدرية والقدرية في التحليل النفسي تبين أن صاحبها قد بلغ العجز منه أقصاه. وأنه في حالة هروب مقنع من الصراع الذي دخل حلبته، وتبدو هذه القدرية صريحة غير مقنعة في شعر المعتمد من ذلك قوله:[3]

اقنع بحظك في دنياك ما كـــــان   وعز نفسك إن فارقت أوطانا

وطن على الكره وارقب إثره فرجا   واستغفر الله تغنم منه غفرانــا

إن الدعوة إلى القناعة بالحظ وإلى الجمع بين توقع المكروه مع ارتقاب الفرج هي سلوك أو أسلوب دفاعي

1- المعتمد. الديوان. ص 158.
2- م ن، ص 169.
3- م ن، ص 192.

ينسحب من خلاله المنهزمون المحبطون إلى واحة التسليم والرضوخ وبالتالي فهي استجابة استسلامية تُوهَم النفس من خلالها بأنها حين تؤمن بالقدر فإنها ستكافأ بانتظار الفرج لهذا لاحظ الدارسون أن ظهور هذه الاستجابة" يكون حين يصل عجز الإنسان مداه، و تنعدم قدرته على توجيه الأحداث و التأثير في الظروف وهي تضمن محاولة ذاتية للسيطرة على المصير من خلال القول أن هذه هي طبيعة الأمور... مما يدخل بعض العزاء إلى النفس و الطمأنينة إلى أن القدر إن قسا مرة، فلابد أن يأتي بعد ذلك فرج..."[1].

إن الخيط الرابط بين هذه الإواليات المتشابكة و المعقدة تعقد النفس البشرية هو خيط الإنكفاء على الذات وقد رأينا بانه قد بدأ بتبخيس قيمة الحياة كتبرير من المعتمد لدعوته إلى الزهد فيها و عدم الحرص عليها لتفاهتها وغرور أحلامها، و رأينا أن هذه الدعوة ضرب من الانتحار النفسي و تدمير الذات و في هذا السياق الداعي إلى نبذ الحياة و الانسحاب منها بدت على المعتمد سلوكات طفلية تجلت من خلال بكائياتها الصريحة و المقنعة و سمينا هذا السلوك نكوصا أو ارتدادا، و هو ارتداد إلى الماضي القريب مزجه الشاعر بإوالية الاسقاط حفاظا على ما بقى من عزته و لو معنويا، و لما كانت هذه السلوكات و الإواليات هدفها تخفيف آلام الإحباط والفشل فقد انساق الشاعر إلى القدرية حيث وجد على ضفافها عزاء يعفيه من عار الهزيمة و الخلع و الأسر تجلت لنا هذه القدرية من خلال إدانة الشاعر للدهر كتبرئة للذات أمام الإرادة الغالبة.

هـــ- التغني بالأمجاد

و مادمنا لم نخرج من مظاهر الانكفاء على الذات يمكننا أن ندرج ظاهرة التغني بالأمجاد و الماضي البعيد في هذا السياق ذلك أن المعتمد لم يجد ملاذا يحتمي به من وضعه وانسداد الأفق أمامه سوى الحديث عن ماضيه البعيد و عراقة العائلة في الملك منذ القديم وهو حين يتحدث عن هذا الماضي يبدو مثل الخبير المجرب المدرك لاستحالة بقاء أحد في الملك، و عليه فالخلع لا يعني نهاية المجد بل هو من الحوادث التي خبرها الملوك و النبلاء في شكل خطوب طارقة لا تؤثر على المسار العام لعراقة الأسرة في المجد فحينما سمع بأن رجلا "رأى في منامه كأن

1- د. مصطفى حجازي. التخلف الاجتماعي. مدخل إلى سيكولوجية الإنسان المقهور . ص.163

2- المعتمد. الديوان. ص147.

رجلا صعد منبر جامع قرطبة واستقبل الناس..." [1]. وأنشدهم شعرا أوله المعتمد بأنه نعي لملكه متطيرا، إلا أنه سرعان ما بين أن ثقته بمجده الشخصي والعائلي لم تتزعزع إذ راح يردد[2]:

من عزا المجد إلينا قد صـــدق	لم يلم من قال مهما قال حق
مجدنا الشمس سناءا وسنـــا	من يرم ستر سناها لم يطـــق
أيها الناعي إلينا مـــجدنـــا	هل يضر المجد أن خطب طرق
نحن أبناء بني ماء السمـــاء	نحونا تطمع ألحاظ الـــحـــدق

إن إوالية الانكفاء على الذات، والرجوع إلى الماضي المجيد هي إوالية هروبية من آلام الحاضر وقد تضافرت مع "عصاب المصير" فتهيأ المعتمد للفاجعة المنتظرة، التي جاءت أثناء ارتفاع روحه المعنوية عقب ما قدمه للأندلس في الزلاقة، كل هذا أسهم في احتفاظ المعتمد بصورته الذاتية بعيدة عن التأثيم والتبخيس رغم قساوة الحال، حيث ظل معتدا بنفسه لا يرهقه عذاب ضمير، ولا يثقله أي شعور بالتقصير في تأدية ما عليه فقد ظل يردد بأنه لم يخضع و لم يلن وأنه قاوم حتى النهاية ولا ذنب عليه ما دام أجله قد تأخر دون إرادة منه وحجته أنه عندما هوجمت مملكته قاوم حتى الأسر وكان يتمنى الموت بدلا من ذلك[2]:

قالوا: الخضوع سياسة	فليبد منك لهم خضــــوع
وألذ من طعم الخضوع	على فمي السم النقيـــــع
إن يسلب القوم العدى	ملكي وتسلمني الجمـــوع
فالقلب بين ضلوعـــه	لم تسلم القلب الضلـــوع
لم أستلب شرف الطبا	ع، أيسلب الشرف الرفيع
قد رمت يوم نزالـــهم	ألا تحصنني الـــــــدروع

1- المعتمد. الديوان. ص 147.

2- م ن. ص 150.

و برزت ليـــس ســـوى القميـــص عن الـــحشى شـــيء دفـــوع

أجلي تأخر، لم يكـــــن بـــهواي ذلي والخضـــوع

ما سرت قط إلى القتـــا ل وكان من أملي الرجوع

إن المعتمد بصدد وصف لحظة خلعه التي أيقن عندها بأن لا مجال للعيش فخرج للدفاع حتى الموت فأبلى بلاء حسنا وهو حاسر ليس عليه سوى قميصه لا درع ولا ترس يقيه من سيوف وسهام الأعداء،ومع هذا لم يصب بأذى، فَلِمَ يشعر بالذنب؟ ولِمَ يبخس ذاته؟ إن حاله قدر محتوم، وقضاء سابق؛ وعزاءه أنه لم يخل بواجب المجد وشرف الأرومة، فقد كان فارسا في معركة الذود عن المملكة، وكان ضحية من وثق بهم حين أدخلهم إلى الأندلس واستقبلهم أحسن استقبال يليق بالمجد الأصيل، والشرف العريق، ويؤكد أن دوره وعمله هذا ما هو إلا تكملة لمسار المجد المتوارث أبا عن جد فيقول[1]:

شيم الألـــى أنا منهـــــــم والأصل تتبعه الفـــــروع

لا يخفى أن هذا التأكيد على أصالة المجد هو احتماء بالماضي، وتبدو فاعلية هذا السلوك حين نستحضر معطيات العصر الطائفي أين كثر فيه الدخلاء على الملك والواغلون فيه، فكأن المعتمد يتميز عن سائر المخلوعين، بهذا الماضي المجيد، ولِمَ لا نقول إنه كان يشعر بتميزه عن خالعيه؟؛ فالحديث عن الماضي لا يكتفي بالاحتماء انْكِفَاءً، وإنما هو أيضا تعريض بخصومه ونظرائه اِسْتِعْلاَءً.

والخلاصة إن هذه الحيل أو الإواليات الدفاعية هي حيل جديدة بدت على سلوكات المعتمد وتصرفاته، وهي تنسجم مع بنية شخصيته التي رأينا أنها أمام الضغط والقهر تميل إلى التطابق مع ظروفهما ومقتضياتهما دون أن تترك المجال للنيل من تقدير الذات، وهذا سر استمراره في الاعتزاز بنفسه والرضى بقدره ومصيره.

والحق أن الزمن القاهر قد صنع للمعتمد أبا قاهرا هيأه للتكيف مع أوضاع القهر، فلا عجب إذا وجدناه في هذه المرحلة يستعيد بعضا من حيل نفسه في الماضي الأبوي، ونذكر منها:

1- م ن. ص .151.

1- التماهي بالمعتدي:

مر بنا أن المعتمد يتماهى بسلوكات أبيه التي كانت تتناقض مع طبعه وشخصيته إلا أنه إرضاء لأبيه كان يتبناها ويمدحها ويعد نفسه للقيام بها بدلا من أبيه، وهذا التماهي نجده يتكرر مع يوسف بن تاشفين حيث خلع عليه صفات التقى، وعبر عن حبه له ذاكرا بلاءه يوم الزلاقة فقال[1]:

وقلبي نزوع إلى يوســـــف فلولا الضلوع عليه لطـــــــارا

ولولاك يا يوسف الـــمتقى رأينا الـــجزيرة للكفــــر دارا

إنه ومهما كان الحديث عن يوسف بن تاشفين في سياق الحديث عن أجواء الزلاقة ومشاعر جواز المعتمد إليه بالعدوة مستنجدا فإن التعبير عن حبه له في ظل الأسر، والوفاء والتقدير لموقفه ووقوفه إلى جانب الأندلسيين ضد النصارى، يعد تماهيا بالمعتدي إذ استعار المعتمد صفات يوسف بن تاشفين وأخرجها في صورة ذوبانية يمتزج فيها المقهور بالقاهر حتى يصبح الحديث عنهما واحدا ويصعب تمييزهما عن بعض حيث يقول مخاطبا يوسف بن تاشفين[2]:

ويوم العروبة ذدت العـــدى نصرت الهدى وأبيت الفــرارا

تثبت هناك وأن القلـــــــو ب، بين الضلوع لتأبى الفــرارا

ولولاك يايوسف الـــمتقـــى رأينا الجزيرة للكفـــــــر دارا

رأينا السيوف ضحى كالنجو م وكالليل ذاك الغبار الـــمثـــارا

فللّه دِرك في هولـــــــــــه لقد زاد بأسك فيه اشتهـــــارا

تزيد اجتراء إذا ما الرمـــــا ح عند التناجز زدن اشتجـــارا

ستلقى فعالك يوم الحســـا ب تنثر بالـــمسك منك انتثارا

1- المعتمد، الديوان. ص 159.

2- م ن. ص 159 ، 160.

وللشهداء ثناء عليـــــك بحسن مقامك ذاك النهـــارا

وأنـــهم بك يستبشـــرو ن ألا تخاف ولا تضـــــارا

وتلقى نعيما ينسي الشقا وتجني سراحا ينسي الإسارا

إذا كان البيت الأخير يرشدنا إلى أن القصيدة هي مناجاة ذاتية فإنه لا توجد قرينة لفظية أو معنوية أوسياقية نعتمد عليها في انتقال المعتمد من الحديث إلى يوسف للحديث إلى نفسه ومناجاتها، ولا يعود هذا إلى عجز فني، أو فقر لغوي عند الشاعر بقدر ما هو تعبير عن التماهي الذوباني بالمعتدي، وهذا التماهي تلجأ النفس إليه لا شعوريا في حالة العجز التام عن التصدي للأخطار التي تواجهها واللافت للنظر أننا إذا شئنا توظيف مصطلح التماهي الاسقاطي الذي تستعمله " ميلاني كلاين " وتعرفه بأنه " إوالية يحاول الشخص من خلالها إدخال ذاته هواميا داخل شخص آخر "[1] فإن القصيدة السابقة تعد ضربا من مبالغات الحب ليس للشخص وإنما " لما نسقطه عليه من مثالية نرغبها "[2] وعليه فالمعتمد المولع بالبطولة والفروسية، والشهرة والمجد قد وجد في ابن تاشفين ما يرغبه بغض النظر عن آلامه.

2- عقدة الخصاء:

مر بنا أن المعتمد عاش في مرحلة الإمارة في ظل والده حيث عانى شتى أنواع العجز وعدم إثبات الذات، ورأينا أن هوام الخصاء تجلى في علاقته مع المرأة إذ بدت عليه علامات خصائية صريحة أو مقنعة في سلوكات تعويضية تفاخرية تتغنى بالغزوات الغرامية، وتستعرض قوتها العاطفية والجنسية بجيش من النساء.

والحق أن فقدان الملك والخلع منه والأسر كلها ظروف مواتية لظهور عقدة الخصاء لأن هذه العقدة " تتفعل في كل مرة يحيا فيها الفرد تجربة من تجارب عدم الملك "[3] والمعتمد يعيش تجربة أقسى من عدم الملك؛ فهي تجربة فقده والخروج منه مكبلا مستسلما ليوضع في ظروف لا تليق بمقامه، منها أنه أصبح يرى بناته حافيات

1، 2 – د. مصطفى حجازي، التخلف الاجتماعي، مدخل إلى سيكولوجية الإنسان المقهور. ص 242.

3- جورج طرابيشي، المثقفون العرب والتراث. ص 160.

عاريات يغزلن للناس كما قال[1]

ترى بناتك في الأطمار جائعة	يغزلن للناس، ما يملكن قطميرا
يطأن في الطين والأقدام حافية	كأنها لم تطأ مسكا وكافـــورا

والأقسى من هذا المنظر أن بناته يعملن عند سيدة كان أبوها من حراس المعتمد السابقين الذين كانوا يتذللون أمامه، فلما انقلبت الدنيا عليه وجد بناته أجيرات عند بنته[2]:

أأرغب أن أعيش أرى بناتـــي	عوراي قد أضر بها الحفاء
خوادم بنت من قد كان أعلى	مراتبه - إذا أبدو - النداء
وطرد الناس من بين يدي ممري	وكفهم إذا غص الفنـــاء
وركض عن يمين أو شـــمال	لنظم الجيش إن رفع اللواء

ويبدو أن هذه الظروف مقصودة ذلك أنه قد أحيط بخدام برابرة سود لا يفهمون عنه، ولا يقدرون مقامه؛ فهم كالأحمرة الجرباء التي أثارت حنقه واستياءه فباح بالشكوى لصديقه ابن حمديس قائلا[3]:

عدمت من الخدام كل مهذب	أشير إليه بالخفي من الأمر
و لم يبق إلا كل أدكن ألكن	فلا آذن في الإذن يبرأمن عر

إن هذه الحال المزرية والظروف القاسية تهدف إلى تكسير نفسية المعتمد وتحطيمها، والشكوى منها وتمني الموت بدلا من البقاء فيها هو ضرب من الخصاء لأن " القاعدة الذهبية للتحليل النفسي تؤكد أن كل خفض في قيمة الذات يعاش في اللاشعور على أنه ضرب من خصاء "[4] واللافت للنظر أن هذه العقدة التي رأينا أن المعتمد عاشها من قبل لم تتغير صور ظهورها فهي قد تبدو في شكل صريح سافر حين يعلو صوت الشكوى والعجز

1- المعتمد، الديوان. ص 169.

2- م ن. ص 176.

3- المعتمد،الديوان. ص 173.

4- جورج طرابشي، الروائي وبطله. ص 57.

والذل مثل قوله[1]:

وأبقى أسام الذل في أرض غربة   وما كنت لولا الغدر ذاك أسام

أو مثل قوله[2]:

قلت الخطوب أذلتني طوارقها   وكان عزمي للأعداء طراقـــا

والتصريح بالعجز والخصاء يبلغ مداه حين يقارن بين ماضيه في الملك عزيزا كريما شجاعا يحي الأرواح بعطائه ويقبضها في الحرب بحسامه وبين حاضره في الأسر محطما مهيض الجناح فيقول[3]:

كنت حلف الندى ورب السماح   وحبيب النفـــــوس والأرواح

إذ يـــميني للبذل يوم العطايـــــا   ولقبض الأرواح يوم الكفـــاح

وشـــمالـــي لقبض كل عنـــان   يقحم الخيل في مـــجال الرماح

وأنا اليوم رهن أسر وفقـــــــر   مستباح الـــحمى مهيض الجناح

لا أجيب الصريخ إن حضر النـــا   س ولا الـــمعتفين يوم السماح

وقد تبدو عقدة الخصاء في شكل مقنع بحيث تتداخل مظاهرها وتمتزج بإوالية الانكفاء على الذات؛ فحديث الشاعر عن بطولته وشجاعته، وأنه فقيد ساحات الوغى، وميادين العطاء وأن السيوف تبكيه هو صورة تعويضية عن حالة الخصاء والعجز والخواء والجذب التي تخف آلامها وتضعف وطأتها أمام هدهدات البطولة المربته على كتف الأسير المكبل،من ذلك قوله[4]:

غريب بأرض المغربين أسيـــر   سيبكي عليه منبر وسريـــــر

وتندبه البيض الصوارم والقنـــا   وينهل دمع بينهن غزيـــر

سيبكيه في زاهيه والزاهر الندى   وطلابه والعرف ثم نكيـــر

1- المعتمد، الديوان. ص 177.

2- م ن، ص 181.

3- م ن، ص 157.

4- م ن. ص171

ومهما يبدو التداخل بين إوالية النكوص بتوظيف آليه الإسقاط، وبين هذه الصورة التعويضية للخصاء، صعب الفهم. أو متناقضا إلا أن طبيعة النفس البشرية المعقدة تقبل به فمنطقها يختلف عن منطق العقل، وإلا كيف نفسر تلذذ المازوشي بالألم الذي يسلط عليه؟ وكيف نفسر تلذذ السادي بتعذيب غيره؟.

إن عقدة الخصاء المقنعة بالتفاخر البطولي والاستعراض القتالي ليست غريبة عن المعتمد فهو حين يتحدث عن الماضي التاريخي فإنما يتحدث عن الماضي النفسي أيضا يوم كانت بطولاته هواما وتطييفا هروبيا من واقع اللهو والانغماس في اللذات، وفي حال الأسر ألا يمكن أن نعد هذا الحديث التذكري هروبا من آلام العجز والانكسار؟ كيف نفسر حديثه عن نفسه[1]؟

وكم أعلت علاه من حضيض	وكم حطت ظباه من أمير
زمان تراجعت عن جانبيــــه	جياد الخيل بالموت الـــمبير
بـــحيث يطير بالأبطال ذعـــر	ويلفى ثم أرجح من ثبيـــر

إن العزة اللخمية الممرغة والمحطمة ليرضيها هذا التقنع والتستر، فلئن كان واقع الحال يجعل الصبر مستحيلا، والشكوى والضراعة حتمية، فإن التمويه بهذا الأسلوب ليهون عليها أن تظل محافظة على بعض من رزانتها التي كانت ترجح رزانة "ثبير"، وتفوق رزانة كل الأبطال الذين يطيرون ذعرا من هول الموت المبير.

والمعتمد قد يمزج بين الطريقتين في التعبير عن عجزه وخصائه؛ فيجمع بين الضراعة الصريحة، والتقنع والاختفاء وراء صور التعويض ومن ذلك[2]

لك الحمد من بعد السيوف كبول	بساقي منها في السجون حجول
وكنا إذا حانت لـــحرب فريضة	ونادت بأوقات الصلاة طبـــول
شهدنا فكبرنا فظلت سيوفنـــــا	تصلي بـــهامات العدى فتطيل

1- المعتمد، الديوان، ص174، 175.

2- م ن. ص179، 180.

سجود على إثر الركوع متابع هناك بأرواح الكماة تسيـــل

يبدو الشاعر كمن يغالب آلامه، ويصارع قيوده وسجنه، فما إن يصرح بحاله التي انقلبت رأسا على عقب، حتى يستدرك ويمنع نفسه من الاسترسال في تلاوة مشاعر الخصاء والقهر فينطلق في الحديث عن بطولاته وجلاده، وعبث سيوفه بهامات الأعداء، وهذا الانطلاق في نظر التحليل النفسي هروب من عقدته التي مست ذاته وهو هروب يؤكد العقدة للمحلل أكثر مما ينفيها عنه.

وطريقة المزج بين التصريح والتقنع وإخفاء العقدة يمكن رصدها أيضا في قوله[1]:

تبدلت من عز ظل البنـــود بذل الحديد وثقل القيـــــود

وكان حديدي سنانا ذليقا وعضبا دقيقا صقيل الحديـــد

فقد صار ذاك وذا أدهمـــا يعض بساقي عض الأســــــود

غير أن الملاحظة الجديرة بالتأمل في سياق الحديث عن هذه العقدة وصورها الصريحة والمقنعة والممتزجة، هي أن آخر الأبيات التي قالها قبل وفاته وأوصى بأن تكتب على قبره، لا تخلو من تحد صارخ للقهر، وهروب تعويضي من عقدته الأساسية حيث قال[2]:

قبر الغريب سقاك الرائح الغـــادي حقا ظفرت بأشلاء ابن عبـــاد

بالطاعن الضارب الرامي إذا اقتتلوا بالموت أحمر بالضرغامة العادي

إن هذه الأبيات ستظل شاهدا على المعتمد بأنه رغم الألم ورغم القهر فإن " عرق الكبرياء مازال فيه حيا نابضا حتى الرمق الأخير من حياته "[3] وقد أبى إلا أن يعلي من شأن هذا العرق، ويسمعنا صوته الخافت ليختاره كآخر وتر يعزف عليه لحن المجد والبطولة ولو في باحة السجن، وفي ساعة الموت.

1- المعتمد، الديوان، ص.170.

2- م ن، ص193.

3- نديم مرعشلي. المعتمد بن عباد بطل جسد مأساة الأندلس وشاعر غنى مجدها المفقود. دار الكتاب العربي. ص 155.

الإيقاع ودلالاته النفسية

بادئ ذي بدء ينبغي أن أؤكد على أن الإيقاع والوزن كثيرا ما يلتبسان ويتداخلان حد التوحد والحلول، إذ نجد من يتحدث عن الإيقاع وهو يعني الوزن[1].

ومرد هذا التداخل والالتباس هو أن الوزن جزء من الإيقاع. واجتنابا لهذا اللبس أقول إن الحديث سينصب أساسا على الإيقاع بمفهومه الأدبي المتداول عند العديد من الدارسين الذين يعرفونه بأنه "حركة الأصوات الداخلية التي لا تعتمد على تقطيعات البحر أو التفاعيل العروضية"[2] وأنه "موسيقى ناتجة عن وسائل متعددة أهمها التكرار، تكرار كلمات معينة أو متشابهة أو حرف أو حروف متحدة المخرج أو متقاربته أو ذات صفة جرسية واحدة"[3] إلا أن انصباب الاهتمام على هذا الجانب الصوتي أو"التلوين الصوتي"[4] لن يكون سببا ولا مبررا لإغفال الحديث عن الإيقاع الفكري وعن البحور والأوزان كلما كانا دالين على نفسية الشاعر.

وفي هذا السياق التمهيدي أرى أنه من الواجب أن أبين أن اختيار الإيقاع دون الوزن ليكون كاشفا عن شخصية الشاعر، نابع من إيماني برأي أتبناه وأعده مثل المسلمة التي ألج بها باب التحليل النفسي لشخصية المعتمد من خلال إيقاع شعره، ومفاد هذا الرأي هو أن الجانب النفسي في الشعر إنما يبرز من خلال "الربط... بين الحالة النفسية والإيقاع، وليس بين هذه الحالة والوزن"[5]، فمثل البحور أو الوزن العروضي كمثل"العود"اليابس الأصم تتفجر أوتاره"الجافة" أنغاما عذبة مضمخة بالمسرات والأفراح أو بالمآسي والأحزان فهي تعطيك ما تعطيها من نفسك ولا يصح القول إن هذا العود يصلح للأحزان وذلك يصلح للأفراح، فالمعتمد مثلا نجده استعمل أحد عشر بحرا وردت في مراحل حياته المختلفة من الإمارة إلى الملك إلى الأسر

1- أنظر مثلا: د.حسين أبو النجا. الإيقاع في الشعر الجزائري. منشورات إتحاد الكتاب الجزائريين.ديسمبر.2003

2- د.عز الدين إسماعيل. الأسس الجمالية في النقد العربي. دار الفكر. الطبعة الثانية.1968.ص.374

3- يحي الشيخ صالح. شعر الثورة عند مفدي زكريا. دراسة تحليلية فنية. دار البعث.قسنطينة. الطبعة الأولى.1987.ص.294

4-د. عز الدين إسماعيل. الأسس الجمالية في النقد العربي.ص.374

5- م.ن. ص375.

وعبر بها جميعا باستثناء المجتث والمنسرح، وهو ما يعني بأن البحور أو الأوزان لا يمكن أن نعول عليها في مدّنا بنفسية الشاعر لأنها قابلة لاستيعاب مختلف الحالات المتناقضة للمبدع. ولا يعد المعتمد بدعا في هذا المجال فــ"الشعراء قد عبروا في الوزن الواحد عن حالات انفعال مختلفة، بل لقد عبروا عن حالات الحزن والبهجة في الوزن نفسه"[1] تماما كما رأينا عند المعتمد.

فما هي ملامح نفسيته من خلال الإيقاع يا ترى؟ هل يمكننا أن نجد إيقاعا ثقيلا متراخيا يعبر عن العجز والخصاء؟ وهل يمكننا رصد إيقاع ذابل يشي بالاستسلام واليأس؟ وهكذا دواليك...

الحق إن مثل هذه الأسئلة تعد تكبيلا لحرية البحث والباحث، لأن النتائج التي يقود إليها التحليل دون توجيهه هي الأكثر صدقا وصدقية من النتائج التي يسوق الباحث إليها بحثه سوقا قسريا، ولهذا فالإجابة عن الأسئلة السابقة لن تكون بالضرورة تأمينا وتصديقا أعمى على النتائج التي استخلصتها من الفصول السابقة، بل ستحاول الانطلاق من المعطيات اللفظية والصوتية والفكرية نحو تحليل موضوعي قدر الإمكان، من غير توجيه مسبق، ودون ادعاء لمثالية استعراضية، ودون نسيان لحقيقة واضحة وهي أن دراسة الإيقاع تبقى - دائما- رهينة ومتوقفة على قدرة الشاعر وشعره على تحميل إبداعه لشحنة الانفعال المولد للتجربة بحيث يتلقاها المتلقي بتفاعل يجعله يتماهى بصاحبها المبدع، ولشد ما تبادل المبدع والمتلقي الحضور في الإبداع، وتداولا على العملية الإبداعيا سرا وإعلانا!!.

من البديهي القول بأن الإيقاع في شعر المعتمد بن عباد يختلف من قصيدة إلى أخرى، ومن غرض لآخر ومن مرحلة لأخرى، غير أن اللافت للانتباه هو أن الإيقاع يختزل مراحل حياة الشاعر إلى مرحلتين حيث يتوحد الإيقاع ويتجانس في مرحلتي الإمارة والملك تبعا لتقلبات المواقف الحياتية إذ نجد قصير النفس في مرحلتي الإمارة والملك فربما قصائده لم يتجاوز عتبة العشرة أبيات علما بأنه في هاتين المرحلتين لم يقل سوى ثماني

1- د. عز الدين إسماعيل. التفسير النفي للأدب.ص60.

قصائد مع اعتبار أن القصيدة هي ما وصل عدد أبياتها إلى سبعة فما فوق أي أننا لا نعثر إلا على قصيدتين (25%) من المجموع جاءت الأولى في خمسة عشر بيتا أما الثانية فجاءت في أربعين بيتا، موضوع الأولى الغزل أما الثانية فموضوعها الاعتذار للأب ولا يخفى أن"المرأة"و"الأب"محوران مهمان ومؤثران ضاغطان على شخصية المعتمد المنشطرة بين الواقع اللاهي والمسؤولية الرسمية، ولئن اختلف بحرا القصيدة فإن اتفاق رويّهما سيكون مفتاحا مهما للتوغل في أعماق المعتمد، ذلك أن حرف الراء يتميز بأنه من الحروف "الرخوة" و"المجهورة"[1] "فالرخاوة" و "الجهر" صفتان دالتان على شخصية تعيش تجاذبا يتجلى من خلال اكتناز القصيدتين لمجموعة كبيرة من الحروف الانفجارية مثل القاف، الباء، الدال، الكاف، التاء، الضاد، الهمزة، فكأنما بين "الروي" والحروف التي يتضمنها الحشو ما يكشف صفة التجاذب الوجداني التي تميز شخصية الشاعر، فهو يتكئ على حرف "رخو مجهور" لكنه يخرجه من بين مجموعة حروف انفجارية شديدة، تماما كما رأينا سمة الرفض الداخلي والتطابق الخارجي التي تميز العصابيين، ينضاف إلى هذا اختيار الشاعر- في القصيدة الغزلية- للكلمات المشتملة على حروف المد واللين وهو ما يناسب حالة الخور أمام المرأة، والألم الذي يسببه هذا الخور لا يخرجه الشاعر إلا بالاسترخاء والمطاولة بين المد واللين. وقد جاءت القصيدة كما يأتي:[2]

القلب قد لج فما يقصــــــــر	والوجد قد جل فما يستر
والدمع جار قطره وابـــــــــل	والجسم بال لونه أصفـــر
هذا ومن أعشقه واصـــــــــل	كيف به لو أنه يهجـــــر
لكن عدتني نائبات النــــــوى	في دوحه والشادن الأحور
والكوكب الوقاد تحت الدجى	في أفقه والقمر الأزهـــــر
والنرجس الفواح غب النـــدى	في روضه والمندل الأذفـــر

1- د. حسن ظاظا. كلام العرب. من قضايا اللغة العربية. دار النهضة العربية بيروت.1976.ص17

2- المعتمد. الديوان. ص37.

قد خبرت عني أنـــي امـــــرؤ   فيه شحوب وضنى يظهـــــــــر

فأبدت الإشفاق من حالتــــــي   ومثل ما تبديه ما تضمـــــــــر

واستفهمت إن كنت ذا علـــة   أو ذا اشتياق ناره تسعـــــــــر

سيدتي لم تنصفي عاشــــــــقا   أضحى كما أخبرك المخبـــــــــر

إذا قلت:" هل من ألـــم طائف؟   ما بك؟ ...أو شوق، فما تصبر؟

ظلمت بالشك هواي الـــــذي   يعرفه الغيب والحضـــــــــــــر

والله ما سقمي إلا هــــــــوى   كل هوى في جنبه يصغـــــــــر

غير جسمي! فاعلمي أننـــــي   أروم لقياك ولا أقــــــــــــــدر

فاستغفري الله من الظلم لـــــي   فإن من أظلم يستغفـــــــــــــر

نلاحظ أن الكلمات والحروف الواردة في القصيدة مليئة بالمد واللين حيث يمتد نفس الشاعر في: "فما" "جار" "وابل" "بال" "واصل" "نائبات" "النوى" "الشادن" "الوقاد" "شحوب" "شوق" "أروم" "لقياك"... إلخ.

وهي نماذج كافية لرصد الظاهرة الصوتية المنمة عن خور الشاعر وذبوله أمام المرأة.

أما القصيدة الاعتذارية ذات الأربعين بيتا، وقد سبق إدراجها عند تحليل الاعتذار ودلالاته النفسية فبالرجوع إليها نجد أن إيقاعها يتجلى من خلال كثرة الأمر والنهي والنداء والجزم والاستفهام. فالأمر والنهي محوريان من بداية القصيدة إلى غاية البيت التاسع في مثل: "سكن" "أزجر" "فوض" "لا ترعك" "واصبر" وهي توحي بنفسية مروعة جازعة يدفعها الرعب والخوف إلى مهاوي الجزع واليأس لتستمسك بحبل الصبر والتفويض، وبين الجزع والتماسك يلجأ الشاعر إلى مواساة نفسه فيتجلى من خلال الجزم والاستفهام حواره الداخلي وصراعه مع نفسه المتهاوية أمام خوف الأب:[1]

وإن تكن خيبة في الدهر واحدة   فكم غدوت ومن أشياعك الظفر

1- المعتمد. الديوان. ص100.

إن كنت في حيرة من جرم مـــجترم   فإن عذرك في ظلمائها قمـــر

كم زفرة في شغاف القلب صاعـــدة   وعبرة من شؤون العين تنحدر

والظاهرة اللافتة للانتباه هي أن الشاعر بمجرد ما يتحول خطابه إلى أبيه، يعود إلى توظيف الكلمات والحروف ذات المد واللين وتبرز هذه الظاهرة عند طلب الصفح منه وحديثه عن مرضه وتبرئته لذمته من مسؤولية الهزيمة:

قد أخلقتني "صروف" أنت تعلمها   "وقال" "موردها": "ما" لي"بها" صدر

فالنفس جازعة والعين "دامعـــــة"   "و الصوت" مرتفع والسر منتشـــــر

"وزاد" همي "ما" بالجسم من سقم   وشبت رأسا و لم يبلغني الكبـــــــر

وذبت "إلا" "ذماء" في يـــمسكني   أني عهدتك " تعفو" حين تقتـــــدر

كم يأتي عبدك ذنبا يستحق بـــــه   عتبى، وهاهو قد ناداك يعتـــــــذر؟

إن الكلمات والحروف من مثل: "صروف" "قال" "مالي" "جازعة" "دامعة" "ما" "إلا" "تعفو" "ها" "ناداك" لتشي بحالة الشاعر أمام أبيه فهو في غاية التضعضع والخوف والحزن وكل هذا يبرز عن طريق الإيقاع الناتج عن المدود خاصة حتى ليكاد القارئ أن يسمع الآهات ويرى صورة الارتباك من خلالها.

والخلاصة الأولية التي نستخلصها من خلال هذين النموذجين هي أن الإيقاع يتطابق فعلا مع نفسية الشاعر المتجاذبة بين الانعتاق من مراسيم الأب والدور والتقيد بالمسؤولية والواجب، أو التناقض بين الشاعر الإنسان والأمير القائد.

في مرحلة الملك نجد نَفَسَ الشاعر قد تحرر نوعا ما، إذ من مجموع تسع قصائد نجد ستا منها تجاوزت العشرة أبيات أي مايعادل (66,66 %)، ومن هذه القصائد الست التي تجاوزت العشرة لا نجد إلا قصيدتين لهما علاقة بالمملكة وشؤونها. أما القصائد المتبقية فهي إجازات ومطيرات ورسائل أخذ الشاعر ابن زيدون النصيب الأوفى منها بمعدل ثلاثة من أربعة حيث نجد إيقاعها خافتا فهي مجاملات خالية من الحرارة مثل

قوله فيه[1]:

وسألنا صقــر أطيـــــا ــــرك بالسر فأخبـــــر

وغدا النســـر خطيبـــا إذ غدا القرطاس منبـــر

وبدا ما كان يـــخفـــى وفشا ما كان يستـــــر

لا شك أن الحرص على توليد المعاني، وتشكيل الطباقات له أثر سلبي إذ يبدو الإيقاع ثقيلا لاتبدو منه حرارة تجربة، أو انفعال نفس.

أما القصيدتان اللتان لهما علاقة بالمملكة وشؤونها فالأولى في تأنيب ابنه " الراضي" الذي تقاعس عن مواجهة الجيوش وتلكأ في تنفيذ أمر أبيه بالاتجاه على رأس الجيش بحجة التمارض والانشغال بالعلم والمطالعة، فجاءت أبياتها تعبيراً عن غضب وسخط المعتمد على ابنه في أسلوب ساحر تميز بانسياب صوتي وتدفق للمعاني المتناظرة المتقابلة العاكسة لتناقض موقف الابن مع موقف الأب، فالأول يؤثر العلم والدراسة، والثاني يدعوه للملك والقيادة، ومن هذا التناقض تدفقت المعاني المتناظرة المتقابلة في سيولة صوتية محمّلة بالمعاني الساخرة. يقول[2]:

الـــملك في طي الدفاتـــــر فتخل عن قود العساكـــــر

طف بالسرير مسلمـــــــــا وارجع لتوديع الـــمنابـــــر

وازحف إلى جيش المعارف تقهر الحبر الـــمقامـــــــــر

واطعن بأطراف اليـــــــــرا ع نصرت في ثغر الـــمحابر

واضرب بسكين الـــــدوا ة مكان ماضي الحد باتـــــر

أو لست رسطاليــــــس إن ذكر الفلاسفة الأكابـــــــر

وكذلك إن ذكر الـــخليـــ ـــل فأنت نحوي وشاعـــــر

1- المعتمد. الديوان .ص112

2- م ن. ص137، 138

وأبو حنيفة ساقــــــطْ ... فــي الرأي حين تكون حاضر

من هرمس؟ من سيبويــ ... ــه من ابن فورك إن تناظــر؟

هذي المكارم قد حويــ ... ــت فكن لمن حاباك شاكــر

واقعد فإنك طاعــــــم ... كاس! وقل هل من مفاخــــر

والقصيدة الثانية المتعلقة بالمملكة وشؤونها جاءت في ستة عشر بيتا في شان صديقه ابن عمّار لما تمرد وتصرف في شؤون مرسية عكس أوامر المعتمد فثارت ثائرته وغضب عليه فقال فيه[1]

الأكثرين مسودا ومــملكـــــــا ... ومتوّجا في سالف الأعصـــــار

الـــمكثرين من الكباء لنارهـــــم ... لا يوقدون بغيره للسّــــــاري

والـــمؤثرين على العيال بزادهــــم ... والضاربين لـــهامة الجبـــــار

الناهضين من الـــمهود إلى العلـــى ... والـــمنهضين الغار بعد الغـــار

إن كوثروا كانوا الحصى أو وفاخروا ... فمن الأكاسر من بنـــي الأحرار

يضحي مؤملهم يؤمل كسبـــــه ... ويبيت جارهم عـــزيز الجـــار

تبكي عليهم شنبوس بعبـــــرة ... كأتيِّها الـــمتدافع التيــــــار

يبكي لها القصر الـــمنيف تـــلألأت ... شرفته في خضرة الأشجــــــار

ماضاحكته الشمس إلا خلتـــــه ... نضحت جوانبه بماء نضــــــار

تبكي القيان تجاوبت أوتارهــــــا ... في ساحتيه تجاوب الأطيــــــار

ياشمس ذاك القصر كيف تـــخلصت ... فيه إليك طوارق الأقــــــــدار

فالقصيدة تبدو من حيث المعنى غامضة لالتباس غرض الهجاء بالمدح، ولابتدائها باسم منصوب وغموض العامل

1- المعتمد: الديوان.ص141

الناصب، وإذا حاولنا أن نقدره اعتمادا على سياق الأحداث التاريخية التي تقول إن المعتمد " أمر وزيره أبابكر بن عمّار أن يطلق سراح ابن طاهر عند استيلائه على مرسية (471)، ولكن ابن عمار لم يفعل، فتمكن ابن طاهر من الفرار بمساعدة ابن عبد العزيز صاحب بلنسية من عمل مرسية، فملك الغضب ابن عمار ونظم قصيدة يحض فيها أهل بلنسية على الوثوب بابن عبد العزيز ومطلعها:

خبّر بلنسيه، وكانت جنـــة أن قد تدلت في سواء النـــــار

وعلم المعتمد بالأمر وبلغته قصيدة ابن عمار فغضب عليه لأن ابن عبد العزيز كان صديقا له " [1].

يمكننا القول إن المعتمد يوبخ ابن عمار، فكأنما يقول: " أتحرض على: " الأكثرين مسودا وممّلكا" أو "أتهجو" : " الأكثرين مسود وممّلكا " ويتضح لنا المعنى عند البيت السابع أي - أننا بربط السياق ببعضه- نجد الشاعر يقول أتهجو هؤلاء الذين " تبكي عليهم شنبوس بعبرة ..." لأن شنبوس قرية ابن عمار الخاملة تشتاق وتهتز لكرم هؤلاء ومجدهم وعزهم.

وعلى هذا الفهم نجد أن القصيدة تقوم على التعريض بوضاعة النسب التي تسم ابن عمّار، وقد اعتمد ايقاع القصيدة على " الأسماء" المشتقة فقوة الموسيقى الداخلية نابعة من تزاحم هذه المشتقات: (الأكثرين، مسودا، مملكا، متوجا سالف، المكثرين، الساري المؤثرين، الضاربين الجبّار، الناهضيم، المنهضين، مؤملهم المتدافع، المنيف) وتزاحم هذه المشتقات يشيع منه غضب كبير عل صديقه ووزيره الذي أوقعه في حرج لم يجد ما يدفعه به سوى تعييره بوضاعة نسبه الذي لا يُذكر مع من سولت له نفسه التحريض عليهم.

إن أهم ما يستخاص من تحليلنا للإيقاع في هذه المرحلة من حياة المعتمد، هوأن الشاعر كان ضعيف النَفَس، قليل الانتاج الذي لايتعدى المقطوعات ذات البيتين أو الأربعة، فعدد القصائد في مرحلتي الإمارة والملك سبعة عشرة قصيدة، نجد ثمان منها يتراوح عدد أبياتها ما بين سبعة وثمانية أبيات. وبغض النظر عما إذا كان بعض

1-المعتمد: الديوان.ص141

شعر المعتمد لم يجمع بعد أوضاع، فإن ضعف النفس وقلة الانتاج والاعتماد على المقطوعات يكشف أن الشعر عند المعتمد لم يكن شغله الشاغل، فهو يجد فيه متنفسا أثناء انهماكه في اللذات وأثناء إدارته لشؤونه ومسؤولياته وبالنظر إلى طبيعة العصر وانتشار الشعراء وقول الشعر، فإن الظاهرة السابقة لا يمكنها أن تمدنا بدلالات إضافية عن شخصية الشاعر.

غير أن أننا عندما ننتقل إلى المرحلة الأخيرة من حياة الشاعر، أي مرحلة الأسر نجد أن المأساة التي عاشها قد فجرت فيه ينابيع القول حيث بلغت قصائده اثنتين وعشرين قصيدة وهو ما يفوق مرحلتي الإمارة والملك، ومن هذا المجموع نلاحظ أن اثنتي عشرة قصيدة تبدأ من عشرة أبيات وتنتهي عند سقف العشرين بيتا.

والإيقاع في هذه المرحلة هو إيقاع العويل والبكاء، فالشاعر يبث صرخته في وجه الذين يدعونه إلى الصبر عقب أسره ومقتل ولديه[1]:

يقولون صبرا، لاسبيل إلى الصبـــر   سأبكي وأبكي ما تطاول من عمري

فالصرخة نستشعرها قوية بمجابهة الداعين إلى الصبر بالنفي "لاسبيل " ثم بالواجهة السافرة المتجلية من التكرار لفعل "سأبكي وأبكي" مقرونًا بضمير المتكلم أي أنا الملك سابقا، الفارس سابقا، الشجاع سابقا، لم يبق لي من كل هذا شيء سوى البكاء، ويبدو أن المعتمد قد أيقن بأن أسره سيكون خاتمته المفجعة، فبث لنا يقينه عبر حرف المد " ما "، " تطاول". ويزيد حرفا الزيادة في الفعل " تطاول" شحنة إضافية لمعاناته الطويلة المتطاولة ويظل صدى الإصرار على البكاء والعويل يملأ أبيات القصيدة:

نرى زهرها في مأتـــم كل ليلـــة   يخمشن لَهَفًا وسطه صفحة البــــــدر

ينحن على نـــجمين أثكلن ذا وذا   ويا صبر ما للقلب فبي الصبر من عذر

مدى الدهر فليبك الغمام مصابـــه   بصنويه يعذر في البكاء مدى الدهــــر

1- المعتمد، الديوان ص 162، 163

بعين سحاب واكف قطر دمعها　　　على قبر حل فيه أخو القطـــــــــر

وبرق ذكي النار حتى كأنـــــــما　　　يسعَّر مـــما في فؤادي من الـــجمر

ثم بعدها يخفت صوت العويل حينما يقف الشاعر مع نفسه ليراجعها لعلها تسمع أصوات العقل الداعية إلى الصبر:

هوى الكوكبان؛ الفتح ثم شقيقه　　　يزيد، فهل بعد الكواكب من صبر؟

إن الشاعر يذكر اسم الفجيعة وفي ذكرها يجد الشاعر نفسه أمام الحقيقة المرة، والمصيبة العظيمة، والنفس في بعض الأحيان لا تجد علاجا أفضل من "الصدمة " التي توقظها من غيبوبتها، ويبدو أن الشاعر قد أفلح في تهدئة نفسه بعد ما ردد عليها اسم المصيبة " هوى الكوكبان "، فإنه وإن نفى وتعجب ان يكون بعد ذلك مجال للصبر " فهل بعد الكواكب من صبر؟" راح يعزي النفس بما تناله من أجر إن هي صبرت على فقد الأبناء:

أفتح لقد فتحت لي باب رحمة　　　كما بيزيد الله قد زاد في أجـــري

وبعدها نجد الشاعر يناجي ولديه، ومع المناجاة يخفت الإيقاع متناسبا مع انطفاء جمرة اللوعة بتسليمه واستسلامه للمصير، وبتأمله في حاله التي لو عاد ولداه ورأياه عليها لفضلا العودة إلى القبر.

لا شك أن الشاعر يهدهد نفسه بتوالي " الأفعال الماضية " و" المضارعة " ساردا فواجعه المتتالية "هوى، توليتما، صغرت، لم تلبث، انتهت، عدتما، اخترتما، أبصرتماني، يعيد تبكى، تذللها، تفزع، تصبر، تبكي، تزجرها، أورثنين ودعت... "

وبوصف الشاعر لحاله وحال بناته وزوجته تتداعى أمامه النوائب عظيمة تنسي التالية المصيبة التي قبلها.

وفي موضع آخر نجد الشاعر يقارن ماضيه السعيد بحاضره التعيس، ومن تناقض الماضي والحاضر يطبع الطباق القصيدة بطابع المأساة، ويشي الإيقاع بتعاقب الأيام ينكر السابق منها اللاحق، ويثور اللاحق عل السابق، ولا يتوقف هذا الإيقاع المتعاقب إلا على عصارة التجربة وخلاصة المأساة

فيقول[1] :

فيما مضى كنت بالأعياد مسرورا فساءك العيد في أغمات مأســـورا

ترى بناتك في الأطمار جائعـــــة يغزلن للناس ما يملكن قطميـــــرا

برزن نـــحوك للتسليم خاشعـــة أبصارهن حسيرات مكاسيـــــــرا

يطأن في الطين والأقدام حافيـــــة كأنها لم تطأ مسكا أو كافــــورا

أفطرت في العيد لاعادت إساءتـــه فكان فطرك للأكباد تفطيـــــــرا

قد كان دهرك إن تأمره مـــمتثلا فردك الدهر منهيا و مأمــــــــورا

من بات بعدك في ملك يسر بـــه فإنما بات بالأحلام معــــــــرورا

وتبدو نفسية المعتمد أقل انفعالا مما سبق، إذ يبدو أنه تعايش مع المأساة وألف رتابة أيامها، فلم تبق إلا المناسبات تثير الماضي، ومن مظاهر قلة الانفعال اهتمامه الواضح بجناس الاشتقاق

أفطرت في العيد لاعادت إساءته فكان فطرك للأكباد تفطيــــرا

(فطرك= تفطيرا) (العيد= عادت) فمن الواضح أن الاهتمام بالمحسنات إنما ياتي على حساب صوت التجربة ووقعها.

1-المعتمد. الديوان.ص 168، 169

إن دراسة الايقاع ودلالته النفسية، واعتماده كمنطلق لتحليل نفسي منهجي يمكن ان يكون بحثا منفردا، وهذه النماذج التي حاولت فيها أن أقوم بقراءة نفسية المعتمد من خلال إيقاع بعض قصائده التي قالها خلال مسار حياته بمراحله التاريخية الثلاث، تبين أن إمكانية هذه العملية قائمة شريطة أن تكون متكاملة مع ما توصل إليه الدرس الصوتي خصوصا والبلاغة عموما.

صحيح إنه لا يمكن أن تكون الدراسة الإيقاعية مفتاحا لدقائق نفسية المبدع، إلا أنها يمكن أن تكون مفتاحا لأهم الملامح وأبرزها، وقد رأينا كيف كان الإيقاع كاشفا لقوة الدور الذي لعبه الأب في شخصية المعتمد، والدور الذي لعبته المرأة في حياته وقد رأينا أن شخصيته الخائرة التي كشفها التحليل النفسي لشعره تجلت من خلال إيقاع أهم القصائد التي قالها في أبيه وفي زوجه فتبينا لنا مظهر العصابية مع أبيه من خلال تناقض الموسيقى الداخلية مع الموسيقى الخارجية؛ فالأولى وجدناها قوية تعبر عن الرفض والتمرد، والثانية وجدناها ضعيفة رخوة تعبر عن التطابق الظاهري معه.

و لم يستطع الإيقاع في مرحلة الأسر أن يقدم لنا شيئا ذا بال إذ اكتفينا بالملمح العام المتمثل في وقع المأساة التي فجرت عويل الشاعر وبكاءه.

الخاتمة والنتائج

إن ثراء شخصية المعتمد بن عباد وتعدد أبعادها، وكثافة ظلالها كانت وراء انجذابي لدراستها دراسة نفسية كاشفة مكنتني من تسجيل بعض النتائج التي أرى أنها اقتربت قدر الإمكان من واقع هذه الشخصية. وأهم هذه النتائج هي:

1- شخصية المعتمد بن عباد شخصية فنان مرهف الحس، محب للحياة، مقبل على لذاتها إلا أن هذا الفنان وجد نفسه مرغما على لعب دور حقق له كل رغباته، لكنه في المقابل كان يناقض كل خصائصه النفسية؛ فلئن أتاح الملك له فرص التمتع بالحياة ولذاتها، فإن موقعه حتم عليه ألا ينطلق كل الانطلاق في ذلك؛ وألا يسترسل في اقتناصها كما يحلو للفنان الحر من كل القيود، فلما حاول أن يتفلت من مقتضيات المنصب وقيوده اصطدم بسلطة أب قاهر علمه الزمان الطائفي أن يطلب المجد ويقدر مهره جيدا، ومن هذا الاصطدام تشكل لدى المعتمد العصاب المفجر لشحنة الإبداع، وبرز التجاذب الوجداني كسمة بارزة لشخصيته في بداية المطاف.

2- إن شخصية الفنان المبدع شخصية، نزاعة للتحرر وهذه النزعة هي سر العديد من السلوكات الغرائبية التي شكلت علامات تفرد المعتمد الذي كسر كل الأطر السياسية التي وجد نفسه فيها، ولا شك في أن مقامه الريادي قد زاد في هالة وضخامة سلوكاته ومواقفه، حتى صارت شخصيته مادة أسطورية وسيرته حكاية ملحمية.

3- لقد مارس المعتمد السياسة بعقلية الفنان ذي الروح الشفافة التي تستكنه مجرى الأحداث، وتتجه إلى جوهر القضايا، وكان لهذه العقلية، ولهاته الروح أثر بارز في نهايته المأساوية من جهة، ودخوله ساحة الخلود مع الأبطال من جهة أخرى؛ فسيرته كفنان لم ترض الضمير الشعبي، إلا أن تعاطيه السياسي خصوصا عند اشتداد الضغط الصليبي قد شفع له أخطاءه وتجاوزاته، لأنه بدا في نهاية المطاف أشرف من

الذين رشحوا أنفسهم للذوذ عن الشرف العام، وأصدق من الذين ثاروا على زيف وإجرام العصر الطائفي.

4- إن شخصية المعتمد يمكنها أن تكون مرآة صادقة للعصر الطائفي بسلبياته الجسيمة وإيجابياته الكثيرة؛ فهو يبدوا نموذجا لملوك انغمسوا في الشهوات، واستترفوا خيرات ممالكهم في طلبها وفي الحفاظ عليها ولو بدفع كرامتهم للأعداء بالتقسيط دون أن يجتهدوا في دفع الهوان عنهم وعن أمتهم، كما يبدو المعتمد نموذجا لتصورات ملوك الطوائف وفهمهم لمسألة الملك والمجد حيث يؤثرون المظاهر الزائفة والعظمة النفاجية وفي هذا السياق قدموا للأدب والعلم خدمات جليلة، فعرفت الأندلس في ظلهم أزهى عصورها في هذا المجال.

5- إن العصر الطائفي عصر ساحق قاهر وخير من ظهرت عليه الاستجابة القهرية الخصائية هو المعتمد نظرا لمكانة مملكة بني عباد ومترلتها وتاريخ عائلتها ونظرا لطبيعة شخصية المعتمد. وقد رصد البحث العديد من هذه العلامات التي ظهرت بقوة في مرحلة الإمارة حيث صادف تفتق موهبته الشعرية مرحلة اشتداد عمود المملكة الطامحة للتوسع ولبسط النفوذ؛ فكان لهذا التباين والتعاكس بين خط توجهه الشخصي والخط العام لتوجه المملكة الدور الكبير في ظهور علامات القهر والخصاء كنتيجة منطقية تعكس مدى التجاذب بين الخطين، وقد برزت قبضة والده المعتضد لتكون السبب المباشر في إحداث تلك العلامات، ولا شك في أن يد الوالد إنما تتحرك تحت وطأة وتأثير العصر.

6- حافظ المعتمد على تقديره لذاته فلم ينل القهر منه رغم حدته والسبب في ذلك هو قدرته على التكيف مع الضغوط فقد قضى مرحلة الإمارة بين إقبال على المهام التي يهيأ لها، وبين انغماس في مباهج الحياة ولذاهما، ومهما تخلل هذه الفترة من عقد وهوامات وعثرات فإنه، استطاع في نهاية المطاف أن يحافظ على شخصيته بعيدة عن العقد النفسية المرضية.

7- يعد نصر الزلاقة منعرجا حاسما في حياة المعتمد لأنه حرره كليا من كل المشاعر السلبية والعوائق النفسية التي كبلت خطاه، وقد جاء هذا النصر ليفعل التحولات الجذرية التي بدأ مسار حياته يعرفها في سياق سعيه لإعادة صورته الشعبية، كما كان هذا النصر من أكبر العوامل التي وجدت النفس فيها ملاذا يحميها من آلام الخلع والأسر حيث كان الانكفاء على الماضي بأمجاده كفيلا – بصورة عامة – بأن يحافظ المعتمد على رباطة جأشه، فظل معتزا بتاريخه الشخصي والتاريخ العام لسلالته، ولو كضرب من ضروب وصور التعويض.

8- يعد شعر المعتمد سجلا لحياته، فديوانه من القصيدة الأولى إلى القصيدة الأخيرة ينطوي على أيامه ومراحل حياته، وتقلبات نفسه، ولهذا جاء البحث متدرجا مع حياة المعتمد مرحلة مرحلة أو قصيدة قصيدة.

9- إن المنهج النفسي هو أفضل منهج يستوعب شخصية المعتمد ويستكنه أبعادها ويفسر سلوكاتها ومواقفها، ولهذا فأفضل طريقة للإحاطة بحياة المبدع، التي تظل تجاربها وأعماقها مترسبة في ما تنتجه من إبداع هي التمكن من آليات هذا المنهج وإجراءاته.

10- إن أقسى مرحلة في حياة المعتمد هي أثراها فنيا وإبداعيا وجماليا، إلا أن المنهج النفسي يركز على الجوانب التاريخية الخاصة، بحياة المبدع ولهذا أهملها البحث فوظيفته تبدو أشبه ما تكون بوظيفة من يجوس في حديقة ورد بحثا عن الأشواك وكشفا عن الأمراض التي تشيع في تربتها.

11- إن التحليل النفسي الذي مارسته في هذا البحث ما هو إلا محاولة أولية فهو أقرب إلى ما يسميه علماء هذا المجال " بالتحليل الوحشي " ولهذا فالأحكام الواردة تبقى عرضة للتطوير والإلغاء، والمواقف الصادرة قابلة للتغيير تبعا للتمكن من آليات هذا المنهج مستقبلا.

قائمة المصادر والمراجع

I- المصادر

1- القرآن الكريم.

2- المعتمد بن عباد (أبو القاسم محمد).

- ديوانه، جمع وتحقيق، د. رضا الحبيب السوسي. الدار التونسية للنشر. 1975.

II- المراجع العربية

3- ابن الأبار (أبو عبد الله محمد).

- الحلة السيراء. تحقيق د.حسين مؤنس، الشركة العربية للطباعة والنشر. القاهرة الطبعة الأولى. 1963.

4- ابن بسام. (أبو الحسن علي - الشنتري).

- الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة. تحقيق. د. إحسان عباس.الدار العربية للكتاب. ليبيا-تونس.1981.

5- ابن بشكوال(أبو القاسم خلف ابن عبد الملك).

- كتاب الصلة. تحقيق عزت العطار الحسني.مكتبة الخانجي. القاهرة. ط2. 1994.

6- ابن حزم (علي بن أحمد).

- جمهرة أنساب العرب. تحقيق، عبد السلام هارون. دار المعارف. مصر. 1962.

7- ابن خاقان (أبو نصر الفتح محمد).

- قلائد العقيان في محاسن الأعيان: - تقديم محمد العنابي. المكتبة العتيقة. تونس. 1996

- تصحيح سليمان الحرايري. المطبعة الجديدة Leca Fils قسنطينة.

- تصحيح علي بن أحمد الهواري. مطبعة التقدم العلمية. مصر. الطبعة الأولى 1320 هـــ.

8- ابن خاقان (أبو نصر الفتح محمد).

- مطمح الأنفس ومسر التأنس في ملح أهل الأندلس. تحقيق محمد علي شواكبة. دار عمار. مؤسسة الرسالة. الطبعة الأولى. 1983.

9- ابن الخطيب (لسان الدين).

- الإحاطة في أخبار غرناطة. تحقيق محمد عبد الله عنان. مكتبة الخانجي. القاهرة. 1974.

10- ابن الخطيب (لسان الدين).

- الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية.تصحيح البشير الفورتي.مطبعة التقدم الإسلامية.تونس. الطبعة الأولى.

11- ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد).

- المقدمة. دار الجليل. بيروت. [د. ط] [د. ت]

12- ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد).

- كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر. دار الكتاب اللبناني. 1968.

13- ابن خلكان (شمس الدين أحمد).

وفيات الأعيان.وأنباء أبناء الزمان. تحقيق. د. إحسان عباس. دار صادر. بيروت. [د. ط] [د. ت].

14- ابن دحية (عمر).

- المطرب من أشعار أهل المغرب. تحقيق إبراهيم الأبياري ود. حامد عبد المجيد ود. أحمد بدوي. دار العلم للجميع. بيروت. 1955.

15- ابن رشيق (أبو علي الحسن – القيرواني).

- العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده. تحقيق، د. عبد الحميد هنداوي. المكتبة العصرية. بيروت. الطبعة الأولى 2001.

16- ابن سعيد الغرناطي (علي).

- المغرب في حلى المغرب. تحقيق خليل المنصور. دار الكتب العلمية. بيروت. الطبعة الأولى. 1997.

17- ابن عذاري (أبو عبد اللله المراكشي).

- البيان المغرب في أخبار ملوك الأندلس والمغرب. تحقيق ومراجعة، ج. س. كولان، وإ. ليفي بروفنسال. دار الثقافة. بيروت. الطبعة الثانية. 1980.

18- ابن العماد (أبو الفلاح عبد الحي، الحنبلي).

- شذرات الذهب في أخبار من ذهب.دار إحياء التراث العربي. بيروت. [د. ط] [د. ت].

19- ابن قتيبة (أبو محمد عبد الله).

- عيون الأخبار. دار الكتاب العربي. [د. ط] [د. ت].

20- أبو بكر بن القوطية (محمد بن عمر).

- تاريخ افتتاح الأندلس. تحقيق وتعليق إسماعيل العربي. المؤسسة الوطنية للكتاب. الجزائر. 1989.

21- د. إحسان عباس

- تاريخ الأدب الأندلسي. عصر الطوائف والمرابطين. دار الثقافة. بيروت. الطبعة السادسة. 1981.

22- أحمد حيدوش

- الاتجاه النفسي في النقد العربي الحديث. ديوان المطبوعات الجامعية. الجزائر. [د. ط] [د. ت].

23- أحمد مختار العبادي

- في تاريخ المغرب والأندلس. دار النهضة العربية. 1978.

24- د. أحمد النابلسي.

- أصول الفحص النفسي ومبادئه. المكتب العلمي للكمبيوتر والنشر والتوزيع. الإسكندرية. 1997.

25- امرؤ القيس

- ديوانه. شرح الأعلم الشنتمري.تصحيح ابن أبي شنب.الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.الجزائر.1974.

26- د.أمين توفيق الطيبي.

- دراسات وبحوث في تاريخ المغرب والأندلس. الدار العربية للكتاب. ليبيا – تونس. 1984.

27- أنخل جنثالث بالنثيا.

- تاريخ الفكر الأندلسي. ترجمة د. حسين مؤنس.مكتبة الثقافة الدينية. القاهرة.[د. ط] [د. ت].

28- أنطوان بشارة قيقانو.

- جدول السنين الهجرية وما يوافقها من السنين الميلادية. دار المشرق.بيروت. الطبعة الثانية.1997.

29- د. بيار خباز

- محمود تيمور وعالم الرواية في مصر. دار المشرق. بيروت. الطبعة الأولى. 1994.

30- د. جابر عبد الحميد جابر (تأليف مشترك)

- معجم علم النفس والطب النفسي. دار النهضة العربية. مصر. 1990.

31- جان ستاروبنسكي.

- النقد والأدب. ترجمة. د. بدر القاسم. منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي. دمشق. 1976.

32- جان لابلانش (تأليف مشترك).

- معجم مصطلحات التحليل النفسي. ترجمة د. مصطفى حجازي. ديوان المطبوعات الجامعية. الجزائر. الطبعة الأولى. 1985.

33- جان لوي كابانس.

- النقد الأدبي والعلوم الإنسانية. ترجمة. د. فهد عكام. دار الفكر. الطبعة الأولى. 1982.

34- جهاد فاضل.

- أسئلة النقد. الدار العربية للكتاب. [د. ط] [د. ت].

35- جورج طرابيشي.

- المثقفون العرب والتراث، التحليل النفسي لعصاب جماعي، رياض الرئيس للكتب والنشر. المملكة المتحدة الطبعة الأولى 1991.

36- الحافظ الذهبي (شمس الدين).

- العبر في خبر من غبر.تحقيق. محمد السعيد زغلول.دار الكتب العلمية.بيروت.الطبعة الأولى 1985.

37- د. حامد أبو أحمد (تأليف مشترك).

- كلمات من طمي الفرات. الناشر مجلة العربي. الكتاب رقم 58. الطبعة الأولى 2004.

38- الحريري (أبو محمد القاسم بن علي).

- شرح مقامات الحريري. مكتبة ومطبعة المشهد الحسين. القاهرة.

39- د. حسن ظاظا

- كلام العرب. من قضايا اللغة العربية. دار النهضة العربية. بيروت. 1976.

40- د. حسين أبو النجا.

- الإيقاع في الشعر الجزائري. منشورات اتحاد الكتاب الجزائريين. ديسمبر 2003.

41- د. حسين عبد القادر (تأليف مشترك).

- التحليل النفسي. ماضيه ومستقبلة. دار الفكر. دمشق. الطبعة الأولى. 2002.

42- د. حسين فايد.

- الاضطرابات السلوكية، تشخيصها، أسباها، علاجها – مؤسسة حورس الدولية للنشر والتوزيع.

الإسكندرية. 2003.

43- د. حلمي المليجي.

- علم نفس الشخصية. دار النهضة العربية. بيروت. الطبعة الأولى. 2001.

44- الحميري (محمد بن عبد الله).

- صفة جزيرة الأندلس. منتخبة من الروض المعطار. تصحيح ليفي بروفنسال. [د. ط] [د. ت].

45- خير الدين الزركلي

- الأعلام. قاموس وتراجم. دار العلم للملايين. الطبعة 11. مايو. 1995.

46- خير الله عصار.

- مقدمة لعلم النفس الأدبي. ديوان المطبوعات الجامعية. الجزائر. 1982.

47- رولان دالبيز.

- طريقة التحليل النفسي والعقيدة الفرويدية.المؤسسة العربية للدراسات والنشر.بيروت.الطبعة الأولى.1983.

48- سمير الحاج شاهين.

- لحظة الأبدية. المؤسسة العربية للدراسات والنشر – بيروت. الطبعة الأولى. 1980.

49- السيوطي (جلال الدين عبد الرحمان).

- طبقات المفسرين. دار الكتب العلمية. بيروت. [د. ط] [د. ت].

50- د. صالح (يحي الشيخ)

- شعر الثورة عند مفدي زكرياء. دراسة فنية تحليلية. دار البعث. قسنطينة. الطبعة الأولى. 1987

51- د. صلاح خالص.

- إشبيلية في القرن الخامس الهجري. دار الثقافة بيروت. 1965.

- إشبيلية في القرن الخامس الهجري. دار الثقافة بيروت. [د. ط] [د. ت].

52- د. الطاهر أحمد مكي (تأليف مشترك).

- الأندلس. الناشر مجلة العربي. الكتاب رقم 58. الطبعة الأولى. أكتوبر 2004.

53- عبد الحليم محمود السيد.

- الإبداع والشخصية. دراسة سيكولوجية. دار المعارف. مصر. 1971.

54- د. عبد الحميد شاكر.

- التفضيل الجمالي. دراسة في سيكولوجية التذوق الفني. سلسلة عالم المعرفة. المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب. الكويت. العدد رقم 267. مارس 2001.

55- د. عبد الله حمادي.

- دراسات في الأدب المغربي القديم. دار البعث. قسنطينة. الطبعة الأولى. 1986.

56- د. عبد الله محمد الغذامي.

- الكتابة ضد الكتابة. دار الآداب. بيروت. الطبعة الأولى. 1991.

57- د. عبد المالك مرتاض.

- في نظرية النقد. دار هومة. 2002.

58- عبد النور جبور.

- المعجم الأدبي. دار العلم للملايين. بيروت. الطبعة الثانية. 1984.

59- د. عز الدين اسماعيل.

- التفسير النفسي للأدب. دار العودة. بيروت. الطبعة الأولى. 1981.

60- د. عز الدين اسماعيل.

- الأسس الجمالية في النقد العربي. دار الفكر. الطبعة الثانية. 1968.

61- علي الجارم.

- شاعر ملك، مطبعة المعارف ومكتبتها. مصر. [د. ط] [د. ت].

62- العماد الأصفهاني (أبو عبد الله).

- خريدة القصر وجريدة العصر. تحقيق آذرتا أذرنوش. تنقيح محمد المرزوقي ومحمد العروسي المطوي والجيلاني بن الحاج يحيى. الدار التونية للنشر. 1971.

63- غاستون باشلار.

- جدلية الزمن. ترجمة أحمد خليل. ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر. الطبعة الثانية. 1982.

64- غاستون بوتول.

- هذه هي الحرب. ترجمة مروان القنواتي. منشورات عويدات. بيروت. الطبعة الأولى.1981.

65- غرسييه غومس.

- الشعر الأندلسي. ترجمة حسين مؤنس. مكتبة النهضة المصرية. القاهرة. الطبعة الثانية. 1956.

66- د. فاخر عاقل.

- معجم علم النفس دار العلم للملايين. الطبعة الثالثة. 1979.

67- فرويد سيغموند.

- ثلاث رسائل في نظرية الجنس. ترجمة د. محمد عثمان نجاتي. دار العلم للملايين. د. ط] [د. ت].

68- د. فيصل عباس.

- التحليل النفسي للشخصية. دار الفكر اللبناني. بيروت. الطبعة الأولى. 1994.

69- قدامة بن جعفر.

- نقد الشعر. تحقيق د. محمد عبد المنعم خفاجي. دار الكتب العلم. بيروت د. ط] [د. ت].

70- د. كمال دسوقي.

- علم الأمراض النفسية. دار النهضة العربية. بيروت. 1974.

71- ليفي بروفنسال.

- الإسلام في المغرب والأندلس. ترجمة د. محمود عبد العزيز. وأ. محمد صلاح الدين حامي. مؤسسة شباب الجامعة. الإسكندرية. 1990.

72- د. ماجد موريس إبراهيم.

- سيكولوجية القهر والإبداع. دار الفارابي بيروت. الطبعة الأولى. 1999.

73- مادان ساروب.

- دليل تمهيدي إلى ما بعد البنيوية وما بعد الحداثة. ترجمة خميس بوغرارة. منشورات مخبر الترجمة في الأدب واللسانيات. جامعة منتوري قسنطينة. 2003.

74- د. محمد بلوحي.

- الشعر الجاهلي في ضوء القراءات العربية الحديثة. رسالة دكتوراه. مخطوط. قسم اللغة العربية. جامعة وهران. 2000 – 2001.

75- محمد عبد الله عنان.

- دولة الإسلام في الأندلس.العصر الثاني.دول الطوائف.مكتبة الخانجي.القاهرة.الطبعة الثالثة. 1988.

76- محمد عبد الله عنان.

- تراجم اسلامية. مكتبة الخانجي. القاهرة. ط2. 1970.

77- المراكشي (عبد الواحد).

- المعجب في تلخيص أخبار المغرب. تحقيق محمد سعيد العريان، ومحمد العربي العلمي. دار الكتب. الدار البيضاء الطبعة السابعة. 1978.

78- د. مصطفى حجازي.

- التخلف الاجتماعي، مدخل إلى سيكولوجية الإنسان المقهور. المركز الثقافي العربي. الدار البيضاء. الطبعة الثامنة 2001.

79- د. مصطفى يوسف.

- الأسس النفسية للإبداع الفني. دار المعارف. القاهرة. الطبعة الرابعة. 1974.

80- د. مصطفى عليان عبد الرحيم.

- تيارات النقد الأدبي في الأندلس في القرن الخامس هجري. مؤسسة الرسالة. الطبعة الثانية. 1986.

81- د. مصطفى فهمي.

- التكيف النفسي. مكتبة مصر. [د. ط] [د. ت].

82- المقري (أحمد بن محمد).

- نفح الطيب من غض الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب. تحقيق. يوسف الشيخ محمد البقاعي. دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع. بيروت. الطبعة الأولى. 1998.

83- موشيلي روجر.

- العقد النفسية. ترجمة وجيه أسعد. دار البشائر. سوريا. الطبعة الثانية. 1991.

84- ميجان الرويلي (تأليف مشترك).

- دليل الناقد الأدبي. المركز الثقافي العربي. الدار البيضاء. الطبعة الثانية. 2000.

85- د. ميشال عاصي.

- الشعر والبيئة في الأندلس. المكتب التجاري للطباعة والنشر. بيروت. الطبعة الأولى. 1970.

86- د. نجم خريستو.

- النرجسية في أدب نزار قباني. دار الرائد العربي بيروت. الطبعة الأولى 1983.

87- د. نجم خريستو.

- في النقد الأدبي والتحليل النفسي. دار الجيل بيروت. الطبعة الأولى. 1991.

88- نخبة من العلماء المتخصصين.

- الجديد في علم النفس، دراسات معاصرة في علم النفس. ترجمة فؤاد كامل دار الجيل. بيروت. الطبعة الأولى 1987.

89- نديم مرعشلي.

-المعتمد بن عباد.بطل جسد مأساة الأندلس وشاعر غنى مجدها المفقود.دار الكتاب العربي[د.ط][د.ت].

90- هايمن ستانلي.

- النقد الأدبي ومدارسه الحديثة.ترجمة د.إحسان عباس ود. يوسف نجم. دار الثقافة. بيروت. 1981.

91- هزار الزيات.

- يوميات الأبراج. دار الراتب الجامعية بيروت. 1999.

92- والترج كوفيل (تأليف مشترك).

- الأمراض النفسية. ترجمة د. محمد الزيادي. مكتبة الفلاح. الكويت. الطبعة الثانية. 1986.

93- ياقوت الحموي.

- معجم البلدان. تحقيق فريد عبد العزيز الجندي. دار الكتب العلمية. بيروت. الطبعة الأولى. 1990.

94- يوسف اليوسف.

- الغزل العذري. ديوان المطبوعات الجامعية. الجزائر. 1981.

III المراجع الأجنبية

95- Daco. Pierre. Psychologie et Liberté intérieure. Edition Marabout. Alleur. Belgique. 1990.

96- Daco. Pierre. Comprendre les Femmes. Edition Marabout 1978.

97- Freud Sigmund.Cinq leçons sur la psychologie. Edition Payot. France. 1998.

98- Gérard gengembre. Les grands courants da la critique littéraire. Edition le seuil. 1996.

99- Norbert Sillamy. Dictionnaire de la psychologie. Larousse. 1996.

IV- المجلات والدوريات

100- مجلة الآداب. العدد 06. كلية الآداب واللغات. جامعة منتوري قسنطينة. 2003.

101- مجلة الثقافة النفسية. المجلد الأول. العدد 04. تشرين الأول. 1990. دار النهضة العربية بيروت.

102- مجلة الفكر العربي المعاصر. العدد1.نيسان.1981.مركز الإنماء القومي. بيروت.

103- كتابات معاصرة. المجلد السابع. العدد 25. (أيلول – تشرين الأول. 1995.). الشركة العربية للتوزيع. بيروت.

104- مجلة المعرفة. العدد 397. أكتوبر 1996. وزارة الثقافة الجمهورية العربية السورية.

V- المعاجم والمنجدات

101- المنجد في اللغة والأعلام. دار المشرق. الطبعة الحادية والثلاثون. 1991.

الفهرس